

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٨ - سُورَةُ النَّبَأِ

وتسمى سورة (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) . وهي مكية ، وآياتها أربعون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ)

[٢] (عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ)

[٣] (الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)

«عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ» أى هؤلاء المشركون بالله ورسوله . قال ابن جرير^(١) وذلك أن قريشا جعلت ، فيما ذكر عنها ، تختصم وتجادل فى الذى دعاهم إليه رسول الله ﷺ ، من الإقرار بنبوته ، والتصديق بما جاء به من عند الله تعالى ، والإيمان بالبعث . فقال الله تعالى لنبيه : فيم يتساءل هؤلاء القوم ويختصمون ؟ . و (فى) و (عن) فى هذا الموضع بمعنى واحد . انتهى . والاستفهام للتفخيم أو للتبكيك . والتفاعل إما على بابه ، أو هو بمعنى (فعل) . والمعنى على الأول يتساءلون فيما بينهم . وعلى الثانى يسألون الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، أو المؤمنين . قيل مجئ تفاعل بمعنى فعل إذا كان فى الفاعل كثرة ، مراعاة لمعنى التشارك بقدر الإمكان . ونوقش بأن (تفاعل) يكون بمعنى (فعل) كثيراً وإن لم يتعد فاعله . كتوانى زيد وتدانى الأمر . بل حيث لا يمكن التعدد نحو^(٢) (تَمَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) . وقوله :

«عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ» بيان للمفخم شأنه ، أو للمبكت من أجله «الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ» أى مفقسمون ، بعضهم يحجده وآخر يرتاب فيه .

(١) انظر الصفحة رقم ١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢٧ / النمل / ٦٣] .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٤] (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)

[٥] (ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)

« كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ » ردع للمتسائلين ووعيد لهم . والتكرير للمبالغة لحذف مفعول العلم . فإما أن يقدر سيعلمون حقيقة الحال وما عنه السؤال . أو سيعلمون ما يحل بهم من العقوبات والنكال . فتكريره مع الإبهام ، يفيد مبالغة . وفى (ثُمَّ) إشعار بأن الوعيد الثانى أشد . لأنها هنا للبعد والتفاوت الرتبى . فكأنه قيل : ردع وزجر لكم شديد ، بل أشد وأشد . وبهذا الاعتبار صار كأنه مغاير لما قبله . ولذا خص عطفه بـ (ثُمَّ) غالباً . هذا ملخص ما فى (العناية) .

ثم ذكرهم تعالى بدلائل قدرته وآيات رحمته ، بقوله :

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا)

[٧] (وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا)

[٨] (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا)

[٩] (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا)

[١٠] (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا)

[١١] (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا » أى فراشاً وموطئاً تتمهدونها وتفترشونها « وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا » أى للارض . أى أرسيناها بالجبال كما يرسى البيت بالأوتاد ، حتى لا تميد بأهلها فيكمل

كون الأرض مهاداً بسبب ذلك . قال الإمام مفتى مصر : وإنما كانت الجبال أوتاداً لأن بروزها في الأرض كبروز الأوتاد المغروزة فيها، ولأنها في تثبيت الأرض ومنعها من الميدان والاضطراب ، كالأوتاد في حفظ الخيمة من مثل ذلك . كأن أقطار الأرض قد شدت إليها . ولولا الجبال لكانت الأرض دأمة الاضطراب بما في جوفها من المواد الدائمة الجيشان . « وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا » أي ذكوراً وإناثاً . قال الإمام : ليم الاتئناس والتعاون على سمادة المعيشة وحفظ النسل وتكميله بالتربية .

« وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا » أي راحة ودعة ، بريح القوى من تعبها وبعيد إليها ما فقد منها . إطلاقاً للملزوم وهو (السبات) بمعنى النوم ، وإرادة لتلازم وهو (الاستراحة) . وقيل : السبات هو النوم الممتد الطويل السكون . ولهذا يقال فيمن وصف بكثرة النوم : إنه مسبوت وبه سبات . ووجه الامتنان بذلك ظاهر ، لما فيه من المنفعة والراحة ، لأن التهويم والنوم الفرار لا يكسبان شيئاً من الراحة . وقد أفاض السيد المرتضى في أماليه في لطائف تأويل هذه الآية .

« وَجَعَلْنَا أَلْيَلٍ لِبَاسًا » أي كاللباس بإحاطة ظلغته بكل أحد ، وستره لهم . قال الرازي : ووجه النعمة في ذلك ، أن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هرباً من عدو أو بيئاته ، أو إخفاء مالا يحب الإنسان إطلاع غيره عليه . قال المتنبي :
وكم لظلام الليل عندي من يدٍ تخبر أن المانوية تكذبُ
وأيضاً ، فكما أن الإنسان ، بسبب اللباس ، يزداد جماله وتكامل قوته ويندفع عنه أذى الحر والبرد ، فكذا لباس الليل بسبب ما يحصل فيه من النوم يزيد في جمال الإنسان وفي طراوة أعضائه وفي تكامل قواه الحسية والحركية ، ويندفع عنه أذى التعب الجسماني وأذى الأفكار الوحشة .

« وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا » أي وقت معاش . إذ فيه تنقلب الخلق في حوائجهم ومكاسبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا)

[١٣] (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا)

[١٤] (وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً مُبْجَاغًا)

[١٥] (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا)

[١٦] (وَجَنَّتٍ أَلْفَافًا)

« وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا » قال الرازي : أى سبع سموات شدادًا جمع (شديدة) بمعنى محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الزمان ، لا فطور فيها ولا فروج .

وقال الإمام : السبع الشداد الطرائق السبع ، وهي ما فيه الكواكب السبعة السيارة المشهورة . وخصها بالذكر لظهورها ومعرفة العامة لها . « وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا » أى متلألئًا وقادًا . معنى الشمس « وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ » أى السحاب إذا أعصرت ، أى شارفت أن تعصرها الرياح « مَاءً مُبْجَاغًا » أى منصبًا متتابعًا « لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا » قال ابن جرير^(١) : الحب كل ما تضمنه كأم الزرع التى تحصد . والنبات الكلاً الذى يُرعى من الحشيش والزروع .

وقال الزمخشري : يريد ما يتقوت من نحو الحنطة والشعير ، وما يعلف من التبن والحشيش . كما قال^(٢) (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ) .

« وَجَنَّتٍ أَلْفَافًا » أى حدائق ملتفة الشجر ، مجتمعة الأغصان .

قال الرازي : قدم الحب لأنه الأصل فى الغذاء . وثنى بالنبات لاحتياج الحيوانات إليه .

(١) انظر الصفحة رقم ٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢٠ / طه / ٥٤] .

وأخر الجنات لأن الحاجة إلى الفواكه ليست بضرورية . ثم قال : وكان الكعبي من القائمين بالطبائع . فاحتج بقوله تعالى (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا) الخ على بطلان قول من قال : إنه تعالى لا يفعل شيئاً بواسطة شيء آخر . أى لأن ارتباط المسببات بالأسباب مما بنى عليه سبحانه ، بحكمته الباهرة ، نظام العمران .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا)

[١٨] (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا)

« إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ » أى يوم يفصل بين الناس ويفرق السعداء من الأشقياء ، باعتبار تفاوت الأعمال ، وهو يوم القيامة « كَانَ » أى عند الله وفى علمه وحكمه « مِيقَاتًا » أى حدًّا معينًا ، ووقتًا موقتًا ، ينتهى الخلق إليه ليرى كل جزء عمله « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » بدل من (يَوْمَ الْفَصْلِ) أو عطف بيان . كفاية عن اتصال الأرواح بالأجساد ، ورجوعها بها إلى الحياة والحشر فى الآخرة . كما قال القاشانى والشهاب .

وقال الإمام : النفخ فى الصور تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة فى بوق^(١) (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور . وليس علينا أن نعلم ماهى حقيقة ذلك الصور : « فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا » أى فرقًا مختلفة ، كل فرقة مع إمامهم ، على حسب تباين عقائدهم وأعمالهم وتوافقها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا)

[٢٠] (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا)

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٨] .

« وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا » قال ابن جرير^(١): أى وشقت السماء فصدمت، فكانت طُرُقًا، وكانت من قبل شِدَادًا لافطور فيها ولا صدوع .
وقال القاضي فيما نقله الرازى: وهذا الفتح هو معنى قوله^(٢) (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ)^(٣) و (إِذَا السَّمَاءُ انْقَطَرَتْ) إذ الفتح والتشق والتفطر تتقارب، وهذا، كما قاله ابن جرير، متين للغاية . وتعقب الرازى له ، وقوف مع الألفاظ لا يفيد . لاسيما والأصل هو التفسير بالنظائر والأشباه .

« وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » أى رفعت من أماكنها فى الهواء . وذلك إنما يكون بعد تفتيتها وجعلها أجزاء متصاعدة كالهباء . وفى الآية تشبيه بليغ . والجامع أن كلا منهما يرى على شكل شىء، وليس به . فالسراب يرى كأنه بحر وليس كذلك . والجبال إذا فتنت وارتفعت فى الهواء، ترى كأنها جبال وليست بجبال . بل غبار غليظ متراكم، يرى من بعيد كأنه جبل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا)

[٢٢] (لِلطَّاغِيْنَ مَأْبَأًا)

[٢٣] (لِّلْسِينِ فِيهَا أَحْقَابًا)

[٢٤] (لَا يَدُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا)

[٢٥] (إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا)

[٢٦] (جَزَاءً وَفَاءًا)

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

[٨٤ / الانشقاق / ١] . [٨٢ / الانتظار / ١] .

« إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا » أى موضع رصد ، يرصد فيه خزنتها من كان يكذب بها وبالعماد . على أن (مِرْصَادًا) اسم مكان . أو مجذة في ترصدهم وارتقاب مقدمهم . على أنه صيغة مبالغة « لِلطَّاعِنِينَ مَأْبَأً » أى للذين طغوا في الدنيا ، فتجاوزوا حدود الله استكباراً على ربهم ، منزلاً ومرجعاً يصيرون إليه « لَسِيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا » أى دهوراً متتابة إلى غير نهاية . كقوله (١) « خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا » « لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا بِرَدًّا » أى روحاً وراحة « وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا » أى ماء حاراً انتهى غليانه « وَغَسَّاقًا » أى صديداً . وهو ما يخرج من جلودهم مما تصهرهم النار ، في حياض يجتمع فيها ، فيسقونه « جَزَاءً وَفَاءً » أى : جوزوا بذلك جزاءً موافقاً لما ارتكبوه من الأعمال ، وقدموه من العقائد والأخلاق .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] : (إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا)

[٢٨] : (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا)

[٢٩] : (وَكُلُّ شَيْءٍ أَخَصَيْنَاهُ كِتَابًا)

« إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا » قال القاشانى : أى ذلك العذاب ، لأنهم كانوا موصوفين بهذه الذائل من عدم توقع المكافآت والتكذيب بالآيات . أى لفساد العمل والعلم . فلم يعملوا صالحاً رجاء الجزاء ، ولم يعملوا علماً فيصدقوا بالآيات .
« وَكُلُّ شَيْءٍ أَخَصَيْنَاهُ كِتَابًا » قال القاشانى : أى كل شىء من أعمالهم ضبطناه بالكتابة عليهم فى صحائف نفوسهم .

وقال الرازى : المراد من قوله (كِتَابًا) تأكيد ذلك الإحصاء والعلم . وهذا التأكيد إنما ورد على حسب ما يليق بأفهام أهل الظاهر . فإن المكتوب يقبل الزوال ، وعلم الله بالأشياء لا يقبل الزوال ، لأنه واجب لذاته . انتهى .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٥] .

وهو بمعنى ما نقله الشهاب ؛ أنه تمثيل لإحاطة علمه بالأشياء ، لتفهمنا . وإلا فهو تعالى غنى عن الكتابة والضبط . ومذهب السلف الإيمان بهذه الظواهر وتفويض تأويلها إلى الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا)

[٣١] (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا)

[٣٢] (حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا)

[٣٣] (وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا)

[٣٤] (وَكَأْسًا دِهَاقًا)

[٣٥] (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا)

[٣٦] (جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا)

« فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » أى يقال لهم ذلك ، تقرعاً وغضباً وتأنيباً لهم من تخفيف العذاب ، وإعلاماً بمضاعفته .

ولما ذكر وعيد الكفار ، تأثره بوعد الأبرار ، بقوله سبحانه « إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا » أى فوزاً بالنعيم . ونجاة من النار ، التى هى مآب الطاعين « حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا » الحدائق جمع حديقة وهى البستان فيه أنواع الشجر الثمر المحوط بالحيطان المحدقة به . والأعناب معروفة . قال ابن جرير^(١) : أى وكروم وأعناب ، فاستغنى بالأعناب عنها .

« وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا » أى بقات فلست ثديهن ، أى استدارت مع ارتفاع سير « أَتْرَابًا » أى

(١) انظر الصفحة رقم ١٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

متساويات في السن « وَكَأْسًا دِهَاقًا » أى ملاءى من خمر لذة للشاربين « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا » أى فى الجنة « لَعْوًا » أى باطلاً من القول « وَلَا كِذْبًا » أى مكاذبة . أى لا يكذب بعضهم بعضاً .

قال الإمام: اللغو والتكذيب مما تألم له أنفس الصادقين ، بل هو من أشد الأذى لقلوبهم . فأراد الله إزاحة ذلك عنهم « جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً » أى جزاء لهم على صالح أعمالهم ، تفضلاً منه تعالى بذلك الجزاء « حِسَابًا » أى كافياً ، أو على حسب أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا)
« رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا » .

قال ابن جرير^(١) : أى لا يملكون أن يخاطبوا الله . قال : والمخاطب الخاصم الذى يخاصم صاحبه . وقال غيره: أى لا يملكهم الله منه خطاباً فى شأن الثواب والعقاب . بل هو المتصرف فيه وحده . وهذا كما تقول (ملكت منه درهما) ف (من) ابتدائية متعلقة بـ (يملكون) وعلى ما ذكره ابن جرير من أن المعنى لا يملكون أن يخاطبوه بشىء من نقص العذاب ، فـ (منه) صلة (خطاباً) كما تقول (خاطبت منك) على معنى خاطبتك . كـ (بعث زيدا) أو (بعث من زيد) فـ (منه) بيان مقدم على المصدر لا صلة (يملكون) . وقد قرئ (رب) و (الرحمن) بالجر وبالرفع . وقرئ بـ (بجر الأول) ورفع الثانى .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ، لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ
الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا)

[٣٩] (ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا)

« يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ » أى جبريل عليه السلام وهو المبرّ عنه روح القدس فى آية أخرى
وفيه أقوال آخر نقلها ابن جرير^(١) . وما ذكرناه أصوبها . والتزويل يفسر بمضه بمضاً .

ثم رأيت الرازى نقل عن القاضى اختياره ، قال : لأن القرآن دل على أن هذا الاسم
اسم جبريل عليه السلام . وثبت أن القيام صحيح من جبريل ، والكلام صحيح منه ، ويصح أن
يؤذن له . فكيف يصرف هذا الاسم عنه إلى خلق لانعرفه ، أو إلى القرآن الذى لا يصح وصفه
بالقيام ؟ وقوله تعالى « وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا » قال القاشانى : أى صافين فى مراتبهم ، كقوله
تعالى^(٢) (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ وَمَقَامٌ مَّعْلُومٌ) . انتهى .

وقال الرازى : يحتمل أن يكون المعنى صفًّا واحداً . ويحتمل أنه صفان . ويجوز صفوفاً .
والصف فى الأصل مصدر ، فينبى عن الواحد والجمع . ورجح بعضهم الأخير ، لآية^(٣) (وَجَاءَ
رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) انتهى .

وقوله تعالى « لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » أى لا يتكلمون
فى الشفاعة ، كقوله^(٤) (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) والضمير للملائكة أو أعم
كقوله^(٥) (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ) .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٦٤] . (٣) [٨٩ / الفجر / ٢٢] .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٥٥] . (٥) [١١ / هود / ١٠٥] .

قال الزمخشري : هما شريطان : أن يكون التسكلم منهم مأذوناً له في الكلام ، وأن يتسكلم بالصواب ، فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى (١) (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادْتُمْ) .

« ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ » أى الواقع الذى لا يمكن إنكاره و (الْحَقُّ) صفة أو خبر .
 « فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا » قال ابن جرير (٢) : أى فمن شاء اتخذ بالتصديق بهذا اليوم الحق ، والاستعداد له والعمل بما فيه ، النجاة له من أهواله ، مرجعاً حسناً يؤوب إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا)

« إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا » يعنى عذاب الآخرة وقربه . لأن مبدأ الموت « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » أى من خير أو شر . أى يفتقر جزاءه « وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » أى مثله . لم أصب حظاً من الحياة ، لما يلقى من عذاب الله الذى أعد لأمثاله . وقانا الله بمنه وكرمه .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٩ - سُورَةُ النَّازِعَاتِ

وتسمى سورة الساهرة . والطامة . وهي مكية . وآياتها ست وأربعون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا)

[٢] (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا)

[٣] (وَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا)

[٤] (فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا)

[٥] (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا)

« وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا » بمعنى الغزاة أو أيديهم . يقال للرامي (نزع في قوسه) إذا مدها بالوتر . و (نزع في قوسه فأغرق) و (أغرق النازع في القوس) إذا استوفى مدها . ويضرب مثلاً للغلو والإفراط . و (غرقًا) بمعنى إغراقاً كالسلام بمعنى التسليم ، وهو الإغراق بخدف الزوائد . أو (وَالنَّازِعَاتِ) الكواكب . من (نزع الفرس سنناً) جرى طلقاً ، أى الجاريات على السير المقدر ، والحدّ العين ، مجدة في السير ، مسرعة للغاية . « وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا » أى الخيل لأنها تخرج من دار إلى دار . من قولهم (ثور ناشط) إذا خرج من بلد إلى بلد . أو هى السهام . بمعنى خروجها عن أيدي الرماة ونفوذها . وكل شىء حللته ، فقد نشطته . ومنه (نشاط الرجل) وهو انبساطه وخفته . أو الكواكب تنشط من برج إلى برج . « وَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا » أى الخيل تسبح في عدوها فتسبق إلى العدو . وهو مستعار من (سبى في الماء) لكنه الحق بالحقيقة لشهرته . أو هى الكواكب تسبح في الفلك . لأن مرورها في الجو كالسبح ، كما قال تعالى ^(١) (كُلُّ فِي فَلَكَ يَسْبَحُونَ) . « فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا »

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٣] .

أى الخيل تسبق إلى العدو في حومة الوغى . أو الكواكب السيارة تسبق غيرها في السير ، لكونها أسرع حركة . « فَأَلْمَدَّ بِرَاتٍ أَمْرًا » أى الخيل . أسند إليها أمر تدبير الظفر مجازاً ، لأنها سببه . أو المدبرات مثل المعقبات . أى أنه يأتي في أدبار هذا الفعل الذى هو نزع السهام . وسبح الخيل وسبقها ، الأمر الذى هو النصر . أو هى الكواكب تدبر أمراً نيظ بها . كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيت العبادات ، مجازاً أيضاً . لأنها سببه . أو هى الملائكة تدبر ما نيظ بها من أمر الله تعالى . وقد جوز فيما قبلها أن تكون الملائكة أيضاً . واللفظ الكريم متسع لما ذكر من المعانى بلا تدافع . ولا إمكان للجزم بواحد ، إذ لا قاطع . ولذا قال ابن جرير^(١) : الصواب عندى أن يقال أنه تعالى أقسم بالنازعات غرقاً ، ولم يخص نازعة دون نازعة . فكل نازعة غرقاً ، فداخلة في قسمه ، ملكاً أو نجماً أو قوساً أو غير ذلك . وكذا عم القسم بجميع الناشطات من موضع إلى موضع . فكل ناشط فداخل فيما أقسم به ، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها ، بأن المعنى بالقسم من ذلك ، بمض دون بعض . وهكذا في البقية . وكلامه رحمه الله متجه للغاية . إذ فيه إبقاء اللفظ على شموله ، وهو أعم فائدة . وعدم التكافؤ للتخصيص بلا قاطع . وإن كانت القرائن واستعمال موادها فى مثلها وشواهداها ، مما قد يخص الصيغ . إلا أن التنزيل الكريم يتوقى فى التسرع فيه مالا يتوقى فى غيره .

لطائف :

قال أبو السعود: العطف مع اتحاد السكلى ، بتنزيل التغيرات العنوائى منزلة التغيرات الذاتى .

كما فى قوله (٢) :

إلى الملكِ القرمِ وابنِ الهمامِ . وليثِ السكتيةِ فى المزدحمِ
للإشعار بأن كل واحد من الأوصاف المدودة من معظمات الأمور ، حقيق بأن يكون على حياله ،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) ورد هذا البيت فى الخزانة (٢١٦ / ١) غير منسوب .

وكذلك هو فى (معانى القرآن) للفراء (١٠٥ / ١) .

مناطاً لاستحقاق موصوفه للإجلال والإعظام، بالإقسام به من غير انضمام الأوصاف الأخر إليه. والفاء في الأخيرين للدلالة على ترتبهما على ما قبلهما بغير مهلة . و (غَرَقًا) مصدر مؤكد بحذف الزوائد . وانتصاب (نَشْطًا) و (سَبْحًا) و (سَبَقًا) أيضاً على المصدرية . وأما (أَمْرًا) ففعل للمدبرات . وتنكيره للتحويل والتفخيم . والمقسم عليه محذوف، تعويلاً على إشارة ما قبله من المقسم به إليه ، ودلالة ما بعده من أحوال القيامة عليه، وهو (لنبعثن) وبه تعلق قوله تعالى : القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ)

[٧] (تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ)

[٨] (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ)

[٩] (أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ)

[١٠] (يَقُولُونَ أَعْنَانًا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ)

« يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ » أى الواقعة التى ترجف عندها الأجرام الساكنة. أى تتحرك حركة شديدة وتزلزل زلزلة عظيمة. فالإسناد إليها مجازى لأنها سببه . أو التجوز فى الطرف يجعل سبب الرجف راجفًا . أو الراجفة الأجرام الساكنة التى تشدق حركتها حينئذ ، كالأرض والجبال . فتسميتها راجفة باعتبار الأول . قال الشهاب : ولو فسرت الراجفة بالحرركة جاز ، وكان حقيقة . لأن (رجف) يكون بمعنى حرك وتحرك .

« تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ » أى السماء وما فيها . تردفها فتنشق وتنتثر كواكبها . ولوقوع ذلك فيها بعد الرجفة الأولى ، جعلت رادفة لها . أو الرادفة النفخة الثانية لبعث يوم القيامة .

قال الحسن : هما النفختان . أما الأولى فتميت الأحياء . وأما الثانية فتحي الموتى . ثم تلا الحسن ^(١) (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ

(١) [٢٩ / الزمر / ٦٨] .

اللَّهُ ثُمَّ نُنْفِخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) « قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ » أى شديدة الاضطراب، خوفاً من عظيم الهول النازل « أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ » أى أبصار أهلها ذليلة، مما قد علاها من السكابة والحزن ، من الخوف والرعب . وقوله تعالى « يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرَدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ » قال ابن جرير^(١) : أى يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركي قريش ، إذا قيل لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت: أننا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل المات، فراجعون أحياء كما كنا؟ وقال أبو السعود : حكاية لما يقوله المنكرون للبعث المكذبون بالآيات الناطقة به ، إثر بيان وقوعه بطريق التوكيد القسمي ، وذكر مقدماته الهائلة وما يعرض عند وقوعها للقلوب والأبصار. أى يقولون، إذا قيل لهم إنكم تبعثون، منكرين له متمجبين منه: أننا لمردودون بعد موتنا في الحافرة؟ أى في الحالة الأولى . يعنون الحياة . من قولهم (رجع فلان في حافرتة) أى في طريقته التي جاء فيها فحفرها . أى أثر فيها بعشيه . وتسميتها (حافرة) مع أنها محفورة كقوله تعالى^(٢) (فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ) أى منسوبة إلى الحفر والرضا . أو كقولهم (نهاره صائم) على تشبيهه القابل بالفاعل . أى شبه القابل للفعل بمن يفعله ، لتزيله منزلته . فالاستعارة في الضمير المستتر ، وإثبات الحافرة له ، تخميل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا نَّخِرَةً)

[١٢] (قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ)

[١٣] (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ)

[١٤] (فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ)

(١) انظر الصفحة رقم ٣٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ٢١] .

« أءَذَا كُنَّا عِظْمًا نَّخِرَةً » أى بالية . وقرئ نَأْخِرَةً . من (نخر العظم) بلى . فصار يمرّ به الريح فيسمع له نخير ، وقوله تعالى « قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ » أى ذات خسر . أو خاسرة أصحابها . أى إن صحت فنحن إذا خاسرون . قال ابن زيد : وأى كرة أخسر منها؟ أحيوا ثم صاروا إلى النار ، فكانت كرة سوء .

وقال أبو السعود : هذا حكاية لكفر آخر لهم ، متفرع على كفرهم السابق . ولعل توسيط (قالوا) بينهما للإيدان بأن صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطراد والاستمرار ، مثل كفرهم السابق المستمر صدوره عنها في كافة أوقاتهم . حسبما ينبئ عنه حكايته بصيغة المضارع . أى قالوا ذلك بطريق الاستهزاء ، مشيرين إلى ما أنكروه من الردة في الحافرة . وقوله تعالى « فَأِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ » تعليل لمقدر يقتضيه إنكارهم لإحياء العظام النخرة التي عبروا عنها بالكرة . فإن مداره لما كان استصعابهم إياها ، رد عليهم ذلك ، فقيل : لا تستصعبوها فإنما هي صيحة واحدة . أى حاصلة بصيحة واحدة . وهى الففخة الثانية . وفيه تهوين لأمر الإعادة ، على وجه بليغ لطيف « فَأِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » أى على ظهر الأرض أحياء .

قال ابن جرير^(١) : والعرب تسمى القلاة ووجه الأرض ساهرة (قال) وأراهم سموا ذلك بها لأن فيه نوم الحيوان وسهرها . فوصف بصفة مافيه . وقيل لأن السراب يجري فيها . من قولهم (عين ساهرة) للتي يجري ماؤها ، وفى ضدها نائمة . والسهر على الأول بمعناه المعروف ، والتحوز فى الإسناد .

وفى الثانى مجاز على المجاز ، لشهرة الأول التى ألحقته بالحقيقة . ثم ذكر سبحانه الكفرة ما حل بمن هو أشد منهم قوة ، لما طغوا ، ترهيباً وإنذاراً ، بقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ٣٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ)

[١٦] (إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِأَلْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ » أى خبره حين ناجاه ربه تعالى . قال أبو السعود : ومعنى (هَلْ أَتَاكَ) إن اعتبر هذا أول ما أتاه عليه الصلاة والسلام من حديثه عليه السلام ، ترغيب له في استماع حديثه . كأنه قيل هل أتاك حديثه أنا أخبرك به . وإن اعتبر إتيانه ، قبل هذا ، وهو المتبادر من الإيجاز في الاقتصاص ، حملة عليه الصلاة والسلام على أن يقرّ بأمر يعرفه قبل ذلك . كأنه قيل أليس قد أتاك حديثه ؟ .

وقال الشهاب : المقصود من الاستفهام التذكير لا التقرير ، كما قيل . ولا مجافاة في المعنى على كلِّ ، كما لا يخفى « إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِأَلْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى » إلى حين ناداه بالوادي المطهر المبارك . وهو واد في أسفل جبل طور سيناء من برية فلسطين . و (إِذْ) ظرف للحديث لا الإتيان ، لاختلاف وقتيهما و (طُوًى) اسم لذلك الوادي . أو مصدر لنادى . أو المقدس . أى ناداه ندائين . أو المقدس مرة بعد أخرى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ)

[١٨] (فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ)

[١٩] (وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ)

« أذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ » أى عتا وتجاوز حدّه في العدوان على بنى إسرائيل ، وانتحال صفات الربوبية ، ونسبتها إلى نفسه « فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ » أى تزكى

وتتطهر من دنس الشرك والطغيان . و (إِلَىٰ) متعلقة بمبتدأ محذوف . أى هل لك سبيل أو رغبة إلى أن تتركى ؟

وقال أبو البقاء : لما كان المعنى أدعوك ، جىء به (إِلَىٰ) فجعل الظرف متعلقاً بمعنى الكلام أو بمقدر يدل عليه « وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ » أى أرشدك إلى علم ما يرضيه عنك . وذلك الدين القيم « فَتَخْشَىٰ » أى عقابه من سلب الملك وإذاقة البأس مكان النعم . وذلك بأداء ما أزمك من فرائضه واجتناب ما نهك عنه من معاصيه . وفيه إشارة إلى أن الخشمية مسببة عن العلم ، كما فى آية^(١) (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) أى العلماء به . قال الزمخشري : ذكر الخشمية لأنها ملاك الأمر . من خشى الله أتى منه كل خير ، ومن أمن اجترأ على كل شر . وبدأ مخاطبته بالاستفهام الذى معناه العرض . كما يقول الرجل لضيفه : هل لك أن تنزل بنا ؟ وأردفه الكلام الرفيق ، ليستدعيه بالتلطف فى القول ، ويستنزله بالمدارة من عتوه . كما أمر بذلك فى قوله^(٢) (فَقُولَا لَهُ وَقَوْلَا لَنِيْنًا) . انتهى .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ)

[٢١] (فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ)

[٢٢] (مُّمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ)

[٢٣] (فَجَحَشَرَ فَنَادَىٰ)

[٢٤] (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ)

[٢٥] (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْرِقَةِ وَالْأَوْلَىٰ)

[٢٦] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَمِْبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ)

(١) [٣٥ / فاطر / ٢٨] . (٢) [٢٠ / طه / ٤٤] .

« فَأَرْسُلُهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى » أى الدلالة الكبرى على أنه لله رسول أرسله إليه . والفاء فصيحة ، تفصح عن جمل قد طويت ، تعويلاً على تفصيلها في السور الأخرى . أى فذهب وبلغ ورجع وتحدثى ، فأراه الآية الكبرى . وهى على ما قاله مجاهد ، عصاه ويده . أى عصاه إذ تحولت ثعبانا مبينا . ويده إذ أخرجها بيضاء للناظرين . وإفرادها لأنهما كالآية الواحدة فى الدلالة . أو هى العصا لأنها كانت المقدمة والأصل . والبقية كالتبع . قيل : وكونها كبرى باعتبار معجزات من قبله من الرسل . أو هو للزيادة المطلقة « فَكَذَّبَ وَعَصَى » أى فكذب فرعون موسى فيما أتاه من الآيات المعجزة ، ودعاها سحراً ، وعصاه فيما أمره به من طاعة ربه وخشيته إياه « ثُمَّ أَدْبَرَ » أى أعرض عما هدى إليه . أو انصرف عن المجلس كبراً « يَسْعَى » أى يجتد فى معارضة الآية بالمكائد الشيطانية والحيل النفسانية . أو أدبر بعد ما رأى الثعبان ، مرعوباً مسرعاً فى مشيه « فَحَشَرَ » أى جمع السحرة ، أو قومه وأتباعه « فَنَادَى » أى فى المجمع بنفسه أو بجماد « فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » أى على كل من يلى أمركم . وفى (التنوير) : أى أنا ربكم ورب أصنامكم الأعلى فلا تتركوا عبادتها .

قال القاضى : وقد كان الأليق به ، بعد ظهور خزيه عند انقلاب العصا حية ، أن لا يقول هذا القول . لأن ، عند ظهور الذلة والعجز كيف يليق أن يقول (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) ؟ فدلّت هذه الآية على أنه فى ذلك الوقت صار كلمته الذى لا يدرى ما يقول . انتهى .

وهذا على أنه أراد بالرب الخالق والموجد . والظاهر أن مراده ذو السلطان الأعلى والنفوذ الأقوى . وأنه الذى يستأهل الطاعة دون غيره . ولا يخفى ما فيه من جحود قدرة الله تعالى التى هى فوق قدرته ، والكفر بآية موسى والصد عن دعوته . ولذا أخذ أشد الأخذ . فإنه لم يزل فى عقوه حتى تبع موسى وقومه إلى البحر الأحمر ، عند خروجهم من مصر ، فأغرقه الله تعالى فى البحر . وهو معنى قوله تعالى « فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى » أى عذبه عذابهما . أى أن أخذه لم يكن مقصوراً على الإغراق وحده ، بل نكل به وعذبه عذاب يوم القيامة . و (نكال) مفعول مطلق (أخذ) بتأويل فى الأول أو فى الثانى ، والإضافة من قبيل إضافة

الموصوف إلى الصفة . وقيل الآخرة هي قوله (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى) والأولى هي تكذيبه موسى حين أراه الآية

قال القفال: وهذا كأنه هو الأظهر. لأنه تعالى قال (فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ) فذكر المعصيتين ثم قال (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْرِةِ وَالْأُولَىٰ) فظهر أن المراد أنه عاقبه على هذين الأمرين. انتهى. وما ذكره القفال كان وقع في قلبي قبل أن أراه . وأراني في إيثاره . ثم ختم تعالى القصة بقوله « إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّمَن يَخْشَى اللَّهَ يَأْتَخِذُهَا بِحَبْلٍ وَإِن يَأْتِهَا مِن شَيْءٍ سَاءَ لِمَن يَأْتِيهَا مِن شَيْءٍ يَدْعُوهُ بَدِيعًا قَدِ اسْتَدْرَكَ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » . فإن نبأ الأولين عبرة للآخرين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَيْنَهُمَا)

[٢٨] (رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا)

[٢٩] (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا)

[٣٠] (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)

[٣١] (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)

[٣٢] (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)

[٣٣] (مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنعَمِكُمْ)

« ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ » خطاب للمكذِّبين بالبعث من قريش ، المتقدم قولهم أول السورة ، بطريق التبكيت ، لتنبههم على سهولته في جانب القدرة الربانية . فإن من رفع السماء على عظمها ، هيّن عليه خلقهم وخلق أمثالهم ، وإحياءهم بعد مماتهم .

كما قال سبحانه (١) (لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) .
 وقوله تعالى (٢) (أَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ)
 ثم بين كيفية خلقها بقوله « بِنَمَاهَا » قال ابن جرير (٣) : أى رفعها فجعلها للأرض سقفاً .
 وقال الإمام : البناء ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض ، مع ربطها بما يمسكها حتى يكون
 عنها بنية واحدة . وهكذا صنع الله بالكواكب . وضع كلاً منها على نسبة من الآخر ،
 مع ما يمسك كلاً في مداره ، حتى كان عنها عالم واحد في النظر ، سمي باسم واحد وهو
 السماء التي تعلونا . وهو معنى قوله « رَفَعَ سَمَكَمَا » أى أعلاه (السمك) قامة كل شيء
 وقد رفع تعالى أجرامها فوق رؤوسنا « فَسَوَّيْنَاهَا » عدلها بوضع كل جرم في موضعه
 « وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا » أى جعله مظلماً . قال ابن جرير (٣) : أضاف الليل إلى السماء ، لأن الليل
 غروب الشمس ، وغروبها وطوعها فيها ، فأضيف إليها لما كان فيها ، كما قيل (نجوم الليل)
 إذ كان فيه الطلوع والغروب . « وَأَخْرَجَ ضُحْمَهَا » أى أبرز نهارها . و (الضحى) انبساط
 الشمس وامتداد النهار . وإيثار الضحى لأنه وقت قيام سلطان الشمس وكمال إشراقها .
 « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ » أى بعد تسوية السماء على الوجه السابق ، وإبراز الأضواء
 « دَحْمَهَا » أى بسطها ومهددها لسكنى أهلها ، وتقلبهم في أقطارها « أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا »
 أى بأن فجر منها عيوناً وأجرى أنهاراً « وَمَرَعَهَا » أى رعيها وهو النبات .
 قال الشهاب : والمرعى ما يأكله الحيوان غير الإنسان . فأريد به هنا ، مجازاً ، مطلق

المأكل للإنسان وغيره . فهو مجاز مرسل .

وقال الطيبي : يجوز أن يكون استعارة مصرحة . لأن الكلام مع منكرى الحشر
 بشهادة قوله (ءَأَنْتُمْ أَشْدُّ خَلْقًا) كأنه قيل : أيها المائدون المزوزون في قرآن البهائم ،
 في التمتع بالدنيا والذهول عن الآخرة

(١) [٤٠ / غافر / ٥٧] . (٢) [٣٦ / يس / ٨١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

«وَالْجِبَالِ أَرْسَسَهَا» أى أُنبتها فيها «مَتَعًا لَكُمْ وَلَا نَعْمًا لَكُمْ» أى انتفاعاً إلى حين .
قال أبو السعود : ونصبه إما على أنه مفعول له ، أى فعل ذلك تمتيماً لكم ولأنعامكم ، لأن
فائدة ما ذكر من البسط والتهميد وإخراج الماء والمرعى ، واصلة إليهم وإلى أنعامهم . فإن المراد
بالمرعى ما يعم ما يأكله الإنسان وغيره - كما تقدم - وإمامصدر مؤكد لفعله المضمّر . أى متعمكم بذلك
متاعاً . أو مصدر من غير لفظه ، فإن قوله تعالى (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءً هَا وَمَرَ عَمَهَا) فى معنى متعم بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ)

[٣٥] (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ)

[٣٦] (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ)

[٣٧] (فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ)

[٣٨] (وَوَآثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[٣٩] (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)

[٤٠] (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ)

[٤١] (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)

« فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ » أى الداهية العظمى التى تطمّ على كل هائلة من
الأمور ، فتغمر ما سواها بظلم هولها . وهى القيامة للحساب والجزاء « يَوْمَ يَتَذَكَّرُ
الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ » أى ما عمل من خير أو شر . وذلك بمرضه عليه « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن
يَرَىٰ » أى أظهرت نار الله لأبصار الناظرين « فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ » أى أفرط فى تعديه ومجاوزه
حد الشريعة والحق ، إلى ارتكاب العصيان والفساد والضلال « وَوآثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى
متاعها وشهواتها ، على كرامة الآخرة وما أعد فيها للأبرار « فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ » أى

مأواه ومرجعه « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » أى مقامه بين يديه للسؤال، أو جلاله وعظمته .
 أى اتقاه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه « وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ » أى فيما يكرهه الله
 ولا يرضاه منها ، نخالفها إلى ما أمره به « فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ » أى مصيره يوم القيامة .
 وجواب (إذا) محذوف لدلالة التقسيم عليه . تقديره: ظهرت الأعمال . أو اتقسم الناس قسمين .
 القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا)

[٤٣] (فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا)

[٤٤] (إِلَىٰ رَبِّكَ مُتَهَمَةٌ)

[٤٥] (إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَحْشَاهَا)

[٤٦] (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا)

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا » أى إقامتها . أى متى يقيمها الله ويكونها .
 قال الناصر : وفيه إشعار بثقل اليوم كقوله^(١) (وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا) ألا تراهم
 لا يستعملون الإرساء إلا فيما له ثقل ، كمرسى السفينة وإرساء الجبال « فِيمَ أَنْتَ مِنْ
 ذِكْرِنَهَا » أى فى أى شىء أنت من ذكر ساعتها لهم . أى ليس إليك ذكرها لأنها
 من الغيوب ، فلا معنى لسؤالهم إياك عنها . ولذا قال « إِلَىٰ رَبِّكَ مُتَهَمَةٌ » أى منتهى علمها
 « إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَحْشَاهَا » أى ما بعثت إلا لإلذار من يخاف حسابها ، وعقاب الله
 على إجرامها . ولم تكلف علم وقت قيامها « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً
 أَوْ ضُحَاهَا » أى كأن هؤلاء المكذبين بها ، وبما فيها من الجزاء والحساب ، يوم يشاهدون
 وقوعها ، من عظيم هولها ، لم يلبثوا فى الدنيا أو فى القبور إلا ساعة من نهار ، بمقدار عشية
 أو ضحاها . وإضافة الضحى إلى العشية ، لما بينهما من الملاسة ، لاجتماعهما فى يوم واحد .

(١) [٧٦ / الإنسان / ٢٧] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٠ - سُورَةُ عَبَسَ

وتسمى الصاخبة . مكية وآيها اثنتان وأربعون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (عَبَسَ وَتَوَلَّى)

[٢] (أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى)

« عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى » .

روى ابن جرير^(١) : وابن أبي حاتم : عن ابن عباس ، قال : بينا رسول الله ﷺ يناجى عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبدالمطلب ، وكان يتصدى لهم كثيراً ، ويحرص عليهم أن يؤمنوا ، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم ، يمشى وهو يناجيه . فجعل عبد الله يستقرى النبي ﷺ آية من القرآن وقال : يا رسول الله ! علمنى مما علمك الله . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه . وأقبل على الآخرين فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه ، وأخذ ينقلب إلى أهله ، أمسك الله بعض بصره وخفق برأسه ثم أنزل الله تعالى (عَبَسَ وَتَوَلَّى) الآيات . فلما نزل فيه ما نزل ، أكرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه ، وقال له رسول الله ﷺ : ما حاجتك ؟ هل تريد من شيء ؟ وإذا ذهب من عنده قال : هل لك حاجة فى شيء ؟ .

قال ابن كثير : وهكذا ذكر عروة بن الزبير ومجاهد وأبو مالك وقتادة . والضحاك . وابن زيد . وغير واحد من السلف والخلف ؛ أنها نزلت فى ابن أم مكتوم . والمشهور أن اسمه عبد الله . ويقال عمرو . والله أعلم . انتهى .

وقال الرازى : أجمع المفسرون على أن الذى عبس وتولى هو الرسول صلوات الله عليه . وأجمعوا أن الأعمى هو ابن أم مكتوم . قال الشهاب : وهو مكى قرشى من المهاجرين الأولين .

(١) انظر الصفحة رقم ٥١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

وكان النبي ﷺ يستخافه على المدينة في أكثر غزواته . وكان ابن خال خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها .

قيل : عمى رضى الله عنه بعد نور . وقيل : ولد أعمى . ولذا لقبته أمه أم مكتوم . والتعرض لعنوان عماء ، إما لتمهيد عذره في الإقدام على قطع كلامه ﷺ وتشاغله بالقوم : وإما لزيادة الإنكار . كأنه قيل : تولى لسكونه أعمى . وكان يجب أن يزيد له ماء ، تعطفاً وترؤفاً وتقريباً وترحيباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ وَزَرَ كَتَىٰ)

[٤] (أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِّكْرَىٰ)

[٥] (أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَىٰ)

[٦] (فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ)

[٧] (وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَّكَّىٰ)

[٨] (وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ)

[٩] (وَهُوَ يَخْشَىٰ)

[١٠] (فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ)

« وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ وَزَرَ كَتَىٰ » أى يتطهر - بما يتلقن منك - من الجهل أو الإثم . وفى الالتفات إلى الخطاب إنكار للمواجهة بالعتب أولاً ، إذ فى الغيبة إجلال له ﷺ ، لا يهام أن من صدر منه ذلك غيره ، لأنه لا يصدر عنه مثله . كما أن فى الخطاب إيناساً بعد الإيماش ، وإقبالاً بعد إعراض .

وقال أبو السعود : وكلمة (لعل) مع تحقق التزكى ، واردة على سنن الكبرياء أو على اعتبار معنى الترجى بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام . للتنبيه على أن الإعراض عنه ، عند كونه مرجو التزكى ، مما لا يجوز . فكيف إذا كان مقطوعاً بالتزكى ؟ كما في قولك (لملك ستندم على ما فعلت) وفيه إشارة إلى أن إعراضه كان لتزكية غيره . وأن من تصدى لتزكيتهم من الكفرة لا يرجى منهم التزكى والتذكر أصلاً « أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِّكْرَى » أى يعتبر ويتمتع فتنفعه موعظتك . وتقديم التزكية على التذكر ، من باب تقديم التحلية على التحلية .

« أَمَّا مَنْ أَسْتَمْنَى » أى بماله وقوته عن سماع القرآن والهداية والموعظة « فَأَنْتَ لَهُ وَتَصَدَّى » أى تتعرض بالإقبال عليه ، رجاء أن يسلم ويهتدى « وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزْكَى » أى وليس عليك بأس فى أن لا يتزكى بالإسلام . إن عليك إلا البلاغ . قال الرازى : أى لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم ، إلى أن تعرض عن أسلم ، للاشتغال بدعوتهم « وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى » أى يسرع فى طلب الخير « وَهُوَ يَخْشَى » أى يخاف الله ويتقيه « فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى » أى تعرض وتنشغل بغيره .

تنبيهات :

الأول : قال السيوطى فى (الإكليل) : فى هذه الآيات حث على الترحيب بالفقراء والإقبال عليهم فى مجالس العلم وقضاء حوائجهم ، وعدم إثارة الأغنياء عليهم . وقال الزمخشرى : لقد تأدب الناس بأدب الله فى هذا تأدباً حسناً . فقد روى عن سفیان الثورى رحمه الله أن الفقراء كانوا فى مجلسه أمراء .

الثانى : فى هذه الآيات ونحوها ، دليل على عدم ضنه ﷺ بالغييب . قال ابن زيد : كان يقال : لو أن رسول الله ﷺ كتم من الوحي شيئاً ، كتم هذا عن نفسه .

الثالث : قال الرازى : القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء عليهم السلام ، تمسكوا

بهذه الآية وقالوا : لما عاتبه الله في ذلك الفعل ، دل على أن ذلك الفعل كان معصية . وهذا بعيد . فإننا قد بينا أن ذلك كان هو الواجب المتمين ، إلا بحسب هذا الاعتبار الواحد . وهو أنه يوم تقديم الأغنياء على الفقراء . وذلك غير لائق بصلافة الرسول عليه السلام . وإذا كان كذلك ، كان ذلك جارياً مجرى ترك الاحتياط وترك الأفضل ، فلم يكن ذلك ذنباً البتة . وأجاب الإمام ابن حزم في (الفِصَل) بقوله : وأما قوله (عَبَسَ وَتَوَلَّى) الآيات فإنه كان عليه السلام قد جلس إليه عظيم من عظماء قريش ، ورجا إسلامه . وعلم عليه السلام أنه لو أسلم لأسلم بإسلامه ناس كثير ، وأظهر الدين . وعلم أن هذا الأعمى الذي يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته ، وهو حاضر معه . فاشتغل عنه عليه السلام بما خاف فوته من عظيم الخير ، عما لا يخاف فوته . وهذا غاية النظر في الدين والاجتهاد في نصره القرآن في ظاهر الأمور ونهاية التقرب إلى الله ، الذي لو فعله اليوم منا فاعل ، لأُجِرَ . فعاتبه الله عز وجل على ذلك ، إذ كان الأولى عند الله تعالى أن يقبل على ذلك الأعمى الفاضل البر التقوى ، وهذا نفس ما قلناه ! انتهى .

وقال القاشاني : كان عليه السلام في حجر تربية ربه ، لكونه حبيباً . فكما ظهرت نفسه بصفة حجبت عنه نور الحق ، عوتب وأدب . كما قال (١) : (أدبني ربي فأحسن تأديبي) إلى أن تخلق بأخلاقه تعالى . انتهى . وقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)

[١٢] (فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ)

[١٣] (فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ)

(١) في كشف الخفاء (١٦٤) : رواه العسكري عن علي رضي الله عنه .

[١٤] (مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ)

[١٥] (بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)

[١٦] (كِرَامٍ بَرَرَةٍ)

[١٧] (قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ وَ)

« كَلَّا » ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله . قال أنس رضى الله عنه : كان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه . رواه أبو يعلى . وقوله تعالى « إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ » أى إن المعاتبه المذكورة موعظة يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها .

قال الشهاب : وكون عتابه على ما ذكر عظة ، لأنه مع عظمة شأنه ومنزلته عند الله إذا عوتب على مثله . فما بالك بغيره ؟ وجوز عود الضمير للآيات وللسورة ، وللوصية بالمساواة بين الناس ، ولدعوة الإسلام . وقوله تعالى « فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ » أى حفظه . على أنه من (الذكر) خلاف النسيان : أو اتعظ به ، من (التذكير) .

قال الزمخشري : وذكر الضمير لأن التذكرة فى معنى الذكر والوعظ . وقيل : الضمير للقرآن ، والكلام استطراد « فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ » يعنى صحف آيات التنزيل وسوره «مَرْفُوعَةٍ» أى عالية المقدار «مُطَهَّرَةٍ» من التغير والنقص والضلالة «بِأَيْدِي سَفَرَةٍ» جمع سافر بمعنى سفير . أو هو الذى يسمى بين قومه بالصلح والسلام . يقال : سفر بين القوم ، إذا أصلح بينهم . ومنه قوله (١) .

وما أَدْعُ السَّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي وَمَا أَمْشِي بِيَشٍّ ، إِنْ مَشَيْتُ

(١) قال فى حاشية ابن جرير (٣٠/٥٤) : البيت من شواهد الفراء فى معانى القرآن (٣٥٨)

قال : وقوله بأيدى سفرة وهم الملائكة ، واحدهم سافر . يقال : سمرت بين القوم إذا أصلحت بينهم . فجعلت الملائكة ، إذ نزلت بوحي الله وتأديته ، كالسفير الذى يصلح بين القوم .

والسفرة ، إما الملائكة لأنهم يسفرون بالوحي بين الله تعالى ورسله ، كأنه محمول بأيديهم . وإما الأنبياء لأنهم وسائط في الوحي يبلغونه للناس « كِرَامِمْ » أى عنده تعالى ، لاصطفائهم للرسالة « بَرَرَةٍ » أى أخيار ، جمع (بارٍ) وهو صانع البر والخير .

« قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ » قال الرازى : اعلم أنه تعالى لما بدأ بذكر القصة المشتملة على ترفع صفايد قريش على فقراء المسلمين ، عجب عباده المؤمنين من ذلك . فكأنه قيل : وأى سبب فى هذا العجب والترفع ؟ مع أن أوله نطفة قدرة وآخرة جيفة مذرة . وفيما بين الوقتين حال عذرة . فلا جرم ، ذكر تعالى ما يصلح أن يكون علاجاً لعجبهم ، وما يصلح أن يكون علاجاً لكفرهم . فإن خلقة الإنسان تصلح لأن يستدل بها على وجود الصانع وعلى القول بالبعث والحشر والنشر . ومرجه إلى أن المراد بالإنسان من استغنى عن القرآن الكريم الذى ذكرت نعوته الجليلة الموجبة للإقبال عليه والإيمان به . وجوز أن يراد بالإنسان الجنس المنتظم للمستغنى ، ولأمثاله من أفراد ، لا باعتبار جميع أفراد .

لطائف :

الأولى : قال الزمخشري : (قَتَلَ الْإِنْسَانَ) دعاء عليه وهى من أشنع دعواتهم . لأن القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائنها .

الثانية : قال ابن جرير^(١) : فى قوله (مَا أَكْفَرَهُ) وجهان أحدهما التعجب من كفره مع إحسان الله إليه وأياديه عنده . والآخر ما الذى أكفره ؛ أى أى شىء أكفره . وعلى الثانية ، فالهمزة للتصيير كـ (أَعَدَّ الْبَعِيرُ) .

الثالثة : قال الزمخشري فى هذه الآية : ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ولا أخشن متناً ولا أدل على سخط ولا أبعد شوطاً فى المذمة ، مع تقارب طرفيه ولا أجمع للإمته ، على قصر متنه . وسره ما أشار له الرازى من أن قوله (قَتَلَ الْإِنْسَانَ) تنبيه على أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب . وقوله (مَا أَكْفَرَهُ) تنبيه على أنهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٤ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

الرابعة : أفاد في (الكشف) أن الدعاء ليس على حقيقته ، لامتناعه منه تعالى . لأن منشأ العجز . فالمراد به إظهار السخط باعتبار جزئه الأول، وشدة الذم باعتبار جزئه الثاني .
 أى لاستحالة التعجب بمعناه المعروف أيضاً . وقوله تعالى :
 القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

[١٩] (مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ وَفَقَدَرَهُ)

[٢٠] (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ)

[٢١] (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ)

« مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ » شروع في بيان إفراطه في الكفر، بتفصيل ما أفاض عليه من مبدأ فطرته إلى منتهى عمره ، من فنون النعم الموجبة لقضاء حقها بالشكر والطاعة، مع إخلاله بذلك . وفي الاستفهام عن مبدأ خلقه ، ثم بيانه بقوله تعالى « مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ » تحقير له .
 أى من أى شيء حقير مهين خلقه ؟ من نطفة مذرة خلقه « فَقَدَرَهُ » أى فهاياه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال . أو فقدره أطواراً إلى أن تم خلقه « ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ »
 أى سهله . وهو مخرجه من رحم أمه بعد اجتنانه وتعاصيه . أو سبيل الإسلام .

قال ابن زيد هداه للإسلام الذى يسره له وأعلمه به . أى بما غرز في فطرته من الخير ، وأودع في غريزته من وجدان معرفة الخالق . وقال مجاهد: يعنى سبيل الشقاء والسعادة وهو كقوله^(١) (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) واختاره أبو مسلم قال : المراد من هذه الآية هو المراد من قوله^(٢) (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) فهو يتناول التمييز بين كل خير وشر يتعلق بالدنيا، وبين كل خير وشر يتعلق بالدين . أى جعلناه متمكناً من سلوك سبيل الخير والشر . والتيسير يدخل

(١) [٧٦ / الإنسان / ٣] . (٢) [٩٠ / البلد / ١٠] .

فيه الإقدار والتعريف والعقل وبعثة الأنبياء وإزالة الكتب . نقله الرازي . « ثُمَّ أَمَاتَهُ وَفَأَقْبَرَهُ » أى جمعه ذا قبر يوارى فيه ، تسكرمة له ، ولم يجعله مطروحاً على وجه الأرض للطير والسباع ، كالحیوان .

قال الفراء : ولم يقل (فقبره) لأن القبر هو الدافن بيده ، والقبر هو الله تعالى . يقال (قبر الميت) إذا دفنه . و (أقبر الميت) إذا أمر غيره بأن يجعله فى القبر . وقال ابن جرير (١) : القبر هو الدافن الميت بيده كما قال الأعشى :

لو أسندت ميتاً إلى نحرها عاش ولم ينقل إلى قابر

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ)

[٢٣] (كَلَّالًا لَّمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ)

[٢٤] (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

[٢٥] (أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا)

[٢٦] (ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا)

[٢٧] (فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا)

[٢٨] (وَعِنَبًا وَقَضْبًا)

[٢٩] (وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا)

[٣٠] (وَحَدَادٍ قَلْبًا)

(٣) انظر الصفحة رقم ٥٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

[٣١] (وَفَكِهَةٌ وَأَبًا)

[٣٢] (مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنعَمِكُمْ)

« ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ » أى بعثه بعد مماته وأحياه. وإنما قال (إِذَا شَاءَ) لأن وقت البعث غير معلوم لأحد. فهو موكول إلى مشيئة الله تعالى. متى شاء أن يحيي الخلق أحياءم. قال الشهاب: وتخصيص النشور به دون الإماتة والإقبار، لأن وقتهما معين إجمالاً، على ما هو المعمود فى الأعمار الطبيعية.

« كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُهُ » قال ابن جرير^(١): أى ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر، من أنه قد أدى حق الله عليه، فى نفسه وماله، فإنه لما يؤد ما قرَضَ عليه من الفرائض، ربه.

وقال الفاشانى: لما بين أن القرآن تذكرة للمتذكرين، تعجب من كفران الإنسان واحتجابه حتى يحتاج إلى التذكير. وعدد النعم الظاهرة التى يمكن بها الاستدلال على المنعم بالحس، من مبادئ خلقته، وأحواله فى نفسه، وما هو خارج عنه مما لا يمكن حياثه إلا به. وقرر أنه مع اجتماع الدليلين، أى النظر فى هذه الأحوال الموجب لمعرفة الموجد المنعم والقيام بشكره، وسماع الوعظ والتذكير بنزول القرآن، لما يقض فى الزمان المتناول ما أمره الله به من شكر نعمته، باستعمالها فى إخراج كاله إلى الفعل، والتوصل بها إلى المنعم. بل احتجب بها وبنفسه عنه. انتهى.

ولما فصل تعالى النعم المتعلقة بحدوثه، تأثرها بتعداد النعم المتعلقة ببقائه. فقال سبحانه « فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ » أى فإن لم يشهد خلق ذاته، وعى عن الآيات فى نفسه، وأصر على جحوده وتوحيد ربه، فلينظر إلى طعامه وما كاه الذى هو أقرب الأشياء لديه. ماذا صنعنا فى إحدائه وتميئته لأن يكون غذاء صالحاً. وقوله تعالى « أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ » أى من

(١) انظر الصفحة رقم ٥٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية).

الزن « صَبًا » أى شديداً ظاهراً . وقد قرىء بكسر همزة (إنا) على الاستئناف المبين لكيفية حدوث الطعام ، وبالفتح على البدلية ، بدل اشتغال . بمعنى سببية الأول للثانى .
 أو تقوم الثانى بالأول . فهو من اشتغال الثانى عليه أو بدل كل ، ادعاء « ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا »
 أى صدعناها بالنبات . أو شققنا أجزاءها بعد الرى لىتخلل الهواء والضياء فى جوفها « فَأَنْبَتْنَا
 فِيهَا حَبًّا » يعنى حب الزرع . وهو كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما من الحبوب
 « وَعَبَبْنَا وَقَصَبًا » وهو كل ما أكل من النبات رطباً ، كالقثاء والخيار ونحوها . سمي قصباً لأنه
 يقضب ، أى يقطع مرة بعد أخرى « وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ » جمع حديقة وهى البساتين
 ذوات الأشجار المثمرة ، عليها حوائط تحيط بها « غُلْبًا » جمع غلباء أى ضخمة عظيمة .
 وعظمها إما لانساعها البالغ حد البصر ، أو لغلظ أشجارها وتكاثفها والتفافها « وَفَاكِهَةً »
 أى مما يؤكل من ثمار الأشجار « وَأَبًّا » وهو المرعى الذى تأكله البهائم من العشب والنبات
 « مَتَعًا لَكُمْ وَلِأَنعَمِكُمْ » أى تمتيعاً . مفعول له ل (أنبتنا) أو مصدر حذف فعله وجرّد
 من الزوائد . أى متعكم بذلك متاعاً ، وجعلكم تنتفعون به أنتم وأنعامكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (فَإِذَا جَاءتِ الصَّاعَةُ)

[٣٤] (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ)

[٣٥] (وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ)

[٣٥] (وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ)

[٣٧] (لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

[٣٧] (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ)

[٣٩] (ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ)

[٤٠] (وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ)

[٤١] (تَرَهَقَهَا قَتَرَةٌ)

[٤٢] (أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ)

« فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ » بمعنى الداهية الشديدة ، وهي صيحة القيامة وصوت زلزالها الهائل المصم للآذان . يقال صخه يصخه ، ضرب أذنه فأصمها . وصاح بهم صيحة تصخ الآذان ، وقد صخ صخيخاً ، وهو صوته إذا قرع . وصخ لحديثه إذا أصاخ له ، بمعنى استمع كما في (الأساس) ويجوز على الأخير أن تجعل بمعنى المستمعة ، مجازاً في الإسناد . وجواب (إذا) محذوف يدل عليه ما بعده . كيشغل كل بنفسه ، أو افترق الناس « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ * وَأَبِيهِ * وَصَحْبِهِتَيْهِ » أي زوجته « وَبَنِيهِ » أي لاشتغاله بنفسه ، وعلمه بأنهم لا ينفعون .

قال الشهاب : يعني أن الإقبال عليهم إما للنفع أو للانتفاع ، وكلاهما منتف لاشتغاله بنفسه عن نفس غيره ، وعلمه بعدم نفعه . وتأخير الأحب فالأحب للمبالغة . فهو للترقى . كذا قيل .

قال الشهاب : والظاهر أنه لم يقصد ذلك لاختلاف الناس والطباع فيه « لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ » أي يكفيه في الاهتمام به . كأن ذلك الهم الذي نزل به ، قد ملأ صدره فلم يبق فيه متسع لهم آخر ، فصار شبيهاً بالفتى « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ » أي مضيئة « ضاحكة مُّسْتَبْشِرَةٌ » أي مسرورة بنيل كرامة الله والنعيم المتزايد ، وهي وجوه المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وقدموا من الخير والعمل الصالح ماملأوا به صنفهم « وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ » أي غبار وكدورة « تَرَهَقَهَا قَتَرَةٌ » أي تغشاها ظلمة « أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ » أي الفسقة الذين لا يباليون ما أتوا به من معاصي الله ، وركبوا من محارمه ، فجوزوا بسوء أعمالهم وخبث نياتهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨١ - سُورَةُ التَّكْوِيرِ

وتسمى سورة (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) وهي مكية وآياتها تسع وعشرون . روى الإمام أحمد^(١) عن ابن عمر : قال قال رسول الله ﷺ : من سره أن ينظر إلى يوم القيامة ، كأنه رأى عين فليقرأ (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) وهكذا رواه الترمذي^(٢) .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) ، والحديث رقم ٤٨٠٦ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٨١ - سورة إذا الشمس كورت .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

[٢] (وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)

[٣] (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)

[٤] (وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ)

[٥] (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)

[٦] (وَإِذَا الْبِحَارُ سَاجَرَتْ)

[٧] (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ)

[٨] (وَإِذَا الْمَوْتَوَدَّةُ سُئِلَتْ)

[٩] (بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

« إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » أى أزيلت من مكانها ، وألقيت عن فلكها ، ومحي ضوءها
« وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » أى تفتت وانشطت « وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ » أى رُفعت عن
وجه الأرض ، ونسفت . من أثر الرجفة والزلال الذى قطع أوصالها « وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ »
أى تركت مهملة لا راعى لها ولا طالب . والعشار جمع عُشراء وهى الناقة التى أتى على حملها
عشرة أشهر . وخصها ، لأنها أنفس أمواتهم . أى فإذا هذه الحوامل التى يتنافس فيها أهلها
أهملت ، فتركت من شدة الهول النازل بهم ، فكيف بغيرها ؟ « وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ »
أى جمعت من كل جانب واختلطت ، لما دهم أو كارهها ومكاتبها من الزلال والتخريب ، فتخرج

هاجمة مذعورة من أثر زلزال الأرض وتقطع أوصالها «وَإِذَا أَلْبَحَارُ سُجِّرَتْ» أي: ملئت بتفجير بعضها إلى بعض، حتى تعود بحرا واحداً. من (سجج الثنور) إذاملأه بالخطب. كقوله (وَإِذَا أَلْبَحَارُ فُجِّرَتْ) وقيل: المعنى تأججت ناراً. قال القفال: يحتمل أن تكون جهنم في قعور البحار، فهي الآن غير مسجورة لقوام الدنيا. فإذا انتهت مدة الدنيا، أوصل الله تأثير تلك النيران إلى البحار، فصارت بالسكامة مسجورة بسبب ذلك. وأوضحه الإمام بقوله: وقد يكون تسجيرها إضرامها ناراً. فإن ما في بطن الأرض من النار يظهر إذ ذاك بتشققها وتمزق طبقاتها العليا، أما الماء فيذهب عند ذلك بخاراً ولا يبقى في البحار إلا الغار. أما كون باطن الأرض يحترق على نار فقد ورد به بعض الأخبار. ورد أن البحر غطاء جهنم، وإن لم يعرف في صحيحها. ولكن البحث العلمي أثبت ذلك. ويشهد عليه غليان البراكين وهي جبال النار. انتهى.

قال الرازي: واعلم أن هذه العلامات الستة يمكن وقوعها في أول زمان تخريب الدنيا. ويمكن وقوعها أيضاً بعد قيام القيامة. وليس في اللفظ ما يدل على أحد الاحتمالين. أما الستة الباقية فإنها مختصة بالقيامة. انتهى.

«وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ» أي: قرنت الأرواح بأجسادها. أوضحت إلى أشكالها في الخير والشر، وصنفت أصنافاً ليحشر كل إلى من يجانسه من السعداء والأشقياء.

«وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ» يعني البنات التي كانت طوائف العرب يقتلونهن. قال السيد المرتضى في (أماليه): الموءودة هي المقتولة صغيرة. وكانت العرب في الجاهلية تشد البنات، بأن يدفنوهن أحياء، وهو قوله تعالى (١) (أَيُّمَسِّكُهُ وَعَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ) وقوله تعالى (٢) (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ). ويقال إنهم كانوا يفعلون ذلك لأمرين: أحدهما أنهم كانوا يقولون إن الإناث بنات الله. فالحقوا البنات بالله فهو أحق بها منا. والأمر الآخر أنهم كانوا يقتلونهن خشية الإملاق. قال الله (٣)

تعالى (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ) الآية: قال المرتضى: وجدت أبا علي الجبائي

(١) [١٦/ النحل/ ٥٩]. (٢) [٦/ الأنعام/ ١٤٠]. (٣) [٦/ الأنعام/ ١٥١].

وغيره يقول : إنما قيل لها موءودة لأنها ثقلت بالتراب الذى طرح عليها حتى ماتت . وفي هذا بعض النظر . لأنهم يقولون من الموءودة - وَأَدَّ (يَثِدُّ) (وَأَدَّا) والفاعل (وَأَدَّ) والفاعلة (وَأَدَّة) ومن الثقل يقولون آذنى الشيء يؤودنى ، إذا أثقلنى ، أودا . انتهى .

وإنما قال (بعض النظر) لأن القلب معهود فى اللغة ، فلا يبعد أن يكون (وأد) مقلوباً من (آد) . وقال المرتضى : فإن سأل سائل ، كيف يصح أن يسئل من لا ذنب له ولا عقل ، فأى فائدة فى سؤالها عن ذلك ، وما وجه الحكمة فيه ؟ والجواب من وجهين : أحدهما أن يكون المراد أن قاتلها طوبى بالحجة فى قتلها ، وسئل عن قتلها بأى ذنب كان ، على سبيل التوبيخ والتعنيف وإقامة الحجة . فالقتلة ههنا هم المسئولون على الحقيقة ، لا المقتولة ، وإنما المقتولة مسئول عنها . ويجرى هذا مجرى قولهم (سألت حتى) أى طالبت به ومثله قوله تعالى (١) (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) أى مطالباً به مسئولاً عنه . والوجه الآخر أن يكون السؤال توجه إليها على الحقيقة ، على سبيل التوبيخ له ، والتقريع له ، والتنبية له ، على أنه لاحقاً له فى قتلها . ويجرى هذا مجرى قوله تعالى لعيسى عليه السلام (٢) (ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ الْهَيْبِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) على طريق التوبيخ لقومه ، وإقامة الحجة عليهم . فإن قيل على هذا الوجه : كيف يخاطب ويسئل من لا عقل له ولا فهم ؟ فالجواب أن فى الناس من زعم أن الغرض بهذا القول ، إذا كان تبكيت الفاعل وتهجينه وإدخال الغم عليه فى ذلك الوقت على سبيل العقاب ، لم يمنع أن يقع . وإن لم يكن من الموءودة فهم له . لأن الخطاب ، وإن علق عليها ، وتوجه إليها ، والغرض فى الحقيقة به غيرها . قالوا وهذا يجرى مجرى من ضرب ظالم طفلاً من ولده فأقبل على ولده يقول له : ضربت ما ذنبك وبأى شيء استحلت هذا منك ؟ فغرضه تبكيت الظالم لا خطاب الطفل . والأولى أن يقال فى هذا : إن الأفعال ، وإن كانوا من جهة العقول لا يجب فى وصولهم إلى الأغراض المستحقة ،

(١) [١٧ / الإسرائ / ٣٤] . (٢) [٥ / المائدة / ١١٦] .

أن يكونوا كالملى العقول ، كما يجب مثل ذلك في الوصول إلى الثواب . فإن كان الخير متظاهراً والأمة متفقة على أنهم في الآخرة ، وعند دخولهم الجنان يكونون على أكمل الهيئات وأفضل الأحوال ، وأن عقولهم تكون كاملة ، فعلى هذا يحسن توجه الخطاب إلى الموءودة ، لأنها تكون في تلك الحال ممن تفهم الخطاب وتمقله . وإن كان الغرض منه التبكيت للقاتل وإقامة الحججة عليه . انتهى .

قال الشهاب : والتبكيت قرره الطيبي ، بأن الجنيّ عليه إذا سئل بحضور الجاني ونسبت له الجناية دون الجاني ، بمث ذلك الجاني على التفكّر في حاله وحال الجنيّ عليه . فيرى براءة ساحته ، وأنه هو المستحق للعقاب والعذاب . وهذا استدراج على طريق التعريض ، وهو أبلغ من التصريح . والمراد بالاستدراج سلوك طريق توصل إلى المطلوب بسؤال غير المذنب ونسبة الذنب له . حتى يبين من صدر عنه ذلك . كما سئل عيسى دون الكفرة ، وهو فن من البديع ، بديع . انتهى .

وقال الزمخشريّ : وإنما قيل (قُتِلَتْ) بناء على أن الكلام إخبار عنها .

تنبيه :

قال السيوطيّ في (الإكليل) : في الآية تعظيم شأن الوأد ، وهو دفن الأولاد أحياء . وأخرج مسلم^(١) أنه ﷺ سئل عن العزل فقال : الوأد الخفيّ . وهي : وإذا الموءودة سئلت . انتهى . وقد روى عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب في هذه الآية قال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إني وأدت بنات لي في الجاهلية . قال : أعتق عن كل واحدة منهن رقبة . قال : يا رسول الله ! إني صاحب إبل . قال : فأنحر عن كل واحدة منهن بدنة .

(١) الحديث أخرجه في : ١٦ - كتاب النكاح ، حديث رقم ١٤١ (طبعتمنا) عن جدّامة بنت وهب الأسدية .

وروى الدارمي^(١) في أوائل مسنده أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! إننا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان . فكنا نقتل الأولاد . وكانت عندي ابنة لى . فلما أجبت ، وكانت مسرورة بدعائى إذا دعوتها . فدعوتها يوماً فاتبعنى فررت حتى أتيت بئراً من أهلى غير بعيد فأخذت بيدها فرددتها فى البئر . وكان آخر عهدى بها أن تقول يا ابتاه يا ابتاه . فسكى رسول الله ﷺ حتى وكف دمع عينيه . فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ : أحزنت رسول الله ﷺ . فقال له رسول الله ﷺ : كف . فإنه يسأل عما أمه . ثم قال له : أعد على حديثك . فأعاده . فسكى رسول الله ﷺ حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته . ثم قال له : إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا ، فاستأنف عملك .

وكان للعرب تفنن فى الواد . فمنهم من إذا صارت بنته سداسية يقول لأمها : طمبها وزينها حتى أذهب بها إلى أمحائها . وقد حفر لها بئراً فى الصحراء . فيبلغها البئر فيقول لها : انظرى فيها . ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالأرض . ومنهم من كان إذا قربت امرأته من الوضع ، حفر حفرة لتمخض على رأس الحفرة . فإذا ولدت بنتاً رمت بها فى الحفرة . وإن ولدت ابناً حبسته . وقد اشتهر صعصعة بن ناجية ابن عقال ، جد الفرزدق بن غالب ، بأنه كان ممن فدى الموءودات فى الجاهلية ، ونهى عن قتلهن . قيل إنه أحميا ألف موءودة ، وقيل دون ذلك . وقد افتخر الفرزدق بهذا فى قوله^(٢) :

ومنا الذى منع الوائِدَاتِ وأحميا الوئيدَ فلم يؤادِ

(١) أخرجه فى مقدمة مسنده فى : ١ - باب ما كان عليه الناس قبل مبعث النبي ﷺ من الجهل والضلالة .

(٢) من قصيدته التى مطلعها :

عرفت المنازلَ من مهْدِدِ كوحى الزبور لدى الفرقدِ

الوحى : الكتاب . والفرقد : ضرب من الشجر دائم الاخضرار .

(الديوان ١/٢٠٢) .

وفي قوله أيضاً^(١) :

أنا ابنُ عِقالٍ وابنِ لَيْلى وغالبٍ
 وكان لنا شيخانِ ذو القبرِ منهما^(٢)
 على حينِ لا تُحْيِي البقاةُ وإذ همُ
 أنا ابنِ الذي ردَّ النيةَ فضلُهُ
 أَيْ أَحَدُ العَيْشِيْنَ صعصعةُ الذي
 أجازَ بناتِ الوائدينِ ومن يُجْزِ
 وفارقَ لَيْلى^(٤) من نساءِ أنتِ أباي
 فقالتِ أجزِ لي ما ولدتُ فإنني
 رأيتُ الأرضَ منها راحةَ فرى بها
 فقال لها ناي فأنتِ بدمتي
 وفكَّكُ أغلالِ الأسيرِ المكفَّر^(٢)
 وشمِخُ أجازِ الناسَ من كلِّ مَقْبَرِ
 عُكُوفِ على الأصنامِ حولَ المدوِّرِ
 وما حسبُ دافعتُ عنه بِمُؤوِرِ
 متى تُخْلِفِ الجوزاءِ والنجمُ يُمَطِّرِ
 على القبرِ ، يعلمُ أنه غيرُ مُخْفِرِ
 تُعالجُ ربحاً ليلها غيرُ مُفْمِرِ
 أتيتك من هزلي الحولةِ مُقْتِرِ
 إلى خُدِّ منها وفي شرِّ مَحْفِرِ
 لبنتك جازٌ من أبيها القنورِ^(٥)

وروى أبو عبيدة : أن صعصعة - هذا - وفد على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم .
 قال : وكان صعصعة منع الوأد في الجاهلية ، فلم يدع تيمناً تئذ وهو يقدر على ذلك . فجاء الإسلام
 وقد فدى في بعض الروايات أربعائة موءودة ، وفي أخرى ثلاثائة ، فقال للنبي ﷺ : بأبي

(١) من قصيدته التي مطلعها :

بني نهشل أبقوا عليكم ولم تروا
 سوابقَ حامٍ للذمارِ مشهَرٍ
 (الديوان ٢/٤٧٤) .

(٢) المكفر : هو الذي كفر وكبل بالحديد .

(٣) ذو القبر : غالب كان يستجار بقبره . والذي أجاز الناس من القبر وأحيا الوئيدة صعصعة .

(٤) فارق - يعني امرأة ماخضاً . شبهها بالفارق من الإبل وهي الناقة التي يضربها المخاض .

فتفارق الإبل وتمضى على وجهها حتى تضع .

(٥) القنور : السبيء الخلق .

أنت وأهى ! أوصنى . فقال : أوصيك بأملك وأبيك وأختك وأخيك وأدانيك أدانيك . فقال : زدنى . فقال عليه الصلاة والسلام : احفظ ما بين لحيك ورجليك . ثم قال عليه الصلاة والسلام : ماشىء بلغنى عنك فعلته ؟ فقال : يارسول الله ! رأيت الناس يموجون على غير وجه ولم أدر أين الصواب . غير أنى علمت أنهم ليسوا عليه . فرأيتهم يثدون بناتهم ، فمرفت أن ربهم عز وجل لم يأمرهم بذلك . فلم أتركهم . ففديت ما قدرت عليه . ويقال إنه اجتمع جرير والفرزدق يوماً عند سليمان بن عبد الملك فافتخرا . فقال الفرزدق : أنا ابن محي الموتى . فقال له سليمان : أنت ابن محي الموتى ؟ فقال : إن جدى أحياء الموءودة ، وقد قال الله تعالى (١)

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) وقد أحياء جدى اثنتين وتسعين موءودة ، فتبسم سليمان . وقال : إنك مع شعرك لفقير . نقله المرتضى فى (أماليه) . وبالجملة ، فكان الواد عادة من أشنع العوائد فى الجاهلية ، مما يدل على نهاية القسوة وتام الجفاء والغلظة . قال الإمام : انظر إلى هذه القسوة وغلظ القلب وقتل البنات البريئات بغير ذنب سوى خوف الفقر والعار ، كيف استبدلت بالرحمة والرأفة بعد أن خالط الإسلام قلوب العرب ؟ فما أعظم نعمة الإسلام على الإنسانية بأسرها بمحوه هذه العادة القبيحة . انتهى . ومن أثر نعمته أن صار أدياء الصدر الأول يصوغون فى مدحهن ما هو أبهى من عقود الجمان ؛ فمن ذلك قول معن بن أوس (٢) :

رأيت رجالاً يكرهون بناتِهِمْ وفيهن ، لأنكذب ، نساء صواحبُ
وفيهن والأيام يعثرن بالفتى خوادِمُ لا يَمْلَنَهُ ونواحُ
وقال العلوى الجمانى ، فى صديق له ولدت له بنت فسخطها ، شعراً .
قالوا له ماذا رزقتنا فأصاخ ثمَّت قال : بنتنا

(١) [٥ / المائة / ٣٢] .

(٢) انظر أمالى القالى ، الصفحة رقم ١٩٠ من الجزء الثانى (طبعة الدار) .

وأجلّ من ولد النساء أبو البنات . فلم جزعنا
 إن الذين تودّ من بين الخلائق ما استطعنا
 نالوا بفضل البنت ما كَبَتُوا به الأعداء كبتا

وحكى أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ابنته . فقال : من هذه يا معاوية؟ فقال :
 هذه تفاحة القلب وريحانة العين وشمامة الأنف . فقال . أمّطها عنك . قال : ولمّ؟ قال :
 لأنهن يلدن الأعداء ، ويقرّين البعداء ، ويورثن الشجعاء ، ويثيرن البغضاء . قال : لا تقل
 ذلك يا عمرو ! فوالله ما مرض المرصى ، ولا ندب الموتى ، ولا أغان على الزمان ، ولا أذهب
 جيش الأحزان مثلهن ، وإنك لو أجدتُ خالاً قد نفعه بنو أخته ، وأبا قد رفعه نسل بنيّه . فقال :
 يا معاوية ! دخلت عليك وما على الأرض شيء أبغض إليّ منهن . وإنى لأخرج من عندك وما عليها
 شيء أحب إليّ منهن . وفي رقعة للصاحب بالتهنئة بالبنت : أهلاً ومهلاً بمقيلة النساء وأم الأبناء
 وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار ، والمبشرة بإخوة يتناسقون ، ونجباء يتلاحقون^(١)

فلو كان النساء كمن وجدنا لفصّلت النساء على الرجال
 وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ وما التذكير فخرٌ للهِلال
 والله تعالى يعرفك البركة في مطلعها ، والسعادة بموقعها ، فادّرع اغتباطاً ، واستأنف
 نشاطاً . فالدنيا مؤنثة ، والرجال يخدمونها ، والذكور يعبدونها . والأرض مؤنثة ومنها خلقت
 البرية . وفيها كثرت الذرية . والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحليت بالنجم الثاقب .
 والنفوس مؤنثة وهي قوام الأبدان وملاك الحيوان . والحياة مؤنثة ، ولولاها لم تتصرف
 الأجسام ولا عرف الأنام . والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون وفيها ينعم المرسلون . فهنيئاً لك
 هنيئاً بما أوتيت ، وأوزعك الله شكر ما أعطيت .

(١) قائله المتنبى ، من قصيدته التي مطلعها :

نعدّ الشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال

انظر الصفحة رقم ٢٥٣ من الديوان (طبعة لجنة التأليف) .

ونسخت رقة لأبي الفرج البغاء : اتصل بي خبر المولودة المسعودة كرم الله عرقها ، وأنتها نباتاً حسناً . وما كان من تغيرك عند اتصال الخبر وإنكارك ما اختاره الله لك في سابق القدر . وقد علمت أنهم أقرب من القلوب ، وأن الله بدأ بهم في الترتيب فقال عز من قائل^(١) : (يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ) وما سماه الله تعالى هبة ، فهو بالشكر أولى ، وبحسن التقبل أحرى . فهناك الله بورود الكريمة عليك . وثمرتها إعداد النسل الطيب لديك .

والنوادير في هذا لا تحصى . وكلها من بركة الإسلام وفضله ، وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ)

[١١] (وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ)

[١٢] (وَإِذَا الْجَبَابِطُ سُعِرَتْ)

[١٣] (وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ)

[١٤] (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ)

« وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ » قال ابن جرير^(٢) : أى صحف أعمال العباد نشرت لهم ، بعد أن كانت مطوية على ما فيها مكتوب من الحسنات والسيئات « وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ » أى قلعت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة ، كقوله تعالى^(٣) (يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ) « وَإِذَا الْجَبَابِطُ سُعِرَتْ » أى أوقد عليها فأحيت .

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ٤٨] .

قال قتادة : سمرها غضب الله وخطايا بني آدم . « وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْلِفَتْ » أى قربت للمتقين « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ » أى علمت كل نفس عند ذلك ، ما قدمت من خير فتصير به إلى الجنة ، أو شر فتصير به إلى النار . أى تبين لها عند ذلك ما كانت جاهلة به ، وما الذى كان فيه صلاحها من غيره . و (عَلِمَتْ) جواب لجميع ما سبق من الشروط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ)

[١٦] (الْجَوَارِ الْكُنَّسِ)

[١٧] (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ)

[١٨] (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)

[١٩] (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)

[٢٠] (ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ)

[٢١] (مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)

« فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ » أى الرواجع من النجوم . من (خنس) إذا رجع وتأخر . قال الزمخشري : بينما ترى النجم فى آخر البرج ، إذ كرّر راجعاً إلى أوله « الْجَوَارِ » جمع جارية ، من الجرى « الْكُنَّسِ » أى الغيب التى تدخل فى بروجها ، فى رأى العين . من (كنس الوحش) إذا دخل كناسه وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر . فهو فى الأصل مجاز بطريق التشبيه ، ثم صار بالغلبة فى الاستعمال ، حقيقة « وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ » أى أدبر ولم يبق إلا اليسير ، وذلك وقت السحر « وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ » أى أقبل وتبين . أو هب نسيمه اللطيف أو أنجابت عنه غمة الليل وكرهته . تشبيهاً بمن نفس عنه كرهه . قال الإمام : أقسم الله تعالى

بهذه الدراري لِينُوهُ بِشَأْنِهَا مِنْ جِهَةِ مَا فِي حَرَكَاتِهَا مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى قُدْرَةِ مَصْرِفِهَا وَمَقْدَرِهَا ، وإرشاد تلك الحركات إلى ما في كونها من بديع الصنع وإحكام النظام ، مع نعمتها ، في القسم ، بما يبعدها عن مراتب الألوهية ، من الخنوس والكنوس ، تقريباً لمن خصها بالعبادة وأخذها من دونه أرباباً . وفي الليل إذا أدبر زوال تلك النعمة التي تنعمر الأحياء بانسدال الظلمة بعدما استعادت الأبدان نشاطها وانتعشت من فتورها . وفي الصبح إذا تنفس بشري الأنفس بالحياة الجديدة في النهار الجديد ، تنطلق فيه الإرادات إلى تحصيل الرغبات وسد الحاجات والاستدراك والاستعداد لما هو آت . انتهى .

وجواب القسم قوله تعالى « إِنَّهُ وَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » يعني روح القدس الذي ينفث في روعه ﷺ وهو جبريل عليه السلام . والضمير إما للبعث والجزاء ، المفهوم من قوله تعالى (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ) أو للمذكور وهو هذا أو للقرآن « ذِي قُوَّةٍ » أي على تحمل أعباء الرسالة ، وعلى كل ما يؤمر به ، كما تقدم في قوله (١) تعالى (شَدِيدُ الْقُوَى) « عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ » أي صاحب مكانة وشرف ومنزلة لديه تعالى « مُطَاعٌ ثَمَّ » أي في الملأ الأعلى « أَمِينٍ » أي على وحيه تعالى ورسالاته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ)

[٢٣] (وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ)

[٢٤] (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ)

[٢٥] (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)

« وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ » أي ليس ممن يتسكلم عن جِنَّةٍ ويهذي هذيان المجانين .

(١) [٥٣ / النجم / ٥] .

(١) « يَا بَلَّغَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ) وهذا نبي لما كان يهتبه به أعداؤه، صلى الله عليه وسلم ، حسداً ولوماً .

قال الشهاب : وفي قوله (صَاحِبِكُمْ) تكذيب لهم بألطف وجه . إذ هو إيماء إلى أنه نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن، فأنتم أعرف به وبأنه أتم الخلق عقلاً وأرجحهم نبلاً وأكملهم وأصفاهم ذهنًا. فلا يسند له الجنون إلا من هو مركب من الحمق والجنون . والله در البحري (٢) في قوله :

إِذَا مَحَاسِنِي اللَّاتِي أَدِلُّ بِهَا كَانَتْ ذُنُوبِي، فَقُلِّ لِي كَيْفَ أَعْتَدِرُ
« وَقَدَّرَ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ » أى ولقد رأى محمد ﷺ جبريل بالأفق الأعلى، المظهر لما يرى فيه .

قال ابن كثير : والظاهر ، والله أعلم ، أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهي الأولى . وأما الثانية وهي المذكورة في قوله تعالى (٣) (وَقَدَّرَ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَ حَاجَةِ الْمَأْوَى) فتلك إنما ذكرت في سورة النجم ، وقد نزلت بعد سورة الإسراء .

والقصد من بيان رؤيته لجبريل عليهما السلام، متمثلاً له، هو التحقيق الموحى به، وأن أمره مبنى على مشاهدة وعيان، لأعلى ظن وحسبان . وماسبيله كذلك فلا مدخل للريب فيه « وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ » أى يبخل .

قال مجاهد : ما يضمن عليكم بما يعلم . أى لا يبخل بالتعليم والتبليغ . وقال الفراء :

(١) [٣٧ / الصافات / ٣٧] .

(٢) من قصيدته التي مطلعها :

فِي الشَّيْبِ زَجْرُهُ لَوْ كَانَ يَنْزَجُرُ وَبَالِغٌ مِنْهُ لَوْلَا أَنَّهُ حَجَرٌ

انظر الصفحة رقم ٦٧٣ من الديوان (طبعة بيروت) .

(٣) [٥٣ / النجم / ١٣ - ١٥] .

يأتيه غيب السماء، وهو شئ نقيس، فلا يبخل به عليكم. وقال أبو علي الفارسي: المعنى أنه يخبر بالغيب فيبينه ولا يكتمه، كما يكتّم الكاهن ذلك ويمتنع من إعلامه حتى يأخذ عليه حلواناً. وقرئ (بظنين) بالطاء: أي ما هو بتمهم على ما يخبر به من الغيب.

قال القاشاني: لامتناع استيلاء شيطان الوهم وজনّ التخيل عليه، فيخلط كلامه ويمتزج المعنى القدسي بالوهمي والخيالي، لأن عقله صفى عن شوب الوهم. والمعنى أنه صادق فيما يخبر به من الوحي واليوم الآخر والجزاء، ليس من شأنه أن يتم فيه. كما قال هرقل^(١) لأبي سفيان: وسألتك هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا. فمرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.

تنبيه:

قال ابن جرير^(٢): وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب، ما عليه خطوط مصاحف المسلمين متفقة وإن اختلفت قراءتهم به، وذلك (بِضْنَيْنِ) بالضاد. لأن ذلك كله كذلك في خطوطها. فأولى التأويلين بالصواب في ذلك، تأويل من تأوله (وما محمد، على ما علمه الله من وحيه ونزله، ببخيل بتعليمكموه أيها الناس. بل هو حريص على أن تؤمنوا به وتعلموه) انتهى. واختار أبو عبيدة القراءة بالطاء لوجهين:

أحدهما أن الكفار لم يبخلوه، وإنما اتهموه، فنفي التهمة أولى من نفي البخل. وثانيهما قوله (عَلَى الْغَيْبِ) ولو كان المراد البخل لقال (بالغيب) لأنه يقال فلان ضنين بكذا وقلما يقال على كذا.

وقال الشهاب: قال في (النشر): هو بالضاد في جميع المصاحف، ولا ينافي هذا قول أبي عبيدة. إن الضاد والطاء في الخط القديم لا يختلفان إلا بزيادة رأس إحداهما على الأخرى، (١) من حديث طويل أخرجه البخاري عن أبي سفيان بن حرب، في: ١ - كتاب بدء الوحي، ٦ - حدثنا أبو اليان حديث رقم ٧.

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية).

زيادة يسيرة ، قد تشبهه . وهو كما قال . ويعرفه من قرأ الخط المسند . وليس فيه اتهام لنقله المصاحف كما توهم ، لأن ما نقلوه موافق للقراءة المتواترة . ولا بد مما ذكره أبو عبيدة ، لأنهم اشترطوا في القراءات موافقة الرسم العثماني ، ولولاه كانت قراءة الطاء مخالفة له . انتهى . قال ابن كثير : وكنتا القراءتين متواترة ومعناها صحيح كما تقدم « وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ » أي من إلقاء الشيطان المطرود عن بلوغ هذا المقام . وهو نفي لقولهم إنه كهانة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)

[٢٧] (إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

[٢٨] (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)

[٢٩] (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

« فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ » أي أي مسلك تسلكون ، وقد قامت عليكم الحجة ؟ لا جرم أنكم تنفحون الضلال بعد هذه المزاعم في الوحي ومبلغه . فن سلك طرقها فقد بعد عن الصواب ، بما لا يضبط ولم يتقرب إليه بوجه . كمن سلك طريقاً يبعده عن سمت مقصده ، فيقال : أين تذهب .

قال الزمخشري : استضلال لهم ، كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً في بفتيات الطريق : أين تذهب ؟ مثلت حالهم بحاله ، في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل « إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » أي تذكرة وعظة لهم . قال الإمام : موعظة يتذكرون بها ما غرز الله في طباعهم من الميل إلى الخير . وإنما أنساهم ذكره ما طرأ على طباعهم من ملكات السوء التي تحدثها أمراض الاجتماع . وقوله تعالى « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ » بدل من (العالمين) . أي إنه ذكرى لمن أراد الاستقامة على الطريق الحق ، بصرف إرادته وميله إليه والثبات عليه . أما من أعرض ونأى ،

فن أبن تنفعه الذ كرى ، وقد زاده الران عمى ؟ وقوله تعالى « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » أى وما تشاءون شيئاً من فعالكم ، إلا أن يشاء الله تمكينكم
من مشيئتكم ، وإقداركم عليها ، والتخلية بينكم وبينها . وفائدة هذا الإخبار ، هو الإعلام
بالافتقار إلى الله تعالى ، وأنه لا قدرة للعبد على ما لم يقدره الله عز وجل . فهو خاضع لسطان
مشيئته ، مقهور تحت تديره وإرادته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٢ - سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

وهي مكية . وآيها تسعة عشر .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ)

[٢] (وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)

[٣] (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)

[٤] (وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)

[٥] (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

« إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ » أى انشقت كما في آية (١) (وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ)

« وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ » أى تساقطت . والانتثار استمارة لإزالة الكواكب ،

حيث شبت بجواهر قُطِعَ سلكها . وهى مصرحة أو مكنية « وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ »

أى فتح بمضها إلى بعض ، لزوال الحاجز بزلزلة الأرض وارتجافها « وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ »

أى بحت وأخرج موتها .

قال الشهاب : يعنى أزيل التراب التى ملئت به ، وكان حتى على موتها فانفتحت وخرج

من دفن فيها . وهذا معنى البثرة . وحيقتها تبديد التراب أو نحوه . وهو إنما يكون لإخراج

شئ تحتة فقد يذكر ويراد معناه ولازمه معاً ، كما هنا . وقد يتجاوز به عن البعث والإخراج

كما في سورة العاديات . والفارق بينهما أنه أسند هنا للقبور فكان على حقيقته . وثم ، لما فيها ،

فكانت مجازاً عما ذكر . ثم قال : وذهب بعض الأئمة كالزخشرى والسهيلى إلى أنه مركب

من كلمتين اختصاراً . ومثله كثير فى لغة العرب ويسمى نحتاً . وأصله (بعث) و(أثير) أى حرك

وأخرج . وله نظائر كبسمل ، وحوقل ، ودمعز . أى قال بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٥] .

وأدام الله عزه. فعلى هذا يكون معناه النبش والإخراج معاً. ولا يرد عليه أن الراء ليست من أحرف الزيادة، كما توهمه أبو حيان، فإنه فرق بين التركيب والنحت من كلمتين، والزيادة على بعض الحروف الأصول من كلمة واحدة، كما فصله في (الزهر) نقلاً عن أئمة اللغة.

« عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ » أى لذلك اليوم من عمل صالح أو سيئ « وَأَخَّرَتْ » أى تركت من خير أو شر. أو المعنى: ما قدمت من عمل طيب لم تقصر فيه، وما أخرت أى قصرت فيه. والمراد بالعلم بالتقديم والتأخير، وجدان الجزاء عليهما، وتحقيق مصداق الوعد عليهما.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

[٧] (الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ)

[٨] (فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ)

« يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » أى: أى شيء خدعك وجرأك على عصيانه والانحراف عن فطرته. وذكرك (الكريم) للمبالغة فى المنع عن الاغترار. لأنه بمعنى العظيم الجليل الكامل فى نعوته. ومن كان كذلك فنجدير بأن يرهب عقابه ويحشى انتقامه وعذابه. لاسيما وله من النعم العظيمة والقدرة الكاملة ما يزيد فى الرهبة، كما قال « الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ » أى جعلك سويًا متساوي الأعضاء والقوى. وأصل التسوية جعل الأشياء على سواء. فتكون على وفق الحكمة ومقتضاها، بإعطائها ما تتم به « فَعَدَّلَكَ » أى جعلك معتدلاً متناسب الخلق، معتدل القامة. لا كالبهايم. وقرئ بالتخفيف وهو بمعنى الشدّد، أو بمعنى صرفك عن خلقة غيرك إلى خلقة حسنة، مزّت بها على سائر الحيوان « فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ » أى: فى أى صورة شاءها ركبك عليها. يعنى أنه ركبك فى صورة هى أبداع الصور وأعجبها. فد (أى) استفهامية. والمجرور متعلق بـ (رَكَّبَكَ) و (ما) زائدة،

وجملة (شَاءَ) صفة (صورة) . والقصد أن من خلق هذا الخلق البديع وسوّاه وعدله بقدرته وتقديره، حتى أحكم صورته في ذلك التركيب، لَجَدِيرٌ بِأَنْ يُتَقَى بِأَسِهِ وَيُحْذَرُ بِطَشِهِ وَيُرْهَبُ أَشَدَّ التَّرْهِيبِ .

تنبيه :

قال الإمام ابن القيم في (الجواب الكافي) في بحث كون القرآن من أوله إلى آخره صريحا في ترتيب الجزاء بالخير والشر، والأحكام الكونية، على الأسباب، ما تمتته: فليحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب - وهذا من أهم الأمور - فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرّة له في دنياه وآخرته ، ولا بدّ . ولكن تغالطه نفسه .

ثم ذكر من أنواع المغترّين من يفتّر بفهمٍ فاسدٍ ، فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة فأتكلوا عليه . قال : كاعتزاز بعض الجهال بقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) فيقول : كرمه . وقد يقول بعضهم إنه لقن المغتر حجته . وهذا جهل قبيح . وإعما غره بربه الغرور ، وهو الشيطان، ونفسه الأمارة بالسوء ، وجهله وهواه . وأتى سبحانه بلفظ (الْكَرِيمِ) ، وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاعتزاز به ولا إهمال حقه . فوضع هذا المغتر (الغرور) في غير موضعه، واعتزّ بمن لا ينبغي الاعتزاز به . انتهى .

وفي مثل هذا الغرور يجب - كما قال الغزالي - على العبد أن يستعمل الخوف . فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه، ويقول: إنه ، مع أنه غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب . وإنه ، مع أنه كريم ، خلد الكفار في النار أبد الآباد . مع أنه لم يضره كفرهم . بل سلط المذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا . وهو قادر على إزالتها . فمن هذه سنته في عباده ، وقد خوفني عقابه، فكيف لأخافه؟ وكيف أعتزّ به؟ فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل . فبالبيعث على العمل فهو تمن وغرور .

ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم، وسبب إقبالهم على الدنيا، وسبب إعراضهم عن الله تعالى، وإهالهم السعى للآخرة، فذلك غرور. وقد روى أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة. وقد كان ذلك . فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات ، ويؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم، وهم طول الليل والنهار في طاعة الله، يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات، والشهوات، ويكون على أنفسهم في الخلوات. وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين . مع إكبابهم على المعاصي وانهما كهم في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى . زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله، راجون لعفوه ومغفرته . كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون . فإن كان هذا الأمر يدرك بالني ، وينال بالهوي ، فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم ؟

ثم قال : والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف . لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه ، إن كان مؤمناً بما فيه . وترى الناس يهدونه هذاً . يخرجون الحروف من حارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها، وكأنهم يقرأون شعراً من أشعار العرب . لا يهتمهم الالتفات إلى معانيه ، والعمل بما فيه . وهل في العالم غرور يزيد على هذا ؟ انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (كَلَّا بَلْ تَكْذِبُونَ بِالْدِّينِ)

[١٠] (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ)

[١١] (كِرَامًا كَتِيبِينَ)

[١٢] (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)

« كَلَّا بَلْ تَكْذِبُونَ بِالْدِّينِ » قال الإمام : أى لا شيء يفرك ويخدعك . بل إن

سعة عطاء ربك وحكمته في كرمه، تدلك وتوحى إلى نفسك أنك مبعوث في يوم آخر، لثواب أو عقاب . وإنما الذى يقع منك، أيها الإنسان، هو العناد والتكذيب بالدين. أى الجزاء، أى الانصراف عمدا وعنادا عما يدعو إليه الشعور الأول، وعن الدليل الذى تقيمه الرسل، والحجة التى يأتى بها الأنبياء . مع أن الله تعالى لم يترك عمالمن أعمالك إلا حفظه وأحصاه عليك حتى يوفيك جزاءه ، كما قال « وَإِنَّ عَلَيْنَا لَلْأَحْفَظِينَ » أى رقباء يحفظون أعمالكم ويحصونها عليكم « كِرَامًا كَتِيبِينَ » أى يكتبون ما تقولون .

« يَمْلِكُونَ مَا تَلْمُحُونَ » أى من خير أو شر . أى يحصونه عليكم ، فلا يغفلون ولا ينسون قال الرازى : إن الله تعالى أجرى أموره مع عباده على ما يتعاملون به فيما بينهم . لأن ذلك أبلغ فى تقرير المعنى عندهم . ولما كان الأبلغ عندهم فى المحاسبة إخراج كتاب بشهود ، خوطبوا بمثل هذا فيما يحاسبون به يوم القيامة . فيخرج لهم كتب منشورة ، ويحضر هناك ملائكة يشهدون عليهم ، كما يشهد عدول السلطان على من يمصيه ويخالف أمره . فيقولون له : أعطاك الملك كذا وكذا ، وفعل بك كذا وكذا ، ثم قد خالفته وفعلت كذا وكذا . فكذا ها هنا . والله أعلم بحقيقة ذلك . انتهى .

ولا يخفى أن الحفظة الكرام وعلمهم ، من الغيب الذى لا يمكن اكتناهاه . فيجب الإيمان به ، كما ورد . مع تفويض كنهه إلى بارئه تعالى . ومن الفضول فى العلم التوسع فيما لا يدرك بالنظر وتسويد وجوه الصحف بها . وبالله سبحانه التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

[١٤] (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

[١٥] (يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ)

[١٦] (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ)

[١٧] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ)

[١٨] (ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ)

[١٩] (يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ، وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » قال ابن جرير^(١) : أى إن الذين برّوا بأداء فرائض الله ،

واجتناب معاصيه ، لفي نعيم الجنان ينعمون فيها .

والأبرار جمع (برّ) بفتح الباء وهو المتصف بالبرّ (بكسرها) أى الطاعة . قال

الأصفهاني : وقد اشتمل عليه قوله تعالى^(٢) (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ

الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ

وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ

وَالسَّابِقِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْفُونَ بِمَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ،

وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَئِكَ

هُمُ الْمُتَّقُونَ) . وقوله تعالى : « وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » أى الذين تجرّوا عن أمر الله .

أى انشقوا عنه وخالفوه . وهم من لم توجد فيهم نعوت الأبرار المذكورة فى الآية قبل

« يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ » أى يوم يدان العباد بالأعمال ، فيجازون بها « وَمَا هُمْ عَنْهَا

بِغَائِبِينَ » أى بخارجين ، لأنهم مخلدون فى صلتها . وقوله تعالى « وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ

الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ » تفخيم لأمر ذلك اليوم وتعظيم لشأنه .

أى أى شىء أعلمك به ؟ أى أنت لا تدريه مع أنه من أوجب ماتهم درايته والبحث عنه .

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

واخطاب للإنسان المتقدم أول السورة . ثم فسّر تعالى بعض شأنه بقوله « يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ شَيْئًا » أى من دفع ضرّ أو كشف همّ « وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » أى أمر الملك الظاهر ، ونفوذ القضاء القاهر ، يومئذ لله وحده . لاضمحلال الممالك وذهاب الرياسات .

قال الرازى : وهو وعيد عظيم ، من حيث إنه عرفهم أنه لا يفتى عنهم إلا البر والطاعة يومئذ ، دون سائر ما كان قد يفتى عنهم فى الدنيا ، من مال وولد وأعوان وشفعاء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٣ - سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

قال المہامی: سمیت به دلالة علی أن من أخلّ بأدنی حقوق الخلق ، استحق أعظم ویل من الحق . فكیف من أخل بأعظم حقوق الحق ، من الإیمان به وبآیاته ورسله ؟ وهی مكیة علی الأظهر . فإن سیاقها یؤید أنها كأخواتها اللاتی نزلن بمكّة ، لاسیما خاتمها . فإنها صفات المستهزئین الذین كانوا بمكّة . وحملها علی المنافقین بالمدينة بعید ، إذ لم یبلغ بهم الحال ذلك . وأما ما رواه النسائی وابن ماجه^(١) - كما فی ابن کثیر عن ابن عباس ، لما قدم النبی ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس کیلاً ، فأنزل الله (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) فأحسنوا الكیل - فقد ذكرنا مراراً أن معنى الإزال ، فی إطلاق السلف ، لا یكون مقصوراً علی أن كذا سبب النزول . بل إن كذا مما نزل فیہ ذلك . كأن أهل المدينة تلی علیهم ما سبق إنزاله فی مكّة . وقیل لهم : أنزل الله حظر ما أنتم علیه والوعید فیہ . فأقلعوا . وهذا ظاهر لمن له أنس بعلم الآثار وملسكّة فیہ . ومنه یعلم أن قول بعضهم : نزلت بمكّة لإقصة التطفیف . وقول آخر : إن كل نوع من السكّی والمدنیّ منه آیات مستثناة - منشؤه الحیرة فی المطابقة بین ظاهر ما یتبادر من المأثور فی سبب النزول ، و بین ما یدل علیه السیاق من خلافه . وبالوقوف علی عرف السلف یزول الإشكال ویوضح الحال .

(١) أخرجه ابن ماجه فی : ١٢ - كتاب التجارات ، ٣٥ - باب التوقی فی الكیل والوزن ، حدیث ٢٢٢٣ (طبعتنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَيْلٌٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ)

[٢] (الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)

[٣] (وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)

« وَيْلٌٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ » أى هلاك لهم . قال الأصمهباني : ومن قال : (وَيْلٌٌ) وإد في جهنم ، فإنه لم يرد أن (ويلاً) في اللغة هو موضوع لهذا . وإنما أراد : من قال الله تعالى ذلك فيه ، فقد استحق مقراً من النار .

ثم بين تعالى المطففين بقوله « الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ » أى إذا أخذوا الكيل من الناس يأخذونه وافياً وزائداً . على إيهام أن بذلك تمام الكيل . وإذا فعلوا ذلك في الكيل الذى هو أجل مقداراً ، ففي الوزن بطريق الأولى . وإيثار (على) على (من) للإشارة إلى ما في عملهم المنكر من الاستعلاء والقهر . شأن المتغلب المتحامل المتسلط ، الذى لا يستبرى لدينه وذمته « وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » أى كالوا للناس أو وزنوا لهم ، ينقصونهم حقهم الواجب لهم ، وهو الوفاء والتمام . ففيهما حذف وإيصال . قال ابن جرير^(١) : من لغة أهل الحجاز أن يقولوا : وزنتك حقتك ، وركلتك طعامك ، بمعنى وزنت لك وركت لك .

تنبيه :

في (الإكيل) : في الآية ذم التطفيف والخيانة في الكيل والوزن . أى لأنه من المنكر

(١) انظر الصفحة رقم ٩١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

فهو من المحظورات أشد الحظر ، لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل في الأخذ والدفع ، ولو في القليل . لأن من دَنَوَتْ نفسه إلى القليل دل على فساد طويته وخبث ملكته ، وأنه لا يقعه عن التوثب إلى الكثير إلا عجز أو رقابة . قال ابن جرير (١) : وأصل التطفيف من الشيء الطفيف ، وهو القليل النزر . والمطفف : القليل حق صاحب الحق عماله من الوفاء والتمام في كيل أو وزن . ومنه قيل للقوم الذين يكونون سواء في حسبة أو عدد : هم سواء كطف الصاع . يعنى بذلك كقرب المتلى منه ناقص عن الملاء . وقد أمر تعالى بالوفاء في الكيل والميزان . فقال تعالى في عدة آيات : (٢) (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْمُسْتَقِيمِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) . وقال تعالى (٣) (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) وقص تعالى علينا أنه أهلك قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال . ثم قال سبحانه متوعداً لهم :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (أَلَا يَظُنُّ أَوْلِيَاكَ أَهْمُ مَبْعُوثُونَ)

[٥] (لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)

[٦] (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« أَلَا يَظُنُّ أَوْلِيَاكَ أَهْمُ مَبْعُوثُونَ » أى من قبورهم بعد مماتهم « لِيَوْمٍ عَظِيمٍ » أى عظيم الهول جليل الخطب كثير الفرع ، من خسره فيه أدخل نارا حامية « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى لأمره وقضائه فيهم بما يستحقون ، في موقف يغشى المجرم فيه من الهول ، ما يود الافتداء بكل مستطاع . وفي تأثر الويل للمطففين بما ذكر في هاتين الآيتين ،

(١) انظر الصفحة رقم ٩٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٥] . (٣) [٥٥ / الرحمن / ٩] .

مبالغات في النعم عن التطفيف وتعظيم إثمه . ووجه ذلك ، كما لخصه الشهاب ، أن في ذكر الظن من التجهيل مع اسم الإشارة الدال على التبعيد ، تحقيراً - ووصف يوم قيامهم بالمظنة - وإبدال (يَوْمَ يَقُومُ) منه ، فإنه يدل على استعظام ما استحقروه . والحكمة اقتضت أن لا تهمل مثقال ذرة من خير وشر .

وعنوان (رب العالمين) للمالكية والتربية الدالة على أنه لا يفوته ظالم قوى ، ولا يترك حق مظلوم ضعيف - وفي تعظيم أمر التطفيف إيماء إلى العدل وميزانه ، وأن من لا يهمل مثل هذا ، كيف يهمل تعطيل قانون عدله في عبادته ؟ وناهيك بأنه وصفهم بصفات الكفرة . فتأمل هذا المقام ، ففيه ما تتحير فيه الأوهام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لِنِي سَجِينٍ)

[٨] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ)

[٩] (كِتَابٌ مَّرْقُومٌ)

[١٠] (وَيَلُومُ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ)

[١١] (الَّذِينَ يُكذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ)

« كَلَّا » ردع عن التطفيف الذي يقترفونه لغفلتهم عن يوم الحساب وضعف اعتقادهم به « إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ » أى ما كتب فيه من عملهم السيئ وأحصى عليهم . وإيثار المظهر للإشعار بوصف لهم ثانياً ، وهو الفجور ، بخروجهم عن حد العدالة المتفق عليها الشرع والعقل « لِنِي سَجِينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ » أى مسطور بين الكتابة . أو معلم برقم ينبيء عن قبجه . سمي سجينا - فمميلا من السجن وهو الحبس والتضييق - لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم . فهو بمعنى (فاعل) فى الأصل . أو لأنه مطروح فى أسفل

مكان مظلم . فهو بمعنى (مفعول) كأنه مسجون لما ذكر . وقيل : هو اسم مكان ، فيقدر مضاف فيه أو فيما بعده . والتقدير : ما كتاب سجين أو محل كتاب مرقوم؟ فحذف المضاف . وقيل إنه مشترك بين المكان والكتاب . وقال الأصفهاني : السجين اسم لجهنم بإزاء عليين . وزيد لفظه تنبيهاً على زيادة معناه . وقيل : هو اسم للأرض السابعة .

ثم قال : وقد قيل إن كل شيء ذكره الله تعالى بقوله (وَمَا أَدْرَاكَ) فسرره . وكل ما ذكره بقوله (وَمَا يُدْرِيكَ) تركه مبهماً . وفي هذا الموضع ذكر (وَمَا أَدْرَاكَ) وكذا في قوله (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّونَ) ثم فسر الكتاب ، لا السجين والعليون . وفي هذه الطبقة موضعها الكتب التي يتبع هذا الكتاب ، لا هذا . انتهى .

وقال القاشاني : (لَفِي سِجِّينٍ) في مرتبة من الوجود مسجون أهلها في حبوس ضيقة مظلمة أذلاء أخساء في أسفل مراتب الطبيعة ودرجاتها . وهو ديوان أعمال أهل الشر . ولذلك فسر بقوله (كَتَبَ مَرْقُومٌ) أي ذلك المحل المكتوب فيه أعمالهم ، كتاب مرقوم بـرقوم هيئات رذائلهم وشرورهم « وَيَلُؤُاْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ » أي بيوم الحساب والمجازاة . وفيه إشعار بأن المطففين ممن يتناولهم هذا الوصف . لأن إصرارهم على التمدي والاجترام يدل على عدم الظن بالبعث . كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كَلٌّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

[١٣] (إِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأُولِينَ)

« وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كَلٌّ مُعْتَدٍ » أي مجاوز طور الفطرة الإنسانية ، بتجاوزه حد العدالة، إلى الإفراط في أفعاله بالبغي والمدوان « أَثِيمٍ » أي مبالغ في ارتكاب أفانين الإثم وأنواع المعاصي « إِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأُولِينَ » أي ماسطروه من الأحاديث والأخبار . يريد أنه ليس بوحى رباني ، ولا تنزيل إلهي . مع نصوص بيانه وشواهد برهانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (كَلَّا بَلْ سَرَّانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« كَلَّا » أى ليست هذه الآيات بأساطير الأولين . بل هى الحق المبين ، والشفاء لما فى الصدور « بَلْ سَرَّانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى غطى على مداركهم ما اكتسبوه من الآثام حتى كدر جوهرها وصار صدا عليها بالرسوخ فيها . و (الرين) أصل معناه الصدا والرسوخ القار ، شبه به حب المعاصى الراسخ فى النفس . وذلك أنه يحصل من تكرار الفعل ملكة راسخة لاتقبل الزوال ، وصفة للنفس قارة فيها . فبكثره المعاصى يرسخ حبها فى القلب بحيث لا يزول ، كالصدا الذى لا يزول بسهولة . قال فى (الأساس) : الران ما غطى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب . من قولهم (ران عليه الشراب والنعاس) و (ران به) إذا غلب على عقله . و (رين بفلان) ونظيره العين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُوبُونَ)

« كَلَّا » ردع لهم عن الكسب الرائن على قلوبهم . أو بمعنى حقاً « إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُوبُونَ » قال ابن جرير^(١) : أى فلا يرونه ولا يرون شيئاً من كرامته يصل إليهم ، فهم محجوبون عن رؤيته وعن كرامته . وتخصيص الحجب بهؤلاء يقتضى أن غيرهم غير محجوب فيراه الله تعالى ويرى كرامته . قال الشهاب : لما كان الحجاب هو السار من ستارة بز وغيرها ، استعير تارة لعدم الرؤية ، لأن المحجوب لا يرى ما حجب . وتارة للإهانة ، لأن الحقيير يحجب ويمنع من الدخول على الرؤساء . ولذا قالت العرب : الناس ما بين مرحوب ومحجوب ، أى معظم ومهان . وهو بمعانيه محال أن يتصف به الله . فلا يصح إطلاقه عليه تعالى ، كما صرحوا به . وإنما يوصف به الخلق ، كما فى هذه الآية . فإذا أجرى على اسم من أسمائه تعالى ، فهو وصف سبى لا حقيقى . بل التشبيه للخلق .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ)

[١٧] (ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ)

« ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ » أى محترقون بها . وقد أشار القاشانى إلى سر ترادف هذه الجمل الكريمة ، بأن ما كتسبوه من الذنوب لما صار كالصدأ على قلوبهم بالرسوخ فيها ، كدر جوهرها وغيرها عن طباعها . فعندها تحقق الحجاب وانلق باب الغفرة ، ولذلك قال : (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) لامتناع قبول قلوبهم للنور ، وامتناع عودها إلى الصفاء الأول الفطرى . كالماء الكبريتى مثلا ، إذ لو روق أو صعد لما رجع إلى الطبيعة المائية المبردة ، لاستحالة جوهرها . بخلاف الماء المسخن الذى استحالت كيميته دون طبيعته . ولهذا استحقوا الخلود فى العذاب ، وحكم عليهم بقوله (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) انتهى . قال ابن القيم فى (بدائع الفوائد) فى هذه الآية ما مثاله : جمع لهم سبحانه بين العذابين عذاب الحجاب وعذاب النار . فألم الحجاب يفعل فى قلوبهم وأرواحهم ، نظير ما تفعله النار فى أجسامهم . كحال من حيل بينه وبين أحب الأشياء إليه فى الدنيا ، وأخذ بأشد العذاب . فإن أخص عذاب الروح أن تتعلق بمحجوب لاغنى لها عنه ، وهى ممنوعة من الوصول إليه . فكيف إن حصل لها ، مع توارى المحجوب عنها وطول احتجابه ، بنفضه لها ومقته وطرده وغضبه الشديد عليها ؟ فأى نسبة لألم البدن إلى هذا الألم الذى لا يتصوره إلا من بلى به أو بشيء منه ؟ فلو توهمت النفوس ما فى احتجاب الله سبحانه عنها يوم لقائه من الألم والحسرة ، لما تعرضت لأسباب ذلك الاحتجاب . وأنت ترى المحبين فى الدنيا لصورة ، منتهى حسنها إلى ما يعلم ، كيف يضجون من ألم احتجاب محبوبهم عنهم وإعراضه وهجره ؟ ويرى أحدهم كالوت أو أشد منه من بين ساعة ، كما (١) قال :

وَكُنْتُ أَرَى كَالْوَتِ مِنْ بَيْنِ لَيْلَةٍ فَكَيْفَ بَيْنِ كَانَ مِعَادَةَ الْحَشْرِ

(١) من الحماسية رقم ٣٨٥ لسلمة الجعفى يرئى أخاه لأمه . وأولها :

وإنما يتبين الحال في هذا بمعرفة ما خلقت له الروح وما هيئت له وما فطرت عليه ، وما لاسمادة لها ولا نعيم ولا حياة إلا بإدراكه .

فاعلم أن الله سبحانه خلق كل عضو من الأعضاء لغاية ومنفعة ، فكأله ولذته في أن يحصل فيه ما خلق له، فخلق العين للإبصار والأذن للسمع والأنف للشم واللسان للنطق واليد للبطش والرجل للمشي والروح لمعرفة ومحبتة والابتهاج بقربه والتنعم بذكوره . وجعل هذا كلها وغايتها . فإذا تعطلت من ذلك كانت أسوأ حالاً من العين والأذن واللسان واليد والرجل ، التي تعطلت عما خلقت له ، وحيل بينها وبينه . بل لانسبة لألم هذه الروح إلى ألم تلك الأعضاء المعطلة البتة . بل ألمها أشد الألم . وهو من جنس ألمها إذا فقدت أحب الأشياء إليها وأعزه عليها ، وحيل بينها وبينه ، وشاهدت غيرها قد ظفر بوصله وقاز بقربه ورضاه . والروح لإحياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها ، الذي لا تقرّ عينها إلا بقربه والأنس به والمعكوف بكأيتها على محبتة والشوق إلى لقائه . فهذا غاية كلها وأعظم نعيمها وجنتها العاجلة في الدنيا . فإذا كان يوم لقائه كان أعظم نعيمها رفع الحجاب

= أقول لنفسي في الخلاء ألومها : لك الويل ! ما هذا التجلُّ والصبرُ
قال الشارح المرزوق :

قوله (كالموت) جعل الكاف وحده اسماً . وسيبويه لا يرى ذلك إلا في الضرورة . كأنه قال : أرى مثل الموت . ولا يتمنع أن يكون (كالموت) صفة لموصوف محذوف . كأنه قال : وكنت أرى شيئاً أو امرأاً مثل الموت .

وقوله (من بين ليلة) من ، دخل للتبيين . والمعنى : كنت أعدّ مفارقتي له في ليلة كالموت ، أو أقاسى مثل الموت من أجل مفارقة ليلة منه ، فكيف يكون حال وقد فرّق بيني وبينه بين ، موعداً الالتقاء بعده يوم القيامة .

الذي كان يحجبها في الدنيا عن رؤية وجهه وسماع كلامه . وفي حديث الرؤية^(١) : فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه .

ثم قال : وكما جمع سبحانه لأعدائه بين هذين العذابين ، وهما ألم الحجاب وألم العذاب ، جمع لمحبيه بين نوعي النعيم نعيم القرب والنظر ، ونعيم الأكل والشرب والنسكاح والتمتع بما في الجنة ، في قوله^(٢) (وَلَقَسْتَهُمْ نَصْرَةً وَسُرُورًا) الآيات اه .

« ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْكُدُونَ » أى في الدنيا . قال الإمام: تبيكيتاً لهم وزيادة في التنكيل بهم . فإن أشد شيء على الإنسان ، إذا أصابه مكروه ، أن يذكر وهو يتألم له ، بأن وسائل النجاة من مصابه كانت بين يديه فأهملها . وأسباب التفصّي عنه كانت في مكنته فأغفلها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)

[١٩] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ)

[٢٠] (كِتَابٌ مَّرْقُومٌ)

[٢١] (يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ)

« كَلَّا » ردع عن التكذيب ، أو بمعنى حقاً « إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ » قال القاشاني : أى ما كتب من صور أعمال السعداء وهيآت نفوسهم النورانية وملكاتهم الفاضلة ، في عليين . وهو مقابل للسجين ، في علوه وارتفاع درجته ، وكونه ديوان أعمال أهل الخير . كما قال « وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ » أى محل شريف

(١) أخرجه الترمذى في : ٣٦ - كتاب الجنة ، ١٦ - باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى . (٢) [٧٦ / الإنسان / ١١] .

رقم بصور أعمالهم « يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ » أى يحضره المقربون من حضرة ذى الجلال ، كما فى آية (١) (فى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) .

والمقربون هم الأبرار . أعاد ذكرهم ، بوصفٍ ثانٍ ، تفويهاً بهم وتمعيدياً لصفاتهم .
أو هم الملائكة إجلالاً لهم وتمظيماً لشأنهم .

ولما عظم تعالى كتابهم ، تأثره بتمظيم منزلتهم ، بقوله سبحانه :
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

[٢٣] (عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ)

[٢٤] (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ)

[٢٥] (يُسْقُونَ مِنْ رَاحِقٍ نَّحْتُمٍ)

[٢٦] (خِتْمُهُ مِسْكَ ، وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » أى عظيم دائم ، وذلك نعيمهم فى الجنان « عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ » أى على الأسرة والتمكآت ينظرون إلى ما أعطاهم الله من الكرامة وأفانين النعيم « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ » أى بهجته وروثقه ، كما يرى على وجوه المترفين ماؤه وحسنه « يُسْقُونَ مِنْ رَاحِقٍ » أى خمر ، إلا أنه خص بالخالص الذى لاغش فيه ، كما قال حسان (١) :
يُسْقُونَ مِنْ وَرْدِ الْبَرِيصِ (٢) عَلَيْهِمْ بَرْدَى يُصَفَّقُ بِالرَّاحِقِ السَّلْسَلِ

(١) [٥٤ / القمر / ٥٥] . (٢) البريص : نهر بدمشق . وبردَى : نهر آخر بدمشق .

وقوله (بردى) أى ماء بردى . ويصفق أى يمزج . والراحق الخمر البيضاء . والسلسل اللينة السهلة الدخول فى الحلق . وذلك من قصيدته التى مطلعها :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل ؟
بين الجوابى فالبُضَيْعُ فَحَوْمَلْ

(شرح البرقوقى ص ٣٠٧) .

ومنه قولهم . مسك رحيق لاغش فيه ، وحسب رحيق لاشوب فيه .
وقوله تعالى : « مَخْتُومٌ » أى ختم على أوانيه تكريماً له لصيانتة عن أن تمسه الأيدي
على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان « خَتَمَهُ وَمِسْكٌ » . قال القفال : أى الذى
يختم به رأس قارورة ذلك الرحيق ، هو المسك ، كالطين الذى يختم به رؤوس القوارير فكأن
ذلك المسك رطب ينطبع فيه الخاتم .

وعن بمض السلف واللغويين : المختوم الذى له ختام أى عاقبة ، وقد فسرت بالمسك . أى
من شربه كان ختم شربه على ربح المسك . والقصد لذة المقطع بذكاء الرائحة وأرجها ، على
خلاف خمر الدنيا الخبيثة الطعم والرائحة « وَفِي ذَلِكَ » أى النعيم المغوه به وما تلاه « فَلْيَتَنَافَسِ
الْمُقْتَنَفِسُونَ » أى فليرغب الراغبون بالاستباق إلى طاعة الله تعالى .

قال ابن جرير : التنافس أن ينافس الرجل على الرجل بالشئ ، يكون له ، ويتمنى أن يكون
له دونه . وهو مأخوذ من الشئ النقيس ، وهو الذى تحرص عليه نفوس الناس وتطلبه
وتشتميه . وكان معناه فى ذلك : فليجدد الناس فيه وإليه ، فليستبتهوا فى طلبه ولتحرص عليه
نفوسهم . وقال الرازى : إن مبالغته تعالى فى الترغيب فيه تدل على علو شأنه . وفيه إشارة
إلى أن التنافس يجب أن يكون فى مثل ذلك النعيم العظيم الدائم ، لافى النعيم الذى هو مكدر
سريع الفناء . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ)

[٢٨] (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ)

« وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ » عطف على (ختامه) صفة أخرى (لرحيق) وما بينهما اعتراض
مقرر لفاسقه . أى ما يمزج به ذلك الرحيق من ماء تسنيم . والتسنيم فى الأصل مصدر سئم به بمعنى

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

رفعه ، ومنه السفام . سعى الماء به لارتفاعه وانصبابه من علو . وقد بينه بقوله « عَيْمًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُتَرَبُّونَ » أى يشربون بها الرحيق ، والكلام فى الباء ، كما فى آية (١) (يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ) من كونها زائدة ، أو بمعنى (من) أو صلة الامتزاج أو الالتذاذ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ)

[٣٠] (وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ)

[٣١] (وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا » يعنى كفار قريش « كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ » أى استهزاء بهم لإيمانهم بالله وحده وبما أوحاه إلى رسوله صلوات الله عليه ، وبذم ما ألفوا عليه آباءهم .

قال الإمام : الذين أجمروا هم المعتدون الأمة الذين شرّبت نفوسهم فى الشر ، وصمّت آذانهم عن سماع دعوة الحق . هؤلاء كانوا يضحكون من الذين آمنوا . ذلك لأنه حين رحم الله هذا العالم ببعثة النبي ﷺ ، كان كبار القوم وعرفاؤهم على رأى الدهاء وفى ضلال العامة . وكانت دعوة الحق خافتة لا يرتفع بها إلا صوته عليه السلام ، ثم يهمس بها بعض من يليه . ويحبب دعوته من الضعفاء الذين لم تطمس أهواؤهم سبيل الحق إلى قلوبهم فيُسِرُّ بها إلى من يرجوه ، ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه . ومن شأن القوى المستعز بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفه فى المنزِع ويدعوه إلى غير ما يعرفه ، وهو أضعف منه قوة وأقل عدداً . كذلك كان شأن جماعة من قريش ، كأبى جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم . وهكذا يكون شأن أمثالهم فى كل زمان متى عمت البدع ، وتفرقت الشيع وخفى طريق الحق بين طرق الباطل ، وجهل معنى الدين ، وأزهقت روحه من عباراته وأساليبه ، ولم يبق إلا ظواهر

(١) [٧٦ / الإنسان / ٦] .

لا تطابقها البواطن، وحركات أركان لا تشايعها السرائر. وتحكمت الشهوات فلم تبق رغبة تحدو بالناس إلى العمل، إلا ما تعلق بالطعام والشراب والزينة والرياش والمناصب والألقاب. وتشبثت الهمم بالجد الكاذب. وأحب كل واحد أن يحمد بما لم يفعل. وذهب الفاقص يستكمل ما نقص منه بتفقيص الكامل. واستوى في ذلك الكبير والصغير، والأمير والمأمور، والجاهل والملقب بلقب العالم. إذا صار الناس إلى هذه الحال، ضعف صوت الحق وازدرى السامعون منهم بالداعي إليه. وانطبق عليهم نص الآية الكريمة. انتهى.

« وَإِذَا مَرُّوا » أى الذين آمنوا « بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ » أى يغمز بعضهم بعضاً استهزاء وسخرية. والغمز: الإشارة بالجنف والحجاب.

قال السيوطي: وفي هذا دلالة على تحريم السخرية بالؤمنين، والضحك منهم، والتغامز عليهم « وَإِذَا أُنْقَلَبُوا » أى هؤلاء المجرمون من مجالسهم « إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكَيْهِنَ » أى متلذذين بالسخرية وحكاية ما يعيبون به أهل الإيمان. أو بما هم فيه من الشرك والظفیان والتعتم بالدنيا.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَّالُّونَ)

[٣٣] (وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ)

[٣٤] (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[٣٥] (عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ)

[٣٦] (هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

« وَإِذَا رَأَوْهُمْ » أى رأوا المؤمنين « قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَّالُّونَ » أى لتركهم ما عليه العامة، والاعتصام بغيره. وقوله تعالى « وَمَا أَرْسَلْنَا » أى هؤلاء المجرمون القائلون ماذا

« عَلَيْهِمْ » أى على المسلمين « حَافِظِينَ » أى لأعمالهم . جملة حالية من (واو قالوا) أى قالوا ذلك ، والحال أنهم ما أرسلوا من جهة الله تعالى موكلين بهم ، يحفظون عليهم أحوالهم ، ويهيمون على أعمالهم ، ويشهدون برشدكم وضلالهم . وهذا تهكم بهم وإشعار بأن ما اجترأوا عليه من القول ، من وظائف من أرسل من جهته تعالى .

وقد جوز أن يكون ذلك من جملة قول المجرمين . كأنهم قالوا : إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا علينا حافظين . إنكاراً لصددهم عن الشرك ودعاهم إلى الإسلام . وإنما قيل (عَلَيْهِمْ) نقلاً له بالمعنى كما فى قولك (حلف ليفعلن) لا بالعبارة ، كما فى قولك (حلف لأفعلن) أفاده أبو السعود « فَأَلْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » تفریع على ما قبله ، للدلالة على أنه جزاء سخريتهم فى الدنيا . و (اليوم) يوم الدين والجزاء . وضحكهم من الكفار ضحك السرور بما نزل بعدوه من الهوان والصغار ، بعد العزة والكبر . « عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ » إلى ما أوتوا من النعيم ، وما حل بالمجرمين من عذاب الجحيم « هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » أى جوزوا ثواب ما كانوا يفعلون فى الدنيا .

والجملة متعلقة بـ (يَنْظُرُونَ) فى محل نصب بعد إسقاط الجار . أو مستأنفة . والاستفهام للتقرير كأنه خطاب للمؤمنين ، تعظيماً لهم وتكريماً وزيادة فى مسرتهم . أى هل رأيت كيف جازى الله الكافرين بأعمالهم ، أى أنه فعل . و (ما) مصدرية أو موصولة .

وثوبه وأثابه بمعنى جزاءه . وهو من (ثاب) بمعنى رجع . فالثواب ما يرجع على العبد فى مقابلة عمله . ويستعمل فى الخير والشر .

ونظير هذه الآيات قوله تعالى (١) (أُخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمِنَّا فَإِنْ غَفَرَ لَنَا وَإِرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰ آسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ) .

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٨-١١١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٤ - سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

وتسمى سورة إذا السماء انشقت . وهي مكية . وهي خمس وعشرون آية . قيل ترتيب هذه السور الثلاث ظاهر . لأن في (انقطرت) تعريف الحفظة الكاتبين وفي (المطففين) مقرر كتبهم . وفي هذه عرضها للقيامة . روى الإمام مالك^(١) عن أبي سلمة أن أبا هريرة قرأ بهم: إذا السماء انشقت . فسجد فيها . فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها . ورواه مسلم^(٢) والنسائي^(٣) . وأخرج البخاري^(٤) عن أبي رافع قال : صليت مع أبي هريرة العتمة . فقرأ (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ) فسجد . فقلت : ما هذه ؟ قال : سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ . فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه . وفي رواية للنسائي^(٥) عن أبي هريرة قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ في (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ) و (أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) .

- (١) أخرجه في الموطأ في : ١٥ - كتاب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن ، حديث رقم ١٢ (طبعنا) .
- (٢) أخرجه في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٠٧ (طبعنا) .
- (٣) أخرجه في : ١١ - كتاب الافتتاح ، ٥١ - باب السجود في إذا السماء انشقت .
- (٤) أخرجه في : ١٧ - كتاب سجود القرآن ، ١١ - باب من قرأ السجدة في الصلاة فسجد بها . حديث رقم ٤٦٦ .
- (٥) أخرجه في : ١١ - كتاب الافتتاح ، ٥١ - باب السجود في إذا السماء انشقت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ)

[٢] (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

[٣] (وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ)

[٤] (وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)

[٥] (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

« إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ » أى انصدعت وتقطعت كما تقدم في قوله ^(١) (إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ) « وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ » أى سمعت له في تصدعها وتشققها . وهو مجاز عن الانقياد والطاعة . والمعنى أنها انقادت لتأثير قدرته ، حين أراد انشقاقها ، انقياد المطواع الذى يستمع للأمر ويذعن له . قال ابن جرير ^(٢) : العرب تقول (أذن لك فى هذا إذناً) بمعنى استمع لك . ومنه الخبر الذى روى ^(٣) عن النبي ﷺ : ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن . يعنى ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن . ومنه قول الشاعر ^(٤) :

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذَكَرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

(١) [٨٢ / الانقطار / ١] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٣٢ - باب قول الله تعالى : وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ، حديث رقم ٢٠٨٨ ، عن أبي هريرة .

(٤) الحاسية رقم ٦٠٦ لقعن بن أم صاحب . وأولها :

إِنْ يَسْمَعُوا رِيبةً طَارُوا بِهَا فَرِحًا مَنِ ، وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

أذنوا : استمعوا ، يقال : أذن لكذا وكذا ، يأذن إذناً .

ويجوز أن يكون اشتقاقه من الأذن ، الحاسية .

ومعنى قوله تعالى (وَحَقَّتْ) أى : حق لها ووجب أن تقاد لأمر القادر ولا تتمنع .
وهى حقيقة بالانقياد لأنها مخلوقة له فى قبضة تصرفه . قال العرب : الأصل حق الله طاعتها .
ولما كان الإسناد فى الآية إلى السماء نفسها ، والتقدير : وحقت هى ، كان أصل الكلام
على تقدير مضاف فى الضمير المستكن فى الفعل . أى وحق سماعها وطاعتها . فحذف المضاف ،
ثم أسند الفعل إلى ضميره ، ثم استتر فيه « وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ » أى بسطت وجعات مستوية .
وذلك بنسب جبالها وآكامها كما قال (١) (قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا)
ولذا قال ابن عباس : مدت مد الأديم العكاظي . لأن الأديم إذا مدّ ، زال كل انثناء فيه
واستوى « وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا » أى ما فى جوفها من الكنوز والأموات « وَتَخَلَّتْ » أى :
وخلت غاية الخلو ، حتى لم يبق شىء فى باطنها ، كأنها تكلفت أقصى جهدها فى الخلو
« وَأُذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ » أى انقادت له فى التخلية ، وحق لها ذلك ، وإعادة الآية للتنبيه
على أن ذلك تحت سلطان الجلال الإلهي وقهره ومشيتته . وجواب (إذا) محذوف للتحويل
بالإبهام . أى : كان ما كان مما لا يبقى به البيان . أو لاقى الإنسان كدحه ، كما قال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَدَّأَيْهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ)

[٧] (فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَيَمِينِهِ)

[٨] (فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا)

[٩] (وَيَتَقَلَّبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا)

« يَدَّأَيْهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ » قال ابن جرير (٢) : أى

(١) [٢٠ / طه / ١٠٦ و ١٠٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

إنك عامل إلى ربك عملاً فلاقه به ، خيراً كان أو شراً . والمعنى : فليكن عمالك مما ينجيك من سخطه ، ويوجب لك رضاه ، ولا يكن مما يسخطه عليك فتهلك . وقال القاشاني : أى إنك ساع مجتهد في الذهاب إليه بالموت . أى تسير مع أنفاسك سريعاً . كما قيل : أنفاسك خطاك إلى أجلك ؛ أو مجتهد مجدّد في العمل ، خيراً أو شراً ، ذاهب إلى ربك فلاقه ضرورة . قال : والضمير إما للرب وإما للكدر . وأصل الكدر جهد النفس في العمل والكدر فيه ، حتى يؤثر فيها . من (كدر جلد) إذا خدشه . فاستعير للجد في العمل وللتعب ، بجامع التأثير في ظاهر البشرة « فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَبَيَمِينِهِ » وهم من آمن وعمل صالحاً واتصف بما وصف به الأبرار ، في غير ما آية « فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا » قال ابن جرير (١) : بأن ينظر في أعماله فيغفر له سيئها ويجازى على حسنها . وقال القاشاني : بأن تحصى سيئاته ويعفى عنه ويثاب بحسناته دفعة واحدة ، لبقاء فطرته على صفائها ونوريتها الأصلية « وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ » أى : زوجته وأقاربه . أو قومه ممن يجانسه ويقارنه من أصحاب اليمين « مَسْرُورًا » أى بنجاته من العذاب ، أو بصحبتهم ومرافقتهم ، وبما أوتى من حظوظه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ)

[١١] (فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا)

[١٢] (وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا)

[١٣] (إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا)

[١٤] (إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ)

[١٥] (بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِبَصِيرًا)

(١) انظر الصفحة رقم ١١٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ » أى أعطى كتاب عمله بشماله من وراء ظهره، وهو على هيئة المنضوب عليه، أمام الملك المنصرف به عن ذلك المقام إلى دار الهوان^(١) (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) «فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا» أى ينادى بالهلاك وهو أن يقول : وايبوراه ! وواويلاه ! وهو من قولهم دعا فلان لهفه ، إذا قال والهفاه « وَيَصَلَّى سَعِيرًا » أى يدخل ناراً يحترق بها « إِنَّهُ وَكَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا » أى منعماً مستريحاً من التفكير فى الحق والدعاء إليه والصبر عليه . لا يهيمه إلا أجوفاه، بطراً بالنعم ، ناسياً لمولاه « إِنَّهُ وَظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ » أى لن يرجع إلى ربه، أو إلى الحياة بالبعث . لاعتقاده أنه يحيى ويموت ولا يهلكه إلا الدهر . فلم يك يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً ولا يبالي ماركب من المآثم ، على خلاف ما قيل عن المؤمنين^(٢) (إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ)^(٣) (إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَدِّقٌ حِسَابِيَهُ) « بَلَىٰ » أى ليحورن ويرجمن إلى ربه حياً كما كان قبل مماته « إِنَّ رَبَّهُ وَكَانَ بِهِ بَصِيرًا » أى بما أسلف فى أيامه الخالية ، فيجازيه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّقِيقِ)

[١٧] (وَالْيَلِيلِ وَمَا وَسَقِ)

[١٨] (وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ)

[١٩] (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ)

[٢٠] (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٢١] (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ)

(١) [١٦/ النحل/ ٦٠] . (٢) [٥٢/ الطور/ ٢٦] . (٣) [٦٩/ الحاقة/ ٢٠] .

« فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ » وهى الحمرة فى الأفق من ناحية مغرب الشمس « وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ » أى جمع وضمّ مما سكن وهدأ فيه من ذى روح كان يطير أو يدب نهاراً كذا قاله ابن جرير^(١)، والأظهر أن يكون إشارة إلى الأشياء كلها ، لاشتغال الليل عليها. فكأنه تعالى أقسم بجميع المخلوقات كما قال^(٢) (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) « وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ » أى اجتمع وتم نوره وصار كاملاً « لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ » أى حالاً بعد حال. والمعنى بالحال الأولى البعث للجزاء على الأعمال. وبالثانية الحياة الأولى. وفيه تنبيه على مطابقة كل واحدة لأختها. فإن الحياة الثانية تماثل الأولى وتطابقها من حيث الحس والإدراك والألم واللذة ، وإن خفى اكتناهاها. وجوز أن يكون (طَبَقًا) جمع طبقة وهى المرتبة. أى لتركن مراتب شديدة مجاوزة عن مراتب وطبقات ، وأطواراً مرتبة بالموت وما بعده من مواطن البعث والنشور .

قال الشهاب : الطباق معناه ما يطابق غيره مطلقاً فى الأصل، ثم إنه خص بما ذكر، وهو الحال المطابقة أو مراتب الشدة المتعاقبة .

و (عن) للمجازة أو بمعنى (بمد). والبعدية والمجازة متقاربان، لكنه ظاهر فى الثانى « فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى بهذا الحديث. وقد أقام لهم الحججة على التوحيد والبعث « وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ » أى لا يخضعون ولا يستكفون ولا ينقادون .
قال فى (الإكليل) : وقد استدل به على مشروعية سجدة التلاوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ)

[٢٣] (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ)

(١) انظر الصفحة رقم ١١٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ٣٨ و ٣٩] .

[٢٤] (فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٢٥] (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

« بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ » أى آيات الله وتنزيله ، المبين لما ذكر من أحوال القيامة وأهوالها ، مع تحقيق موجبات تصديقه ، والإضراب عن محذوف تقديره كما قال الإمام ، لا تظن أن قرع القرآن لم يكسر أغلاق قلوبهم ، ولم يبلغ صوته أعماق ضمائرهم . بل ، قد بلغ وأفنع فيما بلغ . ولكن العناد هو الذى يمنهم عن الإيمان ، ويصددهم عن الإذعان ، فليس منشأ التكذيب قصور الدليل . وإنما هو تقصير المستدل وإعراضه عن هدايته ، فالإضراب يرمى إلى محذوف من القول يدل عليه السابق واللاحق « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ » أى بما يسرون فى صدورهم من حقية التنزيل ، وإن أخفوه عناداً . أو بما يضمرون من البغى والمكر ، فسيجزىهم عليه . ولذا قال « فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » أى جزاء على تكذيبهم وإعراضهم وبغيتهم « إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى غير مقطوع أو غير ممنون به عليهم . والاستثناء منقطع أو متصل ، على أن المراد بمن آمن من أسلم منهم فآمنوا باعتبار ما مضى أو بمعنى (يؤمنون) وكونه مفقوعاً أظهر لمجئ (لهم أجر) بغير فاء . والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٥ - سُورَةُ الْبُرُوجِ

مكية . وآيها اثنتان وعشرون . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج والسماء والطارق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)
 - [٢] (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)
 - [٣] (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)
 - [٤] (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ)
 - [٥] (النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ)
 - [٦] (إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ)
 - [٧] (وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ)
 - [٨] (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)
 - [٩] (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)
- « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ » أى الكواكب والنجوم. شبهت بالبروج ، وهى القصور، لعلوها . أو البروج منازل عالية فى السماء .

قال ابن جرير^(١) : وهى اثنا عشر برجاً . فمسير القمر فى كل برج منها يومان وثلاث فذلك ثمانية وعشرون منزلاً . ثم يستمر ليلتين . ومسير الشمس فى كل برج منها شهر . وأصل معنى البروج - كما قال الشهاب - الأمر الظاهر من التبرج . ثم صار حقيقة فى العرف للقصور العالية . لأنها ظاهرة للناظرين . ويقال لما ارتفع من سور المدينة (برج) أيضا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

فشبهه - على هذا - الفلك بسور المدينة وأثبت له البروج « وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ » أى الذى وعد فيه العباد لفصل القضاء بينهم ، وذلك يوم القيامة « وَشَاهِدٍ » وهو كل ماله حس يشهد به « وَمَشْهُودٍ » وهو كل مُحَسَّنٍ يشهد بالحس . فيدخل فيه العوالم المشهودة كلها . وتخصيصُ بعض المفسرين بعضاً مما يتناوله لفظهما ، لعله لأنه الأهم . أو الأولى أو الأعراف والأظهر ، لقريظة عنده . وإلا فاللفظ على عمومه ، حتى يقوم برهان على تخصيصه .

« قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ » أى : قتلهم الله وأهلكهم وانتقم منهم . على أن الجملة خبرية هي جواب القسم . أو دليل جوابه إن كانت دعائية . والتقدير : لتبطلن كما ابتلى من قبلكم ، ولينتقمن ممن فتنكمم كما انتقم من الذين ألقوا المؤمنين فى الأخدود .

قال الزخشرى : وذلك أن السورة وردت فى تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان ، وإلحاق أنواع الأذى وصبرهم وثباتهم ، حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحرقين بالنار ، ملمعون أحقاء بأن يقال فيهم (قتلت قريش) كاقيل (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) والأخدود : الحفرة فى الأرض مستطيلة . وقوله تعالى « أَلْتَأْتِرِ ذَاتِ الْوُقُودِ » بدل من (الأخدود) و(الوقود) بالفتح الحطب الجزل الموقد به وأما (الوقود) بالضم فهو الإيقاد « إِذْ هُمْ عَلَيْهَا » أى على حافات أخدودها « قُمُودٌ » أى قاعدون يتشفون من المؤمنين « وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ » أى حضور يشاهدون احتراق الأجساد الحية ، وما تفعل بها النيران . لا يرقون لهم لغاية فسوة قلوبهم « وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ » أى : وما أنكروا منهم ، ولا كان لهم ذنب ، إلا الإيمان بالله وحده .

قال الراغب : نكمت من الشيء ونكمته إذا أنكرته ؛ إما باللسان وإما بالعقوبة ، ومنه الانتقام « الْمُرِيزِ » أى الغالب على أعدائه بالقهر والانتقام « الْحَمِيدِ » أى الحمود على إنعامه

وإحسانه « الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » أى على كل شيء من أفاعيل هؤلاء الفجرة ، أصحاب الأخدود وغيرهم ، شاهدٌ شهوداً لا يخفى عليه منه مثقال ذرة ، وهو مجازيهم عليه . وفي توصيفه تعالى بما ذكر من النعمت الحسنی ، إشعار بمنطاط إيمانهم . فإن كونه تعالى قاهراً ومنعماً ، له ذلك الملك الباهر . وهو عليم بأفعال عبیده ، مما يوجب أن يخشاه من عرف المصائر ، وفي الآية نوع من البديع يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم . وهو معروف في كتب المعاني .

تنبيه :

روى ابن جرير^(١) عن ابن عباس في أصحاب الأخدود قال : هم ناس من بنى إسرائيل خدوا أخدوداً في الأرض ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساءً ، فمروضوا عليها . وهكذا قال الضحاك : هم من بنى إسرائيل أخذوا رجالاً ونساءً فخدوا لهم أخدوداً ، ثم أوقدوا فيه النيران ، فأقاموا المؤمنين عليها . فقالوا : تكفرون أو نقذفكم في النار .

وقال مجاهد : كان الأخدود شقوقاً بنجران . كانوا يعذبون فيها الناس - وتفصيل النبأ - على مافى كتاب (الكنز الثمين) - إن دعوة المسيح عليه السلام الأولى العربية عن شوائب الإلحاد ، لما دخلت بلاد اليمن وآمن كثير من أهلها ، كان في مقدمة تلك البلاد بلدة نجران . وكان أقام عليها ملك الحبشة أميراً من قبله نصرانياً مثله . وكان بها راهب كبير له الكلمة النافذة والأمر المطاع . ثم إن اليهود الذين كانوا في تلك البلاد تآمروا على طرح نير السلطة المسيحية من اليمن ، والإيقاع بمن تقصر ، بغضاً في المسيحية وكرهه لسلطانٍ مسيحيٍّ يملكهم . فأقاموا رجالاً يهودياً منهم عند موت ذلك السلطان أوقته . فأشهر ذلك اليهودي نفسه ملكاً على بلاد سبأ . وجاء لمحاربة مدينة نجران ، واستولى عليها بالتغلب والقوة

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

والخيانة . ولما دخلها قتل عدداً عظيماً من سكانها رجالاً ونساء . كانت عدتهم - فيما يقال - ثلاثمائة وأربعين شهيداً . وأتى بذلك الراهب محمولا يحف به الجلود . وكان هرماً لا يقوى على المشى . فستل عن عقيدته فأقر بالإيمان بالله تعالى وبما جاء به رسوله عيسى عليه السلام . فأمر بسفك دمه فقتل . وكذلك بقية الشهداء اعترفوا بما اعترف به دون جبن ولا تهيب ، بل بشجاعة وصبر على ما يشاهدونه من أفانين العذاب وأخاديد النيران . ثم ألقوا امرأة بنفسها في النار وتبعها طفل لها في الخامسة من عمره . وكل هؤلاء الشهداء أظهروا من السرور بالتألم من أجله تعالى ، والفرح بالشهادة ، ما أضحووا مثلاً وعبرة لسكل مفتون من أجل إيمانه ومدافعتة عن يقينه . سواء افتتن بماله أو نفسه أو بسلب حق له . لاجرم أن من تلا ما ورد في الوعد الصادق لسكل مفتون في الدين ، استبشر بما أعد للمخلصين الصابرين . وتسمى هذه القصة عند النصارى شهادة الحبر أراثا ورفقته . ويؤرخونها بعام (٥٢٤) من التاريخ المسيحي ، وقد علمت أن في كلام مجاهد ومن قبله إشارة إليها . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

« إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » أي بلوهم بالأذى ليرجموا عن إيمانهم . قال أبو السعود: والمراد بهم، إما أصحاب الأخدود خاصة، وبالفتونين المطروحون في الأخدود، وإما الذين بلوهم في ذلك بالأذية والتعذيب على الإطلاق. وهم داخلون في جلتهم دخولاً أولياً « ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا » أي عن كفرهم وفتنتهم « فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ » أي عذابان منوعان على الكفر وعلى الفتنة . أوهما واحد . أو من عطف الخاص على العام للمبالغة فيه . لأن عذاب جهنم بالمهزير والإحراق وغيرها . والأظهر أنهما واحد ، وإنه من عطف التفسير والتوضيح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى من هؤلاء المفتونين وغيرهم « لَهُمْ » أى فى نشأتهم الأخرى « جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ » أى التام الذى لا فوز مثله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[١٣] (إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ)

[١٤] (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

[١٥] (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ)

[١٦] (فَعَمَلٌ لِمَا يُرِيدُ)

« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » قال أبو السعود : استئناف خوطب به النبي ﷺ ، إيذانا بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه ، كما ينبى عنه التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام . و (البطش) الأخذ بمنف . وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم . وهو بطشه بالجسارة والظلمة ، وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام . كقوله تعالى (١) « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ »

« إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ » أى يبدى الخلق ثم يعيده . قال الإمام : وهو فى كل يوم

(١) [١١ / هود / ١٠٢] .

يبدى خلقاً من نبات وحيوان وغيرها . ثم إذا هلك أعاد الله خلقه مرة أخرى . ثم هو يعيد الناس في اليوم الآخر على النحو الذى يعلمه « وَهُوَ الْغَفُورُ » أى لمن يرجع إليه بالتوبة « أَلْوَدُودُ » أى المحب لمن أطاعه وأخلص له « ذُو الْعَرْشِ » أى الملك والسلطان أو السماء « أَلْمَجِيدُ » أى العظيم فى ذاته وصفاته . وقرئ بالجر صفة للعرش . ومجده : علوه وعظمته « فَعَالٌ لِّمَآ يُرِيدُ » أى لا يريد شيئاً إلا فعله . فلا يحول بينه وبين مراده شىء . فمتى أراد إهلاك الجاحدين ونصر المخلصين ، فعل ، لأن له ملك السموات والأرض . ولذا تأثره بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (هَلْ أَمْتَكَ حَدِيثٌ الْجُنُودِ)

[١٨] (فِرْعَوْنَ وَنَمُودَ)

[١٩] (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ)

[٢٠] (وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)

[٢١] (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ)

[٢٢] (فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ)

« هَلْ أَمْتَكَ حَدِيثٌ الْجُنُودِ » أى الذين تجندوا على الرسل بأذاهم .

قال ابن جرير (١) : أى قد أتاك ذلك ، وعلمته ، فاصبر لأذى قومك إياك ، لما نالوك به من مكروه ، كما صبر الذين تجند هؤلاء الجنود عليهم من رسل . ولا يثنيتك عن تبليغهم رسالتى . كما لم يثن الذين أرسلوا إلى هؤلاء . فإن عاقبة من لم يصدقك ويؤمن بك منهم ، إلى عطب وهلاك . كالذى كان من هؤلاء الجنود ، فالجملة - كما قال أبو السعود - استئناف مقرر لشدة بطشه تعالى

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحامى الثانية) .

بالظلمة العصاة ، والكفرة العتاة . وكونه (فمالا لما يريد) متضمن لتسليمته عليه الصلاة والسلام بالإشعار بأنه سيصيب قومه ما أصاب الجفود .

وقوله تعالى « فِرْعَوْنٌ وَثَمُودٌ » بدل من (الجنود) لأن المراد بفرعون هو وقومه ، واكتفى بذكره عنهم لأنهم أتباعه . والمراد بجدبهم ما صدر عنهم من التماذى في الكفر والضلال ، وما حل بهم من العذاب والنكال .

« بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ » أى للحق والوحى ، مع وضوح آياته وظهور بيناته ، عناداً وبغياً . والإضراب انتقالي للأشد ، كأنه قيل ليس حال فرعون وثمود بأعجب من حال قومك . فإنهم ، مع علمهم بما حل بهم ، لم ينزجروا . وفى جملهم (فِي تَكْذِيبٍ) إشارة إلى تمكنه من أنفسهم ، وأنه لشدة أحاط بهم إحاطة الظرف بمظروفه أو البحر بالفرق فيه ، مع ما فى تنكيره من الدلالة على تعظيمه وتهويله .

« وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ » أى محص عليهم أعمالهم . لا يخفى عليه منها شئ وهو مجازيهم على جميعها . فاللفظ كناية عما ذكر . أو المراد وصف اقتداره عليهم ، وأنهم فى قبضته وحوزته ، كالمحاط إذا أحيط به من ورائه ، فسدت عليه مسلكه فلا يجد مهرباً . ففيه استعارة تمثيلية .

قال الشهاب : وفيه تعريض توبيخى لهم بأنهم نبدوا الله وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الهوى والشهوات بوجوه انهما كهم ، وقوله تعالى « بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ » أى سام شريف لا يماثل فى أسلوبه وهدايته « فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ » قرئ بالرفع صفة (لقرآن) والجر صفة للوح . قال ابن جرير^(١) : والمعنى على الأولى محفوظ من التغيير والتبديل فى لوح . وعلى الثانية محفوظ من الزيادة فيه والنقصان منه ، عما أثبتته الله فيه . و (بل) إضراب عن شدة تكذيبهم وعدم كفهم عنه ، إلى وصف القرآن بما ذكر ، للإشارة إلى أنه لا ريب فيه ولا يضره تكذيب هؤلاء . فإنه تعالى تولى حفظه وظهوره أبد الآبدين .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٦ - سُورَةُ الطَّارِقِ

هي مكية . وآياتها سبع عشرة . -

روى الإمام أحمد^(١) : عن عبد الرحمن بن خالد بن أبي جبل العدواني عن أبيه ؛ أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا ، حين أتاهم يبتغي عندهم النصر . فسمعه يقرأ (وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقِ) حتى ختمها : قال فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك . ثم قرأتها في الإسلام . قال فدعيتي ثقيف فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم . فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا . لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه . وروى النسائي^(٢) عن جابر ، قال : صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة أو النساء ، فقال النبي ﷺ : أفتان أنت يامعاذ ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسما والطارق والشمس وضحاها ونحو هذا ؟

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٣٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه في : ١١ - كتاب الافتتاح ، ٦٣ - باب القراءة في المغرب بسبح اسم

ربك الأعلى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

[٢] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ)

[٣] (النَّجْمِ الثَّاقِبِ)

[٤] (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

« وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمِ الثَّاقِبِ » أى المضيء .

كأنه يشق ظلمة الليل وينفذ فيه ، فيبصر بنوره ويهتدى به . وسمى طارقاً لأنه يطرق ليلاً . أى يبدو فيه .

قال الشهاب : الطارق من (الطرق) وأصل معناه الضرب بوقع وشدة يسمع لها صوت . ومنه المطرقة والطريق ، لأن السابلة تطرقها . ثم صار في عرف اللغة اسماً لسالك الطريق ، لتصور أنه يطرقها بقدمه . واشتهر فيه حتى صار حقيقة . وتسمية الآتى ليلاً (طارقاً) لأنه فى الأكثر يجد الأبواب مغلقة فيطرقها .

والتعريف فى (النجم) للجنس . وأصل معنى (الثقب) الحرق . فالثاقب الحارق . ثم صار بمعنى المضيء ، لتصور أنه ثقب الظلام أو الفلك . وفى إبهامه ثم تفسيره ، تفخيم لشأنه وتنبه على الاعتبار والاستدلال به .

« إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » أى مهمين عليها رقيب . وهو الله تعالى ، كما فى آية^(١) (وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا) فيحصى عليها ما تكسب من خير أو شر ،

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٥٢] .

وقد قرئ (لَمَّا) بالتخفيف فـ (إن) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن - و (كُلُّ نَفْسٍ) مبتدأ و (عَلَيْهَا حَافِظٌ) خبره . و (ما) صلة واللام هي الفارقة . وقرئ (لما) بالتشديد على أنها بمعنى (إلا) الاستثنائية و (إن) نافية والخبر محذوف . أى ما كل نفس كائنة في حال من الأحوال، إلا في حال أن يكون عليها حافظ ورقيب. و (كل) على هذا مؤكدة (٢)

لأن (نفس) حينئذ نكرة في سياق النفي ، فتعم .

قال ابن جرير (١) : والقراءة الى لا أختار غيرها في ذلك ، التخفيف . لأن ذلك هو الكلام المعروف من كلام العرب، وقد أنكر التشديد جماعة من أهل المعرفة بكلام العرب. غير أن الفراء كان يرى أنها لغة في هذيل . يجعلون (إلا) مع (إن) المخففة لَمَّا . فإن كان صحيحاً ما ذكر الفراء فالقراءة بها جائزة صحيحة . وإن كان الاختيار مع ذلك قراءة التخفيف . لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب . ولا ينبغي أن يترك الأعراف إلى الأنكر . انتهى .

وقد صحح غير واحد ثبوتها . وبها قرأ ابن عامر وعاصم وحمة . واستشهد ابن هشام لها في (الغنى) فراجعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

[٦] (خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ)

[٧] (يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

[٨] (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)

[٩] (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)

[١٠] (فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ)

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

« فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ » جواب لمقدر . والفاء فصيحة .

أى : إن ارتاب مرتاب في كل نفس من الأنفس عليها رقيب ، فلينظر الخ .

قال الإمام : قوله (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ) بمنزلة الدليل على الدعوى المقسم عليها ، زيادة في التأكيد . ووجه ذلك أن الماء الدافق من المائع الذى لاتصوير فيه ولا تقدير للآلات التى يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء ونحوها . ثم إن هذا السائل ينشأ خلقاً كاملاً كالإنسان ، مملوءاً بالحياة والعقل والإدراك ، قادراً على القيام بخلافته فى الأرض . فهذا التصوير والتقدير وإنشاء الأعضاء والآلات البدنية ، وإبداع كل عضو من القوة ما به يتمكن من تأدية عمله فى البدن ، ثم منح قوة الإدراك والعقل ، كل هذا لا يمكن أن يكون بدون حافظ يراقب ذلك كله ويدبره ، وهو الله جل شأنه . ويجوز أن يكون قوله (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) من قبيل التفريع على ما ثبت فى القضية الأولى . كأنه يقول : فإذا عرفت أن كل نفس عليها رقيب ، فمن الواجب على الإنسان أن لا يهمل نفسه ، وأن يتفكر فى خلقه . وكيف كان ابتداء نشئه ليصل بذلك إلى أن الذى أنشأه أول مرة ، قادر على أن يعيده . فيأخذ نفسه بصالح الأعمال والأخلاق . ويعدل بها عن سبيل الشر . فإن عين الرقيب لا تنقل عنها فى حال من الأحوال . انتهى .

و (دَافِقٍ) من الدفق . وهو صب فيه دفع . وقد قيل إنه بمعنى مدفوق ، وإن اسم

الفاعل بمعنى المفعول . كما أن المفعول يكون بمعنى الفاعل ^(١) كـ (حِجَابًا مَسْتُورًا) .

والصحيح أنه بمعنى النسبة كـ (لابن وتامر) أى ذى دفق ، وهو صادق على الفاعل والمفعول . أو هو مجاز فى الإسناد . فأسند إلى الماء ما لصاحبه مبالغة . أو هو استعارة مكنية أو مصرحة بجعله دافقاً . لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق بعضه بعضاً أى يدفعه . أو دافق بمعنى منصب من غير تأويل ، كما نقل عن الليث . أقوال .

وقوله تعالى « يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ » أى من بين صلب الرجل ونحر المرأة .

(١) [١٧ / الإسراء / ٤٥] .

قال الإمام : الصلب هو كل عظم من الظهر فيه فقار . ويعبر عنه في كلام العامة بسلسلة الظهر . وقد يطلق بمعنى الظهر نفسه إطلاقاً لاسم الجزء على الكل و (الترائب) موضع القلادة من الصدر، وكفى بالصلب عن الرجل والترائب عن المرأة. أى أن ذلك الماء الدافق، إنما يكون مادة لخلق الإنسان، إذا خرج من بين الرجل والمرأة ووقع في المحل الذى جرت عادة الله أن يخلقه فيه ، وهو رحم المرأة . فقوله (يخرج) الخ وصف لا بد من ذكره لبيان أن الإنسان إنما خلق من الماء الدافق المستوفى شرائط صحة الخلق منه .

وقال بعض علماء الطب: الترائب جمع تريبة وهى عظام الصدر فى الذكر والأنثى . ويفلب استعمالها فى موضع القلادة من الأنثى ، ومنها قول امرئ القيس (١) :

* ترائبها مصقولة كالسجّنجل *

قال : ومعنى الآية أن المنى باعتبار أصله وهو الدم ، يخرج من شىء ممتد بين الصلب - أى فقرات الظهر فى الرجل - والترائب أى عظام صدره . وذلك الشىء الممتد بينهما هو الأهر (الأورطى) وهو أكبر شريان فى الجسم يخرج من القلب خلف الترائب ويعتد إلى آخر الصلب تقريباً . ومنه تخرج عدة شرايين عظيمة . ومنها شريانان طويلان يخرجان منه

(١) صدر البيت : * مهفهفةٌ بيضاء غيرُ مُفَاضَةٍ *

وقائله امرؤ القيس من معلقته التى مطلعها :

فَفَأَنْبِكَ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ يَسْقُطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

المهفهفة : اللطيفة الخصر ، الضامرة البطن .

المفاضة : المرأة العظيمة البطن المسترخية اللحم .

الترائب : جمع التريبة ، وهى مواضع القلادة من الصدر .

السقل والصقل (بالسين والصاد) : إزالة الصدأ والداس وغيرهما .

السجّنجل : المرأة . لغة رومية عربتها العرب ، وقيل بل هو قطع الذهب والفضة .

بعد شرياني السكيتين ، وينزلان إلى أسفل البطن حتى يصلا إلى الخصيتين ، فيغذيانهما .
ومن دمهما يتكون المني في الخصيتين ويسميان شرياني الخصيتين ، أو الشريانين المنويين
فلذا قال تعالى عن المني (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّدْبِ وَالتَّرَائِبِ) لأنه يخرج من مكان بينهما
وهو الأورطي أو الأبهري . وهذه الآية ، على هذا التفسير ، تعتبر من معجزات القرآن العلمية .
وهذا القول أوجه وأدق من التفسير الأول . انتهى .

وقوله تعالى : « إِنَّهُوَ » أي الحافظ سبحانه ، المتقدم في قوله (لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) أو
الخالق المفهوم من خلق « عَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ » أي رجوع الإنسان وإعادته في النشأة الثانية ،
لقادر . كما قدر على إبدائه في النشأة الأولى « يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ » أي تظهر وتعرف خفيات
الضائر .

قال الزمخشري : السرائر ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها ، وما أخفي من
الأعمال . وبلاؤها تعرفها وتصفحها ، والتميز بين ما طاب منها وما خبت « فَمَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ
وَلَا نَاصِرٍ » أي من قوة يتمتع بها من عذاب الله وأليم نكاله . ولا ناصر ينصره فيستنقذه
من ناله بمكروه . يعني أنه فقد ما كان يعهده في الدنيا إذ يرجع إلى قوة بنفسه أو بمشيرته ،
يتمتع منهم ممن أراده بسوء . وناصر حليف ينصره على من ظلمه واضطهده . ولم يبق له إلا
انتظار الجزاء على ما قدم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[١٢] (وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

[١٣] (إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ)

[١٤] (وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ)

[١٥] (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا)

[١٦] (وَأَكِيدُ كَيْدًا)

[١٧] (فَمَهْلِكِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلَهُمْ رُؤْيَدًا)

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ » أى المطر . يسمى رجماً لأنه تعالى يرجمه وقتاً فوقتاً إلى العباد ، ولولاه لهلكوا وهلكت مواشيهم « وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » أى النبات ، لأنه يصدع الأرض أى يشقها . أو الانشقاق بالنبات . فهو علم أو مصدر « إِنَّهُ » أى القرآن الكريم « لَقَوْلٍ فَضْلٌ » أى حق فارق بين الحق والباطل « وَمَا هُوَ بِأَلْهَزَلٍ » أى بالكلام الذى ليس له أصل فى الفطرة ولا معنى فى القلب ، بل هو جدّ الجدّ « إِنَّهُمْ » أى المكذبين به ، الجاحدين لحقه « يَكِيدُونَ كَيْدًا » أى يمحرون مكرراً لإبطال أمر الله وإطفاء نوره « وَأَكِيدُ كَيْدًا » قال ابن جرير^(١) أى وأمكر مكرراً . ومكره جل ثناؤه بهم إملاؤه إياهم على معصيتهم وكفرهم به . يعنى أن الكيد هنا استعارة تبعية أو تمثيلية . بتشبيه إمهال الله لهم ليستدرجهم ، بالكيد . وبهذا يظهر تفریع أمره بإمهالهم فى قوله « فَمَهْلِكِ الْكَافِرِينَ » أى لاتستهجل عقابهم . وقوله « أَمْهَلَهُمْ » بمعنى (مهلمهم) فهو بدل منه للتأكييد . أو تكرير بلفظ آخر للتأكييد . وقوله « رُؤْيَدًا » أى قليلاً .

قال الإمام : وفى ذلك وعيد شديد لهم بأن ما يصيبهم قريب ، سواء كان فى الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت . ثم فيه الوعد للنبي ﷺ بل لكل داع إلى الحق الذى جاء به ، أنه سيلبغ من النجاح ما يستحقه عمله ، وأن المناوئين له هم الخاسرون .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٧ - سُورَةُ الْأَعْلَى

مكية وآيها تسع عشرة: قال ابن كثير: والدليل على أنها مكية ما رواه البخاري^(١) عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم. فجعلنا يُقرئنا القرآن. ثم جاء عمار وبلال وسعد. ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين. ثم جاء النبي ﷺ. فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به. حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء. فما جاء حتى قرأت سبح اسم ربك الأعلى، في سور مثلها. وعن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» تفرد به الإمام أحمد^(٢)، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى. وعن النعمان ابن بشير^(٣) أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى، وهل أتاك حديث الغاشية. وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأها. رواه مسلم وأهل السنن. وعن عائشة أن النبي ﷺ كان يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد والمعوذتين.

(١) أخرجه في: ٦٥ - كتاب التفسير، ٨٧ - سورة الأعلى، ١ - حدثنا عبدان، حديث رقم ١٨٣١. (٢) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ٩٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٧٤٢ (طبعة المعارف). (٣) أخرجه مسلم في: ٧ - كتاب الجمعة، حديث رقم ٦٢ (طبعنا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

[٢] (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ)

[٣] (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ)

[٤] (وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ)

[٥] (فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ)

« سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » أى نزه ربك عما يصفه به المشركون من الولد والشريك ونحوها، كقوله^(١) (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) فالاسم صلة . وسرُّ إرادته أن المنزه به إذا كان في غاية العظمة ، كثيراً ما تضاف ألقاب التفضيم إلى اسمه ، فيقال : سبح اسمه ومجد ذكره . كما يقال سلام على المجلس العالى . هذا ما ذكره . وثمة وجه آخر وهو أن الحق تعالى إنما يعرف بأسمائه الحسنى ، لاستحالة اكتناه ذاته العلية ، فأقبح تنبها على ذلك . ومما يؤيده ما ذكر من الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة أنهم كانوا إذا قرأوا ذلك قالوا : سبحان ربى الأعلى ، كما رواه ابن جرير^(٢) وغيره .

وذهب بعضهم إلى أن المراد تنزيه اسم الله وتقديسه أن يسمى به شيء سواه ، كما كان يفعل المشركون من تسميتهم آلهتهم ، بعضها اللات وبعضها العزى ، حكاه ابن جرير^(٢) فالإسناد على ظاهره ، وهذا ما اعتمده الإمام ابن حزم في (الفصل) حيث رد على من استدل بهذه الآية

(١) [٣٧ / الصفات / ١٨٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

في أن الاسم عين المسمى ، ذهاباً إلى أن من الممتنع أن يأمر الله عز وجل بأن يسبح غيره .
فقال ابن حزم رحمه الله :

وأما قوله تعالى (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) فهو على ظاهره دون تأويل . لأن التسبيح في اللغة التي بها نزل القرآن وبها خاطبنا الله عز وجل ، هو تنزيه الشيء عن السوء . وبلاشك أن الله تعالى أمرنا أن ننزه اسمه ، الذي هو كلمة مجموعة من حروف الهجاء ، عن كل سوء حيث كان من كتاب أو منطوقاً به ، ووجه آخر وهو أن معنى قوله تعالى (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) ومعنى قوله تعالى ^(١) (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) معنى واحد . وهو أن يسبح الله تعالى باسمه . ولا سبيل إلى تسبيحه تعالى ، ولا إلى دعائه ولا إلى ذكره إلا بتوسط اسمه . فكلا الوجهين صحيح . وتسبيح الله تعالى وتسبيح اسمه كل ذلك واجب بالنص . ولا فرق بين قوله تعالى (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) وبين قوله ^(٢) (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) . والحمد بلاشك هو غير الله . وهو تعالى يسبح بحمده كما يسبح باسمه ، ولا فرق . فبطلت عليهم بهذه الآية . انتهى كلامه .

وقد يقال فرق بين الآيتين . فإن الباء في (بحمد ربك) للملابسة ، ولا كذلك هي في (باسم ربك) ومع اتساع اللفظ الكريم للأوجه كلها ، فالأظهر هو الأول لما أيده من الأخبار ، ولاية (فَسَبِّحْهُ) وآية (سُبْحَانَ رَبِّكَ) والله أعلم .
و (الأعلى) هو الأرفع من كل شيء ، قدرة وملكاً وسلطاناً . واستدل السلف بظاهره في إثبات علو بلا تكليف . والمسألة معروفة .

« الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى » قال الزمخشري : أى خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية ، ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ، ولكن على إحكام واتساق ، ودلالة على أنه صادر عن عالم ، وإنه

(١) [٥٦ / الواقعة / ٩٦ و ٩٥] . (٢) [٥٢ / الطور / ٤٨ و ٤٩] .

صنعة حكيم . « وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ » أى قدر لسكل حيوان ما يصلحه ، فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به « وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ » أى أخرج من الأرض مرعى الأنعام من صنوف النبات « فَجَعَلَهُمْ » أى بعد خضرته ونضرته « غُشَاءً » أى جافاً يابساً تطير به الريح « أَحْوَىٰ » أى أسود ، صفة مؤكدة (لفتاء) لأن النبات إذا يبس تغير إلى (الحوّة) وهى السواد . قال ابن جرير^(١) : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر الذى معناه التقديم ، وأن معنى الكلام : والذى أخرج المرعى أحوى أى أخضر إلى السواد فجعله غشاء بعد ذلك . وهذا القول وإن كان غير مدفوع ، أن يكون ما اشتدت خضرته من النبات ، قد تسميه العرب أسود ، غير صواب عندى بخلاف تأويل أهل التأويل فى أن الحرف إنما يحتال لمعناه المخرج بالتقديم والتأخير إذا لم يكن له وجه مفهوم إلا بتقدمه عن موضعه أو تأخيره . فأما وله فى موضعه وجه صحيح ، فلا وجه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير . انتهى . والقول المذكور هو للفراء وأبى عبيدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنسَىٰ)

[٧] (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ)

[٨] (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ)

[٩] (فَذَكَرْكَ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ)

[١٠] (سَيَذَكِّرُكَ مَنْ يُخَشَىٰ)

[١١] (وَيَتَجَبَّبُهَا الْأَشْقَىٰ)

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

[١٢] (الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ)

[١٣] (ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ)

« سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَىٰ » أى سنجعلك قارئاً ، بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ماتقرؤه .
والمعنى نجعلك قارئاً للقرآن فلا تنساه .

قال الزمخشريّ : بشره الله بإعطاء آية بينة ، وهى أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي ، وهو أى لا يكتب ولا يقرأ ، فيحفظه ولا ينساه .

تنبيهات :

الأول : قال الرازىّ : هذه آية تدل على المعجزة من وجهين :
أحدهما - إنه كان رجلاً أميناً حفظه لهذا الكتاب المطول عن غير دراسة ولا تكرار
ولا كتابة ، خارق للعادة ، فيكون معجزاً .

وثانيهما - إن هذه السورة من أوائل منازل مكة . فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب يخالف
للعادة سيقع في المستقبل ، وقد وقع ، فكان هذا إخباراً عن الغيب ، فيكون معجزاً .
الثانى - قيل (لا تنسى) نهى والألف للإطلاق فى الفاصلة وهو جائز مثل (السبيلاً)^(١)
والمعنى لا تغفل قراءته وتكثيره فتنساه . فالنهى عنه مجاز عن ترك أسبابه الاختيارية .

قال الرازىّ : والقول المشهور إن هذا خبر . والمعنى سنقرئك إلى أن تصير بحيث لا تنسى
وتأمن النسيان . كقولك (سأ كسوك فلا تمرى) أى فتأمن العرى ، قال : واحتج أصحاب هذا القول
على ضعف القول الأول بأن ذلك القول لا يتم إلا عند التزام مجازات فى هذه الآية . منها أن
النسيان لا يقدر عليه إلا الله تعالى فلا يصح ورود الأمر والنهى به . فلا بد وأن يحمل ذلك
على المواظبة على الأشياء التى تنافى النسيان . مثل الدراسة وكثرة التذكر . وكل ذلك عدول
عن ظاهر اللفظ .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٧] .

ومنها أن نجعل الألف مزيدة للفاصلة وهو أيضا خلاف الأصل .

ومنها أنا إذا جعلناه خبرا كان معنى الآية بشارة الله إياه بأنى أجملك بحيث لا تنساه .
وإذا جعلناه نهياً كان معناه أن الله أمره بأن يواظب على الأسباب المانعة من النسيان وهي
الدراسة والقراءة . وهذا ليس في البشارة وتمظيم حاله مثل الأول . ولأنه على خلاف قوله (١)

(لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمَجِّلَ بِهِ) انتهى .

الثالث : قال البرهان الشافعي في كتاب (تفضيل السلف على الخلف) .

إن بعضهم ذكر أن هذه الآية ناسخة لآية (وَلَا تَمَجِّلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ
إِلَيْكَ وَحْيُهُ) وتحقيق معنى النسخ هنا في غاية الإشكال ، لأن قوله (وَلَا تَمَجِّلْ) نهى عن
العجلة ، وقوله (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى) ليس بأمر بها ليكون ناسخاً للذي نهى عنها . بل هو خبر
عن بقاء الحفظ بعد إقرائه .

وفجواه مؤكداً لمعنى الخطاب الآخر . لأن تأويله إنا نحفظك تحفيظاً لا تخاف معه
النسيان . فلا حاجة لك إلى أن تعجل بالقرآن وتحرك به لسانك . ولكنهم سموه نسخاً ، لغة
لاحتمية ، على معنى تبدل الحال عنده . فإنه ظهر له الأمن عن النسيان بعد خوفه أن ينساه لما
كان يحرك به لسانه . انتهى .

وقوله تعالى « إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » استثناء مفرغ من أعم المفاعيل . أى لا تنسى مما تقرؤه
شيئاً من الأشياء ، إلا ما شاء الله أن تنساه ، مما تقتضيه الجملة البشرية أحياناً .

قال الزجاج : إلا ما شاء الله أن ينسى فإنه ينسى . ثم يتذكر بعد ذلك ولا ينسى نسياناً
كلياً دائماً . وذلك لأن ما بالجملة لا يتغير . وإلا لسكان الإنسان عالماً آخر .

وقد روى البخاري (٢) عن عائشة أن النبي ﷺ قال : رحم الله فلاناً . لقد أذكرني كذا
وكذا آية ، كنت أسقطهن . وروى أنسبن .

(١) [٧٥ / القيامة / ١٦] . (٢) أخرجه في : ٥٢ - كتاب الشهادات ،

١١ - باب شهادة الأعمى ، حديث رقم ١٢٩٢

وقال عليه السلام : إنا أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني. رواه الشيخان (١) عن ابن مسعود .

وقيل : الاستثناء مجازي بمعنى القلة المراد بها النفي، وذلك أن المخرج في الاستثناء أقل من الباقي . ولأن (ماشاء الله) في العرف يستعمل للمجهول . فكأنه قيل : إلا أمراً نادراً لا يعلم . فإذا دل مثله على القلة عرفاً ، والقلة قد يراد بها النفي في نحو (قل من يقول كذا مجازاً) أريد بالاستثناء هنا ذلك . وهذا ما أشار إليه الزخشمي بقوله : (أو قال إلا ماشاء الله) والغرض نفي النسيان رأساً، كما يقول الرجل لصاحبه (أنت سهمي فيما أملك إلا فيما شاء الله) ولا يقصد استثناء شيء . وهو من استعمال القلة في معنى النفي .

وقال الفراء - فيما نقله الرازي - : إنه تعالى ماشاء أن ينسى محمدًا عليه السلام شيئاً، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسياً لقدر عليه، كما قال (٢) (وَلَيْنَ شَيْئاً لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) ثم إنا تقطع بأنه تعالى ماشاء ذلك . وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه ، لا من قوته . انتهى .

« إِنَّهُ وَيَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى » أي ما يجهر به عباده وما يخفونه من الأقوال والأفعال . وهو تعليل لقوله (سَفْقِرْتُكَ) مبين لحكمته ، وهو سبق علمه تعالى بحاجة البشر إلى إقرائه الوحي وإخراجهم به من الظلمات إلى النور .

ثم أشار إلى أن هذا المقرراً الموحى به للعمل . ليس فيه حرج وعسر، بقوله تعالى « وَنُنَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى » أي نوفقك للطريقة اليسرى ، أي الشريعة السمحة السهلة ، التي هي أيسر

(١) أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة، ٣١ - باب التوجه نحو القبلة حيث كان

حديث رقم ٢٦٦

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٨٩ (طبعنا)

(٣) [١٧ / الإسرائاء / ٨٦] .

الشرائع وأوفقها بحاجة البشر مدى الدهر «فَذَكَّرْ» أى عبادة الله عظمته، وعظهم وحذرهم عقوبته «إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى» أى الموعظة. و(إِنْ) إما بمعنى (إِذْ) كقوله تعالى (١) «وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» أو بمعنى (قَدْ) على ما قاله ابن خالويه . ويؤيده قوله تعالى (٢) «وَذَكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» وقيل: (إِنْ) شرطية. والمعنى ذم المذكرين واستبعاد تأثير الذكرى فيهم، تسجيلا بالطبع على قلوبهم كالتقول للواعظ: (عظ المسكسين إن سمعوا منك) قاصدا بهذا الشرط استبعاد ذلك، وأنه لن يكون «سَيِّدًا كَرًّا» أى يقبل التذكرة وينتفع بها «مَنْ يَخْشَى» أى يخاف العقاب على الجحود والعناد، بعد ظهور الدليل «وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى* الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى» أى العظمى ألما وعذاباً «ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى» أى لا يهلك فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه. قيل: إن العرب كانت إذا وصفت الرجل بوقوع في شدة شديدة قالوا (لا هو حي ولا ميت) فجاء على مألوفهم في كلامهم . و (ثم) هنا للتفاوت الرتبى ، إشارة إلى أن خلوده أفضح من دخوله النار ، وصلية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى»

[١٥] «وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى»

[١٦] «بَلْ تُوذُّوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا»

[١٧] «وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى»

[١٨] «إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى»

[١٩] «صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى»

«قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى» أى فاز وظفر من تطهر من دنس الشرك والمعاصي ، وعمل

(١) [٣ / آل عمران / ١٣٩] . (٢) [٥١ / الذاريات / ٥٥] .

بما أمره الله به «وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى» أى تذكر جلال ربه وعظمته، فخشع وأشفق وقام بحاله وعليه ، كقوله تعالى (١) (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ) وجوز أن يحمل (تَزَكَّى) على إيتاء الزكاة (وصلى) على إقامة الصلاة، كآية (٢) (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) لما عهد في كلامه تعالى من الجمع بينهما في عدة آيات، لأنهما مبدأ كل خير وعنوان السعادة . لكن قيل عليه، بأن المعهود في التنزيل الكريم تقديم الصلاة. وأجيب بأنه لا ضير في مخالفة العادة، مع أن الجارى تقديمها إذا ذكرت باسمها. أما إذا ذكرت بفعل مأخوذ منها، فلا . كقوله (٣) (فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى) والأول أظهر، لأنه أشمل وأعم . وهو أكثر فائدة . « بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » قال أبو السعود : إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام . كأنه قيل، إثر بيان ما يؤدى إلى الفلاح : لانفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات العاجلة الفانية فتسعون لتحصيلها . والخطاب إما للكفرة ، فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا والاطمئنان بها ، والإعراض عن الآخرة بالسكينة، كفى قوله تعالى (٤) (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا) الآية . أو للسلك ، فالمراد بإيثارها ما هو أهم مما ذكر ، وما لا يخلو عنه الإنسان غالبا من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة ، فى السعى وترتيب المبادئ . والاتفات على الأول لشديد التوبيخ . وعلى الثانى كذلك فى حق الكفرة ، وتشديد العتاب فى حق المسلمين . وقرئ (يؤثرون) بالياء «وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى» أى أفضل ، لخلوصها عما يكدر . وأدوم لعدم انصرام نعيمها . والجملة حال من فاعل (تؤثرون) مؤكدة للتوبيخ والعتاب «إِنَّ هَذَا» أى ما ذكر فى قوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) أو ما فى السورة كلها «لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى» أى ثابت فيها معناه «صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى» بدل من (الصحف الأولى) وفى إبهامها ووصفها بالقدم ، ثم بيانها وتفسيرها ، من تفخيم شأنها ، ما لا يخفى .

(١) [٨ / الأنفال / ٢] .

(٢) [٢٠ / طه / ١٤] .

(٣) [٧٥ / القيامة / ٣١] .

(٤) [١٠ / يونس / ٧] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٨ - سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

مكية . وآياتها ست وعشرون . وقد تقدم حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ (سبح اسم ربك الأعلى والغاشية) في صلاة العيد ويوم الجمعة . وروى الإمام مالك^(١) أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير : بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : هل أتاك حديث الغاشية (رواه مسلم^(٢) وأبو داود وغيرها) .

(١) أخرجه في الموطأ في : ٥ - كتاب العمل في غسل يوم الجمعة ، حديث رقم ١٩ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٢ (طبعنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

[٢] (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ)

[٣] (عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ)

[٤] (تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً)

[٥] (تَسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ إِينِيَّةٍ)

[٦] (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ)

[٧] (لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)

[٨] (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ)

[٩] (لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ)

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ » أى خبرها وقصتها ، وهى القيامة . وأصل الفاشية الداهية التى تغشى الناس بشدائنها . والاستفهام للتعظيم والتعجب مما فى حيزه ، مع تقريره « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ » أى ذليلة . وهى وجوه أهل الكفر بالحق والجهود له . والمراد بالوجوه الذوات « عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ » قال القاشانى : أى تعمل دائماً أعمالاً صعبة تتعب فيها ، كالمهوى فى دركات النار ، والارتقاء فى عقباتها ، وحمل مشاق الصور والهيات المتعبة المثقلة ، من آثار أعمالها . أو عاملة من استعمال الزبانية إياها فى أعمال شاقة فادحة من جنس أعمالها التى ضريت بها فى الدنيا ، وأتعبها فيها من غير مفعة لهم منها إلا التعب والعذاب .

وجوز أن يكون (عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ) إشارة إلى عملهم في الدنيا . أى عملت ونصبت في أعمال لا تجدى عليها في الآخرة . فيكون بمنزلة حابطة أعمالها . أو جعلت أعمالها هباءً منثوراً كما يدل عليه آيات أخر، ويؤيده مقابلة هذه الآية ، لقوله في أهل الجنة (لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ) وذلك السعى هو الذى كان في الدنيا . والله أعلم . «تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً» أى تدخل ناراً متناهية في الحرارة . قال القاشانى : أى مؤذية مؤلمة بحسب ما تراولها في الدنيا من الأعمال «تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ» أى بلغت غايتها في شدة الحر «لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ» وهو من جنس الشوك ، ترعاه الإبل ما دام رطباً . فإذا يبس تحامته ، وهو سم قاتل . قال ابن جرير^(٢) : الضريع عند العرب نبت يقال له الشبرق ، وتسميه أهل الحجاز الضريع ، إذا يبس . ولا منافاة بين هذه الآية وآية^(٣) (وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ) لأن العذاب ألوان ، والمعذبون طبقات ، فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع . وقيل الضريع مجاز أو كناية ، أريد به طعام مكروه حتى للإبل التى تلتذ برعى الشوك ، فلا ينافى كونه زقوماً أو غسلينا «لَا يُسْعِنُ» أى لا يخلص البدن «وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ» أى لا يسكن داعية النفس ولا نهىها من أجله «وَجُوعٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ» أى ذات حسن ، على أنه من النعمة ، كناية عن حسن النظر . أو ناعمة بمعنى متنعمة ، على أنه من النعيم «لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ» أى عملها الذى عملته في الدنيا ، وجدّها في طريق البر واكتساب الفضائل ، شاكراً لا تقدم ولا تتحسر .

(١) [٨٨ / الفاشية / ٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٦١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٦٩ / الحاقة / ٣٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

[١١] (لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً)

[١٢] (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ)

[١٣] (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ)

[١٤] (وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ)

[١٥] (وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ)

[١٦] (وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ)

« فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ » أى مرتفعة المحل . أو رفيعة القدر ، من علو المكانة .
 « لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً » أى لغواً ، أو كلمة ذات لغو ، أو نفساً تلغو . لأن كلامهم
 الحكمة والعلوم والتسبيح والتحميد « فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ » أى لا انقطاع لها « فِيهَا سُرُرٌ
 مَّرْفُوعَةٌ » أى مرتفعة ليروا ، إذا جلسوا عليها ، جميع ماخولوه من النعيم والملك
 « وَأَكْوَابٌ » جمع كوب ، وهو إناء لا أذن له « مَوْضُوعَةٌ » أى بين أيديهم لا يعوزهم تفقدتها
 « وَنَمَارِقُ » أى وسائد « مَصْفُوفَةٌ » أى فوق الأسرة أو في جوانب المساكن للاستناد إليها
 « وَزَرَابِيُّ » أى بسط « مَبْثُوثَةٌ » أى مفروشة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

[١٨] (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

[١٩] (وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ)

[٢٠] (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

« أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » قال أبو السعود : استئناف مسوق لتقرير ما فصل من حديث الفاشية ، وما هو مبنى عليه من البعث الذي هم فيه مختلفون ، بالاستشهاد عليه بما لا يستطيعون إنكاره . والهمزة للإنكار والتوبيخ . والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام . وكلمة (كيف) منصوبة بما بعدها ، معلقة لفعل النظر . والجملة في حيز الجر على أنها بدل احتمال من (الإبل) أى أينكرون ما ذكر من البعث وأحكامه ، ويستبعدون وقوعه من قدرة الله عز وجل ، فلا ينظرون إلى الإبل التى هى نصب أعينهم يستعملونها كل حين ، إلى أنها كيف خلقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سنن خلقه سائر أنواع الحيوانات ، فى عظم جثتها وشدة قوتها وعجيب هيئتها اللائقة بتأتى ما يصدر عنها من الأفاعيل الشاقة ، كانوا بالأوقار الثميلة وجر الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة . وفى صبرها على الجوع والعطش ، حتى أن أظماءها لتبلغ العشر فصاعداً . واكتفائها باليسير ، ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك ، مما لا يكاد يراه سائر البهائم . وفى انقيادها مع ذلك للإنسان فى الحركة والسكون والبروك والنهوض ، حيث يستعملها فى ذلك كيفية يشاء ، ويقتادها بقطارها كل صغير وكبير « وَإِلَى السَّمَاءِ » التى يشاهدونها كل لحظة بالليل والنهار « كَيْفَ رُفِعَتْ » أى رفعت كواكبها رفعاً سحيق المدى ، وأمسك كل منها فى مداره إمساكاً لا يختل سيره ولا يفسد نظامه « وَإِلَى الْجِبَالِ » أى التى ينزلون فى أقطارها « كَيْفَ نُصِبَتْ » أى أقيمت منتصبه لا تبرح مكانها ، حفظاً للأرض من الميدان « وَإِلَى الْأَرْضِ » أى التى يضرّبون فيها ويتقلبون عليها « كَيْفَ سُطِحَتْ » أى بسطت ومهدت ، حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق .

قال الزمخشري : والمعنى أفلا ينظرون إلى هذه الخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق ، حتى لا ينكروا اقتداره على البعث ، فيسمعوا إنذار الرسول ﷺ ويؤمنوا به ويستعدوا للقائه .
لطيفة :

ذكر السكاكي فى (المفتاح) فى بحث الجامع الخيالى : أن جمعه على مجرى الإلف والعادة

بحسب ما تنعقد الأسباب في استبعاد الصور خزائنة الخيال . وأنه إذا لم يوفه حقه من التيقظ وأنه من أهل المدر ، أنى يستحلى كلام رب العزة مع أهل الوب ، حيث يبصرهم الدلائل ناسقاً ذلك النسق (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) الآيات ، لبعده البعير عن خياله في مقام النظر ، ثم لبعده في خياله عن السماء ، وبعد خلقه عن رفعها . وكذا البواقي . لكن إذا وفاه حقه بتيقظه لما عليه تقلبهم في حاجتهم ، جاء الاستحلاء . وذلك إذا نظر أن أهل الوب ، إذا كان مطعمهم ومشربهم وملبسهم من المواشى ، كانت عنايتهم مصروفة لاحتالة إلى أكثرها نفعاً ، وهى الإبل . ثم إذا كان انتفاعهم بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب ، كان جلّ مرمى غرضهم زول المطر ، وأهم مسارح النظر عندهم السماء ، ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يؤويهم وإلى حصن يتحصنون فيه ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال .

(١) لنا جبلٌ يحمله من نجيدهُ منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليلٌ

فما ظنك بالتفات خاطرهم إليها ؟ ثم إذا تعذر طول مكثهم في منزل - ومن لأصحاب مواشٍ بذاك - كان عقد المهمة عندهم بالتنقل من أرض إلى سواها من عزم الأمور . فعند نظره هذا ، أرى البدوى إذا أخذ يفتش عما في خزائنة الصور له ، لا يجد صورة الإبل حاضرة هناك ، أو لا يجد صورة السماء لها مقارنة ، أو تعوزه صورة الجبال بعدها ، أو لا تنص إليه صورة الأرض تليها بمدن ؟ لا . وإنما الحضرى ، حيث لم تتأخذ عنده تلك الأمور ، وما جمع خياله تلك الصور على ذلك الوجه وإذا تلا الآية قبل أن يقف على ما ذكرت ، ظن النسق بجهله معيها ، للمعيب فيه . انتهى .

(١) فائله السموءل من قصيدته التى مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكلُّ رداء يرتديه جميلٌ

نجيره : نجميه . منيع : حصين . الطرف : البصر . كليل : تعب قاصر النظر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ

[٢٢] لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ

[٢٣] إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ

[٢٤] فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ

[٢٥] إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ

[٢٦] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ

« فَذَكِّرْ » أى من أرسلت إليه بآياته تعالى ، التى تسوق إلى الإيمان بخالقها الفطرة
 « إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ » أى مبلغ ما نسى من أمره تعالى « لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ » أى
 بمتسلط تقهرهم على الإيمان . وقرئ بالصاد على إبدالها من السين « إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ *
 فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ » وهو عذاب جهنم . والاستثناء منقطع . أى لكن
 من تولى وكفر ، فإن لله الولاية والقهر ، فهو يعذبه العذاب الأكبر على جحده الحق
 « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ » أى رجوعهم ومعادهم بالموت والبعث . والجملة تعليل لتعذيبه تعالى
 بالعذاب الأكبر . وجمع الضمير فيه وفيما بعده ، باعتبار معنى (مَنْ) كما أن إفراده قبل
 باعتبار لفظها « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ » أى فنجازيهم بالعذاب الأكبر . فإن القهر والغلبة
 له تعالى وحده .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٩ - سُورَةُ الْفَجْرِ

مكية . وآيها تسع عشرة روى النسائي^(١) عن جابر قال : صلى معاذ صلاة . فجاء رجل فصلى معه ، فطول . فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف . فبلغ ذلك معاذ ، فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل النبي فقال : يا رسول الله ! حيث أصلى معه يطول عليّ . فانصرفت وصليت في ناحية المسجد فعلقت ناقه ، فقال رسول الله ﷺ : أفتانا يا معاذ ؟ أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والفجر والليل إذا يغشى ؟

(١) أخرجه في : ١١ - كتاب الافتتاح ، ٦٣ - باب القراءة في المغرب بسبح اسم ربك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالْفَجْرِ)

[٢] (وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

[٣] (وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)

[٤] (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ)

[٥] (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ)

« وَالْفَجْرِ » أى الصبح كقوله تعالى^(١) (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) أقسم تعالى بآيته ، لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضوء وانتشار الناس وسائر الحيوانات ، طلب الأرزاق . وذلك مشاكل لنشور الموتى من قبورهم . وفيه عبرة لمن تأمل « وَلَيَالٍ عَشْرٍ » هى ، على قول ابن عباس ومجاهد ، عشر ذى الحجة ، لأنها أيام الاهتمام بنسك الحج . وفي البخارى^(٢) عن ابن عباس مرفوعاً : ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام . يعنى عشر ذى الحجة .

وحكى ابن جرير^(٣) أنه قيل عنى بها عشر المحرم . والرازى ، قولاً أنها العشر الأواخر من رمضان ، لما فيه من ليلة القدر ، ولما صح^(٤) أنه صلوات الله عليه كان إذا دخل العشر الأخير [(١) / ٨١ / التكوير / ١٨] . (٢) أخرجه الترمذى فى : ٦ - كتاب الصوم ،

٥٢ - باب ما جاء فى العمل فى أيام العشر ، حديث رقم ٧٥٧ .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء الثلاثين ، (طبعة الحلبي الثانية) .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٣٢ - كتاب فضل ليلة القدر ، ٥ باب العمل فى العشر

الأواخر من رمضان ، حديث رقم ١٠٢٧ ، عن عائشة .

من رمضان شدّ مئزره وأحيى ليله وأيقظ أهله . وثمة وجه آخر في العشر . وهو أنها الليالي التي يحلو لك فيها الليل ويشتد ظلامه ويفشى الأفق سواده . وتلك خمس من أوائله وخمس من أواخره . وإن لفظة (عَشْرٍ) بمثابة قوله في السور الأنبيسة (إِذَا يَفْشَى) (إِذَا سَجَى) مما يبين وجه العبرة ويجليها أتم الجلاء ، ولا بعد في هذا المعنى . بل فيه توافق لبقية الآيات . وبالجملة فأوضح المخصصات ما عضده دليل أو أيده قرينة أو حاكي نظائره . والله أعلم .

« وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ » يعنى الخلق والخالق . فالشفع بمعنى جميع الخلق ، للازدواج فيه كما في قوله تعالى (١) (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لِمَلَّكُمْ تَذَكُّرُونَ) . قال مجاهد : كل خلق الله شفيع . السماء والأرض . البر والبحر . الجن والإنس . والشمس والقمر . والكفر والإيمان . والسعادة والشقاوة . والهدى والضلالة . والليل والنهار .

(وَالْوَتْرِ) هو الله تعالى لأنه من أسمائه . وهو بمعنى الواحد الأحد . فأقسم الله بذاته وخلقته . وقيل : المعنى بالشفع والوتر ، جميع الموجودات من الذوات والمعاني . لأنها لا تخلو من شفيع ووتر .

قال القاضي : ومن فسرها بالبروج والسيارات أو شفيع الصلوات ووترها أو بيومي النحر وعرفة ، فلعله أفرد بالذكر من أنواع المدلول ، مارآه أظهر دلالة على التوحيد ، أو مدخلاً في الدين ، أو مناسبة لما قبلهما .

قال ابن جرير (٢) : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفيع والوتر ، ولم يخص نوعاً من الشفع ولا من الوتر ، دون نوع ، بخبر ولا عقل ، وكل شفيع ووتر ، فهو مما أقسم به . مما قال أهل التأويل أنه داخل في قسمه هذا ، لعدم قسمه بذلك .

وقد قرئ (الوتر) بفتح الواو وكسرها . وهما لغتان .

(١) [٥١ / الذاريات / ٤٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ » أى إذا يَمْضَى ، كقوله^(١) (وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ) والتقييد بذلك لما فى التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة . فى الليل الراحة التى هى من أعظم النعم . وفى النهار المكاسب وغيرها . وحذف الياء للتخفيف ولتوافق رؤوس الآى . ومن القراء من حذفها وصلا ووقفا . ومنهم من خصه بأحدها ، كما فصل فى كتب الأداء . « هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ » قال ابن جرير^(٢) : أى هل فيها أقسمت به من هذه الأمور مقنع لذي حجر . وإنما عني بذلك : أن فى هذا القسم مكنتى لمن عقل عن ربه ، مما هو أغلظ منه فى الأقسام .

وقال الرازى : المراد من الاستفهام التأكيد . كمن ذكر حجة باهرة ثم قال : هل فيما ذكرته حجة ؟ والمعنى أن من كان ذائب علم أن ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية . فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه . أى على طريقة قوله تعالى^(٣) (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) وإنما أوثرت هذه الطريقة هضمًا للخلق ، وإيدانًا بظهور الأمر . و (الحجر) العقل . لأنه يحجر صاحبه ، أى يمنعه من ارتكاب ما لا ينبغى . والمقسم عليه محذوف . وهو (ليعذبن) كما ينبىء عنه قوله تعالى :
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)

[٧] (إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ)

[٨] (الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ)

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ » أى ألم تعلم علماً يقينياً كيف عذب ربك عاداً ،

(١) [٧٤ / المدثر / ٣٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٥٦ / الواقعة / ٧٦] .

فيمذب هؤلاء أيضا ، لا اشتراكهم فيما يوجبهم من جحود الحق والمعاصي . و (عَادٍ) قبيلة من العرب البائدة . وتلقب بإرم أيضا . وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودًا عليه السلام . فكذبوه فأهلكهم بريح صرصر عاتية . فقوله تعالى «إِرمَ» عطف بيان لعاد «ذَاتِ الْعِمَادِ» أى ذات الخيام المعمدة ؛ لأنهم كانوا أهل عمد ينتجعون العيوث وينتقلون إلى السكلا حيث كان . ثم يرجعون إلى منازلهم فى الأحقاف فى حضرموت . وقيل : كنى بالعماد عن العلو والشرف والقوة . إلا أن الأشبه - كما قال ابن جرير^(١) - بظاهر التنزيل هو الأول . وهو أنهم كانوا أهل عمد سيطرة . لأن المعروف فى كلام العرب من العماد ، مأمعد به الخيام من الخشب والسوارى التى يحمل عليها البناء . ثم قال : وتأويل القرآن إنما يوجه إلى الأغلب الأشهر من معانيه ، ما وجد إلى ذلك سبيل ، دون الأنسك . « أَلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلَهَا فِى الْبَلَدِ » أى فى العظم والبطش والأيدى .

قال ابن كثير : كانوا أشد الناس فى زمانهم خلقة وأقواهم بطشًا . ولهذا ذكروهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها فى طاعة ربهم الذى خلقهم . فقال^(٢) (وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَصْطَةً ، فَأَذْكُرُوا لِعَلِّكُمْ اللَّهُ لِعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ) وقال تعالى^(٣) (فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) .

تنبية :

قال الإمام الدرّاكه ابن خلدون فى (مقدمة) تاريخه فى سياق الأخبار الواهية للمؤرخين مامثاله : وأبعد من ذلك وأعرق فى الوهم ما يتناقله المفسرون فى تفسير سورة (والفجر) فى

(١) انظر الصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٧ / الأعراف / ٦٩] . (٣) [٤١ / فصلت / ١٥] .

قوله تعالى (إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) فيجملون لفظه (إِرَمَ) اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أى أساطين، وينقلون أنه كان لعماد بن عوص بن إرم ابنان . هما شديد وشداد . ملكا من بعده . وهلك شديد فخلص الملك لشداد . ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لأبنين مثلها . فبنى مدينة (إرم) في صحارى عدن في مدة ثمانمائة سنة . وكان عمره تسعمائة سنة . وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت . وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة . ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته . حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم . ذكر ذلك الطبرى والثعالبي والزحشرى وغيرهم من المفسرين . وينقلون عن عبدالله بن قلابه ، من الصحابة ، أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه . وبلغ خبره إلى معاوية فأحضره وقص عليه . فيبحث عن كعب الأخبار وسأله عن ذلك فقال : هي (إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب إبل له . ثم التفت فأبصر ابن قلابه فقال : هذا ، والله ، ذاك الرجل .

قال ابن خلدون : وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض . وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقبا . والأدلاء تقص طرقه من كل وجه . ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الأخباريين ولا من الأمم ، ولو قالوا إنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه . إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة . وبعضهم يقول إنها دمشق ، بناء على أن قوم عاد ملكوها . وقد انتهى الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة ، وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر . مزاعم كلها أشبه بالخرافات . والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظه (ذات العماد) أنها صفة (إرم) وحاولوا العماد على الأساطين . فتمين أن يكون بناء . وشرح لهم ذلك قراءة ابن الزبير (عاد إرم) على الإضافة من غير تنوين . ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه

بالأفانصيص الموضوعة التي هي أقرب إلى الكذب المنقولة في عداد المضحكات . وإلا فالعماد هي عماد الأخبية بل الخيام . وإن أريد بها الأساطين ، فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم . بما اشتهر من قوتهم . لأنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها . وإن أضيفت ، كما في قراءة ابن الزبير ، على إضافة الفصيصة إلى القبيلة ، كما تقول : قريش كنانة . وإلياس مضر ، وربيعة نزار . وأي ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة ؟ انتهى . وسبقه الحافظ ابن كثير في تفسيره حيث قال : ومن زعم أن المراد بقوله (إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) مدينة إما دمشق أو إسكندرية ، ففيه نظر . فإنه كيف ياتم الكلام على هذا ، إن جعل (إرم) بدلا أو عطف بيان ؟ فإنه لا يتسق الكلام حينئذ . ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعماد ، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد ، لأن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم قال : وإنما نبهت على ذلك لثلاث يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية ، من ذكر مدينة يقال لها (إرم ذات العماد) ، مبنية بلبن الذهب والفضة الخ . فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس ؛ إن صدقهم في جميع ذلك . وحكاية عبد الله بن قلابة الأعرابي ليس يصح إسنادها . ولو صح إلى ذلك الأعرابي ، فقد يكون اختلق ذلك ، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال ، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج ، وليس كذلك . وهذا مما يقطع بعدم صحته . وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتخيلين ، من وجود مطالب تحت الأرض ، فيها قناطر الذهب والفضة واللوان الجواهر والياواقيت واللآليء والإكسير الكبير . لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها . فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء . فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير ، ونحو ذلك من الهديانات . ويطنزون بهم . والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)

[١٠] (وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ)

[١١] (الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ)

[١٢] (فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

[١٣] (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ)

[١٤] (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

« وَثَمُودَ » وهم قوم صالح عليه السلام « الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ » أى قطعوا صخر الجبال ، واتخذوا فيها بيوتاً . كما في قوله ^(١) (وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ) والباء ظرفية . والمجرور متعلق بـ (جابوا) أو هو حال من الفاعل أو المفعول . وقرى بالياء وبإسقاطها . كما في (يَمْرٍ) والوادي هو وادى القرى . كانت منازلهم فيه . كما قاله ابن إسحق « وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ » أى الحمود الذين يشدون له أمره . أو هى أوتاد يشد بها من يعبده . أو القوى والعدد والعدد التى تم له بها ملكه ، ورسخ بطشه وسلطانه ، ومنه قولهم ، لمن تمكن فى أرض ما : ضرب بها أوتاداً « الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ » صفة للمذكورين : عاد وثمود وفرعون . أى تجاوزوا ماوجب عليهم إلى ماحظر من الكفر بالحق والعتو والتمرد والبغى فى بلادهم ، اغتراراً بالقوة وعظم السلطان « فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ » أى الضرر والإيذاء وهضم الحقوق « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » أى أنزل بهم عذابه ، وأحل بهم نقمته ، بما طغوا فى البلاد وأفسدوا فيها . وقد بين تعالى إهلاكهم مفصلاً

(١) [١٥ / الحجر / ٨٢] .

في غير ما سورة وآية . و (السوط) إما مصدر (ساطه) أى خلطه كما في قول كعب (١) :

لكنها خُلَّتْ قد سَيْطَ من دَمِهَا فَجَجِعُ وَوَلَعُ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلُ

أريد به المفعول هنا . أى أنزل عليهم ما خلط لهم من أنواع العذاب . قيل : وبما ذكر سميت الآلة المعروفة، وهى الجلد المصفور الذى يضرب به، لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض . وإما أن يكون السوط الآلة المعروفة . استعيرت لعذاب أدون من غيره . وهو ما اختاره الزمخشري حيث قال : وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم فى الدنيا من العذاب العظيم ، بالقياس إلى ما أعد لهم فى الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به . وقيل : هو من قبيل (لجن الماء) أى عذاباً كالسوط فى شدته ، وهو ما يقتضيه كلام الطبرى ، حيث زعم أن السوط مَثَلٌ لشدة العذاب .

قال الشهاب : وأما استعارة الصب للعذاب فشائعة ، كالإذافة . يقال : صب عليه السوط ، وقتعه به وغشاه . وهو تمثيل وتصوير لحوله أو تقابله عليه وتكرره . « إِنَّ رَبَّكَ لَبِاٌّ لِرِصَادٍ » أى لهؤلاء الذين قصّ نبأ هلاكهم ، ولضربائهم من الكفرة بالحق والعاثين بالفساد . و (المرصاد) اسم مكان الذى يتربص فيه الرصد - جمع راصد - أو صيغته مبالغة . كطعام ومطعمان . فالباء تجريدية وفيه استعارة تمثيلية . شبه كونه تعالى حافظاً لأعمال العباد، مترقباً لها ومجازياً على تغييرها وقطيرها . بحيث لا ينجو منه أحد - بحال من قعد على الطريق مترصداً لمن يسلكها ، ليأخذه فيوقع به ما يريد . ثم أطلق لفظ أحدهما على الآخر . ثم أشار إلى غفلة الإنسان فى حالى غفاه وفقره . ونعى عليه شأنه فيهما ، بما يقرر ما تقدم من استحقاقه صبّ العذاب ، بقوله تعالى :

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بَانَتْ سَمَادُ فِقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولُ مَتِّيمٌ إِثْرَهَا ، لَمْ يُفَدَ ، مَسْكَبُولُ

سَيْطَ : خَلِطَ . فَجَجِعُ : الْمُصِيبَةُ . الْوَلَعُ : السُّكُذْبُ ، وَالْإِخْلَافُ فِي الْمَوْعِدِ ، وَتَبْدِيلُ خَلِيلٍ بِآخَرَ .

انظر شرح السكرى ص ٨

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ وَفَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

[١٦] (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ)

« فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ وَفَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ » أى بالننى واليسار « فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ » أى فضلنى ، لما لى عنده من الكرامة « وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » أى ضيقه عليه وقتره ، فلم يكثر ماله ولم يوسع عليه « فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ » أى أذلنى بالفقر. وذلك لسوء فكره وقصور نظره فى الحالين . فإنه إنما ابتلاه بالغنى ليقوم بواجبه ويعرف حق الله فيه . وبالفقر ليظهر بمظهر العفاف ويتخلق بمخلق الصبر على الكفاف . فى كل ابتلاء وامتحان ليميز الله الخبيث من الطيب . ونظير الآية ، آية (١) (وَنَبِّؤْكُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِالْحَقِّ وَالْأَيْمَانِ الَّتِي لَهُمْ وَبِصَبْرٍ كَمَا صَبَرْنَا بِالْحَقِّ وَالْأَيْمَانِ الَّتِي لَهُمْ) وآية (٢) (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ، بَل لَّا يَشْعُرُونَ) وآية (٣) (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ) . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (كَذَلَّا بَل لَّا تُكْرَمُونَ الْيَتِيمَ)

[١٨] (وَلَا تَحْسَبُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ)

[١٩] (وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْلًا لَّمًّا)

[٢٠] (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)

« كَذَلَّا » ردع عن قوليه فى حاله . أعنى اعتقاد الإكرام فى الإعطاء ، والإهانة فى المنع ،

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٥] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٥٦ و ٥٥] .

(٣) [٧٠ / المعارج / ١٩ - ٢٢] .

بل لطلب الشكر . وهو صرف النعم إلى ما خلقت له ، وإعطاء المال لذويه ، وأحقهم الأيتام وهم لا يفعلونه ، كما قال « بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ » وهو من فقد كافلة ومربيه . فإن من آكد الواجبات القيام على تأديبه وكفالاته، صونا له إذا أهل من فساد طبيعته وعيته بالضرر في أهل جيلته . ومثله التحاض على مواساة البؤساء . وهؤلاء المنعم عليهم ضلالهم في غفلة عنه، كما قال « وَلَا تَحْضُونَنَا عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ » أي لا يحض بعضكم بعضاً عليه ولا يتواصى به . قال الإمام : وإنما ذكر التحاض على الطعام ، ولم يكتف بالإطعام فيقول (ولم تطعموا المسكين) ليصرح لك بالبيان الجلي أن أفراد الأمة متكفلون . وإنه يجب أن يكون لبعضهم على بعض عطف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع التزام كلٍّ لما يأمر به ، وابتعاده عما ينهى عنه .

لطيفة :

قال القاشاني ، في دلالة قوله تعالى (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ) الخ : أي الإنسان يجب أن يكون في مقام الشكر أو الصبر بحكم الإيمان، لحديث (الإيمان نصفان . نصف: صبر، ونصف شكر) لأن الله تعالى إما إن يتقبله بالنعمة والرخاء ، فعليه أن يشكره باستعمال نعمته فيما ينبغي من إكرام اليتيم وإطعام المسكين وسائر مراضيه . ولا يكفر نعمته بالبطر والافتخار فيقول : إن الله أكرمني لاستحقاقي وكرامتي عنده . ويترفه في الأكل ويحتجب بحجة المسال ويمنع المستحقين . أو بالفقر وضيق الرزق فيجب عليه أن يصبر ولا يجزع ولا يقول : إن الله أهانني . فربما كان ذلك إكراماً له . بأن لا يشغله بالنعمة عن النعم ، ويجعل ذلك وسيلة له في التوجه إلى الحق والسلوك في طريقه لهدم التعلق ، كما أن الأول ربما كان استدرأجاً منه . انتهى . « وَتَأْكُلُونَ الْبَرَاثَ أَكْلًا لَمًّا » قال ابن جرير^(١) : أي تأكلون الميراث أكلاً شديداً ، لا تتركون منه شيئاً . من قولهم (لمت ما على الخوان أجمع فأنا له لماً) إذا أكلت ما عليه فأنت على جميعه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال ابن زيد : كانوا لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار ، وقرأ^(١) (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّىٰ النِّسَاءِ الْأَلْحَىٰ لَا تُوْرَثُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْمَعِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ) أي لا تورثنهن أيضا . وقال بكر بن عبد الله : اللّم : الاعتداء في الميراث . يأكل ميراثه وميراث غيره « وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا » أي جمعه وكنزه ، حبًّا كثيرا شديداً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا)

[٢٢] (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)

[٢٣] (وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ)

[٢٤] (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

[٢٥] (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا)

[٢٦] (وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا)

« كَلَّا » ردع لهم عن ذلك ، وإنكار لفعالهم . وما بَمَدِّهِ وعيد عليه بالإخبار عن ندمهم وتحسرهم حين لا يفقههم الندم « إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا » أي دكا بعد دك حتى عادت هباءً منثوراً .

قال الشهاب : ليس الثاني تأكيذا ، بل التكرير للدلالة على الاستيعاب . كقرأت النحو باباً باباً . وجاء القوم رجلاً رجلاً ، و(الدك) قريب من الدق ، لفظاً ومعنى « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » قال ابن كثير : أي وجاء الرب ، تبارك وتعالى ، لفصل القضاء ، كما يشاء . والملائكة بين يديه صفوفاً صفوفاً . وسبقه ابن جرير إلى ذلك وعضده بآثار عن ابن عباس وأبي هريرة

(١) [٤ / النساء / ١٢٧] .

والضحاك في نزوله تعالى من السماء يومئذ في ظلل من الغمام ، والملائكة بين يديه ، وإشراق الأرض بنور ربها . ومذهب الخلف في ذلك معروف ، من جمل الكلام على حذف مضاف ، للتهويل . أى جاء أمره وقضاؤه . أو استعارة تمثيلية لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه . قال الزمخشري : مثلت حاله في ذلك ، بحال الملك إذا حضر بنفسه ، ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره وكأها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم . انتهى .

وكانَّ الخلاف بين المذهبين لفظيَّ ، إذ مبنى مذهب الخلف على أن الظاهر غير مراد . ويعنون بالظاهر ما للخلق مما يستحيل على الخالق ، فوجب تأويله . وأما السلف فينسكرون أن معنى الظاهر منها ما للخلق . بل هو ما يتبادر إلى فهم المؤمن الذي يعلم أن ذاته تعالى ، كما أنها لاتشبه الذوات ، فكذلك صفاته لاتشبه الصفات . لأنها لاتكفي ولا تعلم بوجه ما . فهي حقيقة النسبة إليه سبحانه ، على ما يليق به . كالمعلم والقدرة . لاتتميل ولا تعطيل . قال الإمام ابن تيمية رضى الله عنه : واعلم أن من المتأخرين من يقول إن مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به ، مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد . وهذا لفظ مجمل . فإن قوله (ظاهرها غير مراد) يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين . مثل أن يراد بكون الله قبل وجه المصلَّى ، أنه مستقر في الحائط الذي يصلى إليه ، و(إن الله معنا) ظاهره أنه إلى جانبنا ، ونحو ذلك . فلا شك أن هذا غير مراد ، ومن قال إن مذهب السلف أن هذا غير مراد ، فقد أصاب في المعنى ، لكن أخطأ في إطلاق القول بأن هذا ظاهر الآيات والأحاديث . فإن هذا المجال ليس هو الظاهر على ما قد بيناه في غير هذا الموضوع . اللهم إلا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس فيكون القائل لذلك مصيباً بهذا الاعتبار ، معذوراً في هذا الإطلاق . فإن الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس ، وهو من الأمور النسبية . انتهى .

وقد بسط رحمه الله الكلام على ذلك في (الرسالة المدنية) وأوضح أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، يحتذى حذوه ويتبع فيه مثاله . فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية .

وقال رحمه الله في بعض فتاويه : نحن نقول بالمجاز الذي قام دليله . وبالتأويل الجارى على نهج السبيل . ولم يوجد في شيء من كلامنا وكلام أحد منا ، أنا لا نقول بالمجاز والتأويل . والله عند لسان كل قائل . ولكن نفكر من ذلك ما خالف الحق والصواب ، وما فتح به الباب ، إلى هدم السنة والكتاب والالحاق بمحرقة أهل الكتاب . والمنصوص عن الإمام أحمد وجمهور أصحابه ؛ أن القرآن مشتمل على المجاز . ولم يعرف عن غيره من الأئمة نص في هذه المسألة . وقد ذهب طائفة من العلماء من أصحابه وغيرهم ، كأبي بكر بن أبي داود ، وأبي الحسن الخرزى ، وأبي الفضل التيمى ، وابن حامد ، فيما أظن ، وغيرهم ، إلى إنكار أن يكون في القرآن مجاز . وإنما دعاهم إلى ذلك ماراً أو من تحريف المحرفين للقرآن بدعوى المجاز . فقابلوا الضلال والفساد ، بحسم المواد . وخيار الأمور التوسط والاقتصاد . انتهى .

« وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ » أى أظهرت حتى رآها الخلق وعلم الكافر أن مصيره إليها . فجميعها متجاوز به عن إظهارها . كما صرح به آية (١) « وَبُرِزَتْ أُلْجَجِيمُ لِمَنْ بَرَى » « يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ » تفریطه في الدنيا في طاعة الله وفيما يقرب إليه من صالح الأعمال « وَأَنْتَ لَهُ أَلْذَكَّرَى » أى منقمتها . فالمراد بتذكرة ندامته على تفریطه في الصالحات من الأعمال التي تورثة نعيم الأبد ، كما فسره بقوله تعالى « يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي » أى أسلفت من الأعمال الصالحة لحياتي هذه . فاللام للتعميل . أو : قدمت وقت حياتي . فاللام بمعنى وقت . والحياة هي التي في الدنيا « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَدِّبُ عَذَابَهُ وَاحِدٌ » أى لا يعذب كعذاب الله ، أحد في الدنيا « وَلَا يُؤْتِقُ وَثَاقَهُ وَاحِدٌ » أى لا يوثق كوثاقه يوماً واحداً في الدنيا . وقرئ (يُعَدِّبُ وَيُؤْتِقُ) على بناء المجهول .

(١) [٧٩ / النزاعات / ٣٩] .

قال السمين : وعذاب ووثاق في الآية ، واقمان موقع تعذيب وإيثاق . والمعنى لا يعذب أحد تعذيباً مثل تعذيب الله هذا الكافر . ولا يوثق أحد إيثاقاً مثل إيثاق الله إياه بالسلاسل والأغلال . فالوثاق في الآية بمعنى الإيثاق . كالعطاء بمعنى الإعطاء .
ثم أشار إلى ما يقال لمن آمن وعمل صالحاً ، في مقابلة من تقدم ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)

[٢٨] (أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً)

[٢٩] (فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي)

[٣٠] (وَأَدْخُلِي جَنَّتِي)

« يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ » أي الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن . وهي التي كان قلبها اطمأن بذكر الله وطاعته وخشيته من الاضطراب « أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ » أي وعده وثوابه « رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً » أي راضية بما أوتيت ، مرضية عند ربها « فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي » أي في زميرهم ، وهم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون « وَأَدْخُلِي جَنَّتِي » أي معهم . وهذا القول إما عند الموت أو البعث أو دخول الجنة . ومن غرائب المأثور هنا ، تأويل النفس بالروح ، والرب بصاحبها . أي ارجعي إلى جسد صاحبك إيداناً بأن الأرواح المطمئنة ترد يوم القيامة في الأجساد ، وأن لها مقراً قبل تعلقها بالبدن في عالم الملكوت . والمسألة من الغوامض بل من الغيوب . وبمعرفة نظائر التنزيل ، يظهر بُعد هذا التأويل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٠ - سُورَةُ الْبَلَدِ

مكية وهي عشرون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تاويل قوله تعالى :

[١] (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)

[٢] (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)

[٣] (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ)

«لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ» تقدم في مواضع متعددة من التنزيل الكريم تفسير (لَا أُقْسِمُ) و (البلد) هو مكة . وقيد القسم بقوله تعالى « وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ » عناية بالنبي صلوات الله عليه . فكانه إقسام به لأجله ، مع تعريض بعدم شرف أهل مكة ، وأنهم جهلوا جهلاً عظيماً ، لهمهم بإخراج من هو حقيق به ، وبه يتم شرفه .

قال الشهاب : و(الحل) صفة أو مصدر بمعنى الحال على هذا الوجه . ولا عبرة بمن أنكره لعدم ثبوته في كتب اللغة . وقيل : معناه وأنت يستحل فيه حرمتك ، ويتعرض لأذيتك . ففيه تعجيب من حلهم في عداوته ، وتعريض بتجميعهم وتفريقهم بأنه لا يستحل فيه الحرام ، فكيف يستحل فيه دم مرشد الأنام ، عليه الصلاة والسلام ؟؟

وقيل : معناه وأنت حل به في المستقبل . تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر ، إشارة إلى ما سيقع من فتح مكة وإحلالها له ساعة من نهار ، يقتل ويأسر . مع أنها ما فتحت على أحد قبله ، ولا أحلت له . ففيه تسلية له ، ووعد بنصره ، وإهلاك عدوه . و (الحل) على هذين الوجهين ضد (الحرمة) وفيهما - كما قالوا - بُعِدٌ . لاسيما إرادة الاستقبال في الوجه الأخير ، فإنه غير متبادر منه . وإنما كان الأول أولى لتشريفه عليه السلام ، يجعل حلوله به مناطاً لإعظامه ، مع التنبية من أول الأمر على تحقق مضمون الجواب ، بذكر بعض مواد المسابدة ، على نهج

براعة الاستهلال ، وإنه كابد المشاق ، ولاقى من الشدائد ، في سبيل الدعوة إلى الله ، ما لم يكابده داع قبله ، صلوات الله عليه وسلامه .

« وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ » عطف على (هَذَا الْبَلَدِ) داخل في المقسم به . قيل : عنى بذلك آدم وولده . وقيل : إبراهيم وولده . والصواب - كما قال ابن جرير^(١) - أن المعنى به كل والد وما ولد . قال : وغير جائز أن يخص ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل . ولا خبر بخصوص ذلك ولا برهان ، يجب التسليم له بخصوصه . فهو على عمومته كما عمه . وإيثارة (ما) على (من) لإرادة الوصف . فيفيد التعظيم في مقام المدح . وإنه مما لا يكتبه كنهه لشدة إبهامها . ولذا أفادت التعجب أو التعجيب ، وإن لم يكن استقهاماً كما في قوله تعالى^(٢) (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ) أى أى مولود عظيم الشأن وضعت . وهذا على كون المراد إبراهيم والنبي عليهما الصلاة والسلام ، ظاهر . أما على أن المراد به آدم وذريته ، فالتعجب من كثرتهم ، أو مما خص به الإنسان من خواص البشر . كالنطق والعقل وحسن الصورة . حكاة الشباب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)

[٥] (أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)

[٦] (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا)

[٧] (أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُوَ أَحَدٌ)

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ » أى في شدة ، يكابد الأمور ويعالجها في أطواره كلها ،

من حمله إلى أن يستقر به القرار . إما في الجنة وإما في النار .

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣ / آل عمران / ٣٦] .

قال الزمخشريّ : (الكبد) أصله من قولك (كبد الرجل كبدا) فهو أ كبد، إذا وجعت كبده وانتفخت. فأتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة، ومنه اشتقت المكابدة. كما قيل : (كبته) بمعنى أهلكه . وأصله كبده إذا أصاب كبده . قال لبيد^(١) :

يَا عَيْنُ هَلَّا بَكَيْتِ أَرْبَدًا إِذْ قُمْنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبَدِ

أى فى شدة الأمر وصعوبة الخطب . انتهى .

وفيه تسلية للنبي صلوات الله عليه ، مما كان يكابده من قريش ، من جهة أن الإنسان لم يخلق للراحة فى الدنيا . وأن كل من كان أعظم فهو أشد نصباً . هذا خلاصة ما قالوه . وقال القاشانى : (فى كبد) أى مكابدة ومشقة من نفسه وهواه . أو مرض باطن وفساد قلب وغلظ حجاب . إذ (الكبد) فى اللغة غلظ الكبد الذى هو مبدأ القوة الطبيعية . وفساده وحجاب القلب وفساده من هذه القوة . فاستعير غلظ الكبد لغلظ حجاب القلب ومرض الجهل .

« أَيَحْسَبُ » أى لغلظ حجاب ومرض قلبه لاحتجابه بالطبيعة « أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ » أى أن لن تقوم قيامة ، ولن يقدر على مجازاته وقهره وغلبته . مع أن ما هو فيه من المكابدة يكفى لإيقاظه من غفلته واعترافه بهجره .

« يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَّا لُبْدًا » أى كثيراً . من (تلبد الشيء) إذا اجتمع . والمراد ما أنفقه للافتخار والمباهاة والرياء . كقولهم (خسرت عليه كذا وكذا) إذا أنفق عليه . يتفضل على الناس بالتبذير والاسراف ، ويحسبه فضيلة لاحتجابه عن الفضيلة وجهله . ولهذا قال « أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ وَاحِدٌ » أى : أيجسب أن لم يطلع الله تعالى على باطنه ونيته ، حين ينفق ماله فى السمعة والرياء والمباهاة لا على ما ينبغى فى مرضى الله ، وهى رذيلة على رذيلة ، فكيف تكون فضيلة ؟

(١) من كلمة قالها يرثى بها أربد ، أخاه لأمه ، وأولها :

مَا إِنْ تَمَزَّى النُّونُ مِنْ أَحَدٍ لَا وَالِدٍ مُشْفِقٍ وَلَا وَلَدٍ

انظر (رغبة الآمل) ج ٨ ص ١٦٧

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

[٩] (وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ)

[١٠] (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

[١١] (فَلَا أُقْتَحَمُ الْعُقَبَةَ)

[١٢] (وَمَا أَذْرَبِكْ مَا الْعُقَبَةُ)

[١٣] (فَكُ رَقَبَةٍ)

[١٤] (أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)

[١٥] (يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ)

[١٦] (أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ)

« أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ » قال القاشاني : أى ألم نعلم عليه بالآلات البدنية التي يتمكن بها من اكتساب الكمال ، ليبصر ما يعتبر به ، ويسأل عما لا يعلم ، ويتكلم فيه ؟

وقال السيد المرتضى : هذا تذكير بنعم الله عليهم ، وما أزاح به عنهم في تكاليفهم ، وما تفضل به عليهم من الآلات التي يتوصلون بها إلى منافعهم ، ويدفعون بها المضار عنهم . لأن الحاجة إلى أكثر المنافع الدينية والدنيوية ماسة . فالحاجة إلى العينين للرؤية ، واللسان للنطق ، والشفتين لحبس الطعام والشراب وإمساكهما في الفم ، والنطق أيضا . وقوله تعالى « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » أى طريق الخير والشر . قال الإمام النجد مشهور في الطريق المرتفعة والمراد بهما طريقا الخير والشر . وإنما سماها نجدين ، ليشير إلى أن في كل منهما وغورة وصعوبة

مسلك فليس الشر بأهون من الخير كما يُظن ، وإلى أهمها واضحان جليان لا يخفى واحدمهما على سالك . أى أودعنا فى فطرته التمييز بين الخير والشر . وأقناله من وجدانه وعقله أعلاما تدله عليهما . ثم وهبناه الاختيار . فإليه أن يختار أى الطريقة شاء . فالذى وهب الإنسان هذه الآلات ، وأودع باطنه تلك القوى ، لا يمكن للإنسان أن يفات من قدرته ، ولا يجوز أن يخفى عليه شيء من سريره . « فَلَا أُقْتَحَمُ الْعَقَبَةَ » أى فم يشكر تلك النعم الجليلة باقتحام العقبة . و (الاقتحام) الدخول والمجازاة بشدة ومشقة . و (العقبة) الطريق الوعرة فى الجبل يصعب سلوكها . استعارها لما يأتى ، لما فيه من معاناة المشقة ومجاهدة النفس « وَمَا أَدْرَاكَ أَلْعَقَبَةُ » أى أى شيء أعلمك ما اقتحام العقبة ؟ وفى الاستفهام زيادة تقريرها وكونها عند الله تعالى بكمالة رفيعة « فَكُ رَقِيَّةٌ » أى عتقها . أو المعاونة عليه . وتحليصها من الرق وأسر العبودية ، رجوعا به إلى ما فطرت عليه من الحرية « أَوْ أُطْعَمُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ » أى مجاعة « يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ » أى قرابة . قال السيد المرتضى : وهذا حض على تقديم ذوى النسب والقربى المحتاجين ، على الأجنبي فى الإفضال .

قال : وقد يمكن فى (مقربة) أن يكون غير مأخوذ من القرابة والقربى ، بل من (القرب) الذى هو من الخاصرة ، فكأن المعنى أنه يطعم من خاصرته لصقت من شدة الجوع والضر . وهذا أشبه بقوله تعالى (ذَا مَتْرَبَةٍ) لأن كل ذلك مبالغة فى وصفه بالضر . وليس من المبالغة فى الوصف بالضر أن يكون قريب النسب . انتهى . وقوله تعالى « أَوْ مُسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ » أى فقر شديد لا يواريه إلا التراب . يقال (رب) كأنه لصق بالتراب ، ويقال (فقر مدقع) و (فقير مدقع) بمعنى لاصق بالدقعاء ، وهى التراب . لطيفة :

ذهب الأكثرون إلى أن (لا) من قوله (فلا) نافية . وإنما لم تسكر ، مع أن العرب لاتسكاد تفردا ، كما جاء فى آية (١) (فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى) . (٢) (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

(١) [٧٥ / القيامة / ٣١] . (٢) [٢ / البقرة / ٣٨] .

يَحْزَنُونَ) استغناء بدلالة بقية الكلام على تكرارها . لأن (لَا اقْتَحِمَ) لما فسر بما بعده كان في قوة (لا فك رغبة ولا أطمع مسكيناً) وفي الآية أجوبة أخرى . منها أنه لما عطف عليه ، كان وهو منفي أيضاً . فكأنها كررت . وقيل (لا) للدعاء . كقولهم (لا نجاً ولا سلم) وقيل مخففة من (ألا) التي للتخصيص . وقيل : إنها للنفي فيما يستقبل . وقال الإمام : أما ما قيل من أن (لا) إذا دخلت على الماضي وجب تكرارها ، ولم تكرر في الآية ، فذلك لا يلتفت إليه . لأن الكتاب نفسه حجة في الفصاحة . وقد ورد في كلامهم عدم تكرارها .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)

[١٨] (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ)

« ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالحق الذى جاءهم . عطف على المنقّب بـ (لا) وهو (اقتحم) أو على (فك) « وَتَوَاصَوْا » أى أوصى بعضهم بعضاً « بِالصَّبْرِ » أى على ما نابهم في سبيل الدعوة إلى الحق « وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ » أى بالرحمة على بعضهم . كقوله^(١) (رَحِمَاءَ بَيْنَهُمْ) أو بموجبات رحمته تعالى من القيام بالحق والصّدق به وعمل الصالحات « أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » أى اليمين ، أو جهة اليمين التي فيها السمداء .

تنبيه :

قال القاساني : يشير قوله تعالى (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) الآيات ، إلى قهر النفس بتكاف الفضائل والتزام سلوك طريقها واكتسابها ، حتى يصير التطبع طبعاً . ثم قال : فإن الإطعام ، خصوصاً وقت شدة الاحتياج للمستحق ، الذى هو وضع في موضعه ، من باب فضيلة العفة

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] .

بل أفضل أنواعها - والإيمان من فضيلة الحكمة وأشرف أنواعها وأجلها ، وهو الإيمان العلمى اليقينى - والصبر على الشدائد من أعظم أنواع الشجاعة - . وآخره عن الإيمان ، لامتناع حصول فضيلة الشجاعة بدون اليقين . و (المرحمة) أى التراحم والتعاطف من أفضل أنواع العدالة . فانظر كيف عدّد أجناس الفضائل الأربع التى يحصل بها كمال النفس . بدأ بالعبقة التى هى أولى الفضائل . وعبر عنها بمعظم أنواعها . وأخص خصالها الذى هو السخاء . ثم أورد الإيمان الذى هو الأصل والأساس . وجاء بلفظة (ثم) لبعده مرتبة عن الأولى فى الارتفاع والعلو . وعبر عن الحكمة به لكونه أم سائر مراتبها وأنواعها . ثم رتب عليه الصبر لامتناعه بدون اليقين . وأخر العدالة التى هى نهايتها ، واستغنى بذكر الرحمة ، التى هى صفة الرحمن ، عن سائر أنواعها . كما استغنى بذكر الصبر عن سائر أنواع الشجاعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ)

[٢٠] (عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا » أى بأدلتنا وأعلامنا من الكتب والرسل وغير ذلك من آيات الأنفس والآفاق ، التى بكل يرتقى إلى معرفة الصراط التى تجب الاستقامة عليه فى الاعتقاد والعمل « هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ » أى الشؤم على أنفسهم ، أوجه الشمال التى فيها الأشقياء . وقال الإمام : أهل البين ، فى لسان الدين الإسلامى ، عنوان السعداء . وأهل الشمال عنوان الأشقياء « عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ » أى مطبقة أبوابها ، كناية عن حبسهم المخلد فيها ، وسد سبل الخلاص منها . أجازنا الله بفضله وكرمه منها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩١ - سُورَةُ الشَّمْسِ

مكية ، وآياتها خمس عشرة .

وقد تقدم حديث جابر الذي في الصحيح (١) أن رسول الله ﷺ قال لعاذ : هلا صليت

بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى .

(١) أخرجه النسائي في : ١١ - كتاب الافتتاح ، ٦٣ - باب القراءة في المغرب بسبح

اسم ربك الأعلى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا)

[٢] (وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّهَا)

[٣] (وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا)

[٤] (وَاللَّيْلَ إِذَا يَمُشَاهَا)

[٥] (وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا)

[٦] (وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا)

[٧] (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

[٨] (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

« وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا » أي ضوءها إذا أشرقت . قال الراغب : (الضحى) انبساط الشمس وامتداد النهار، وبه سمي الوقت . وحقيقته - كما قال الشهاب - تباعد الشمس عن الأفق المرئى وبرزها للناظرين . ثم صار حقيقة في وقته . وقال الإمام : يقسم بالشمس نفسها ظهرت أو غابت لأنها خلق عظيم . ويقسم بضوئها لأنه مبعث الحياة ومجلى الهداية في عالمها الفخيم . وهل كنت ترى حيا أو تبصر ناميا، أو هل كنت تجد نفسك، لولا ضياء الشمس، جل مبدعه؟ « وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّهَا » أي تبع الشمس ، قال الإمام : وذلك في الليالي البيض ، من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة . وهو قسم بالقمر عند امتلائه أو قربته مع الامتلاء . إذ يضيء الليل كله مع غروب الشمس إلى الفجر . وهو قسم في الحقيقة بالضياء في طور آخر من أطواره . وهو ظهوره وانتشاره الليل كله .

« وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ » أظهر الشمس . وذلك عند انتفاخ النهار وانبساطه . لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء . وفي هذه الأقسام كلها - كما قاله الإمام - إشارة إلى تمظيم أمر الضياء وإعظام قدر النعمة فيه ، وافت أذهاننا إلى أنه من آيات الله الكبرى ونعمه العظمى . وفي قوله (إِذَا تَجَلَّىٰ) بيان للحالة التي ينطق فيها النهار بتلك الحكمة الباهرة والآية الظاهرة . وهي حالة الصحو . أما يوم الغيم الذي لا تظهر فيه الشمس ، فخاله أشبه بحال الليل الذي يقسم به في قوله « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ » أى يغشى الشمس ويعرض دون ضوئها فيحجبه عن الأبصار . وذلك في ليالي الظلمة الحالكة المشار إليها بقوله في الآية المتقدمة (١) (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) على القول الأخير . قال الإمام : ولقلة أوقات الظلمة، عبر في جانبها بالمضارع المفيد لاحاق الشيء وعروضه متأخرا عما هو أصل في نفسه . أما النهار فإنه يجلي الشمس دائماً من أوله إلى آخره . وذلك شأن له في ذاته . ولا ينفك عنه إلا لعارض . كالغيم أو الكسوف قليل العروض . ولهذا عبر في جانبه بالماضي المفيد لوقوع المعنى من فاعله، بدون إفادة أنه مما ينفك عنه .

« وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَيْهَا » أى ومن رفعها ، وصيرها بما فيها من الكواكب ، كالسقف أو القبة المحيطة المزينة المحيطة بنا . ف (ما) موصولة بمعنى (من) أو ثرت لإرادة الوصفية . أى والتقدير الذى أبدع خلقها .

قالوا : وذكر (مَا بَنَيْهَا) مع أن فى ذكر (السَّمَاءَ) غنية عنه ، للدلالة على إيجادها وموجدتها صراحة (وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا) أى بسطها من كل جانب ، لافتراضها وازدراعها والضرب فى أكنافها .

قال الإمام : وليس فى ذلك دليل على أن الأرض غير كروية ، كما يزعم بعض الجاهلين . أى بتحريفه الكلم عن معناه المراد منه . « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا » أى خلقها فعدل خلقها

(١) [٨٩ / الفجر / ٢] .

ومزاجها ، وأعدّها لقبول السكّال « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » أى أفهمها إياها، وأشعرها بهما، بالإلقاء الملصكيّ والتمكين من معرفتهما، وحسن التقوى وقبح الفجور بالعقل الهيوالاتيّ. لطيفة :

جوز في (ما) كونها مصدرية في السكّال ، ولا يضره خلو الأفعال من فاعل ظاهر ومضمر إذ لا مرجع له . وعطف الفعل على الاسم لأنه يكفي لصحة الإضمار دلالة السياق . وهي موجودة هنا . وأن العطف على صلة (ما) لا عليها مع صلتها . فسكانه قيل : ونفس وتسويتها ، فالهامها الخ . وعطف الفعل على الاسم ليس بفاسد . نعم في الوجه الأول توافق القرائن وهو أسدّ . وأما الثاني فوجه يتسع للنظم الكريم له . وأما تفكير (نفس) فللتكثير أو التعظيم . القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

[١٠] (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[١١] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا)

[١٢] (إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا)

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » أى زكى نفسه وطهرها من رجس النقائص والآثام . أو تمّاها بالعلم والعمل والوصول إلى السكّال وبلوغ الفطرة الأولى « وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » أى أخلمها ووضع منها ، بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصى وترك طاعة الله تعالى . هذا ما قاله ابن جرير^(١) . وقال غيره : أى نقص تركيبتها وأخفى استمدادها وفطرتها التي خلقت عليها بالجهالة والفسوق . وهو مأخوذ من (دس الشيء في التراب) أى أدخله فيه وأخفاه . وأصل (دسى) دسّس . كعتقضى البازى ، وجملة (قَدْ أَفْلَحَ) الخ جواب القسم وحذف اللام للطول .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢١٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال القاضى : وكأنه لما أراد به الحث على تكميل النفس والمبالغة فيه ، أقسم عليه بما يدلهم على العلم بوجود الصانع ووجوب ذاته وكال صفاته الذى هو أقصى درجات القوة النظرية ويذكركم عظام الإله ليحملهم على الاستغراق فى شكر نعمائه الذى هو منتهى كالات القوة العملية .

وذهب الزمخشريّ إلى أن هذه الجملة كلام تابع لقوله (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) على سبيل الاستطراد . وجواب القسم محذوف تقديره : لِيُدْمِدَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ . أى على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ . كما دمدم على ثمود ، لأنهم كذبوا صالحاً عليه السلام . وقد دل عليه قوله تعالى « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا » أى بسبب طغيانها ومجاوزتها الحدّ فى الفجور . ف(الطغوى) مصدر . وجوز أن يراد به العذاب نفسه، على حذف مضاف أو بدونه، مبالغة . كما يوصف بغيره من المصادر . أى كذبت بما أوعدت به من عذابهاذى الطغوى، كقوله (فَأَهْلِكُوكُمْ بِالطَّاغِيَةِ) فالطغوى على هذا من التجاوز عن الحدّ والزيادة من العذاب . والباء صلة (كذبت) . وقوله تعالى « إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقَمَهَا » ظرف ل(كذبت) أو (طغوى) أى حين قام أشقى ثمود لعقر ناقة صالح عليه السلام . وكانوا نهوا عن مسّها بسوء ، وأنذروا عاقبة المخالفة ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا)

[١٤] (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا)

[١٥] (وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا)

« فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ » يعنى صالحاً عليه السلام لقومه - « نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا » أى احذروا واتقوا ناقة الله التى جعلها آية بينة وشرها، الذى اختصه الله به فى يومها . وكان عليه السلام تقدم إليهم عن أمر الله أن للناقة شرب يوم ولهم شرب يوم آخر، غير يوم الناقة .

كما بينته آية الشعراء . قال (١) (هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يُومٍ عَظِيمٌ) أى لا تؤذوا الناقة ولا تتعدوا عليها فى شربها ويوم شربها « فَسَكَّدَ بُؤُهُ » أى فيما حذرهم منه من حلول العذاب إن فعلوا « فَعَقَرُوهَا » أى قتلوها .

قال فى النهاية : أصل العقر ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف وهو قائم . ثم اتسع حتى استعمل فى القتل والهلاك . وذلك أنهم أجمعوا على منعها الشرب ورضوا بقتلها . وعن رضا جميعهم قتلها فأتلها وعقرها من عقرها . ولذلك نسب التكذيب والعقر إلى جميعهم « فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ » أى أهلكهم وأزعجهم بسبب كفرهم به وتكذيبهم رسوله وعقرهم ناقته ، استهانة به واستخفافا بما بعث به . وقيل : دمدم أطبق عليهم العذاب . وقيل : الدمدمه حكاية صوت الهدمة « فَسَوَّاهَا » أى فسوى الدمدمه عليهم جميعا ، فلم يفلت منهم أحد . بمعنى جعلها سواء بينهم أو الضمير لثمود . أى جعلها عليهم سواء « وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا » أى لا يخشى تبعه إهلاكهم لأنه العزيز الذى لا يغال .

قال الشهاب : أى لا يخاف عقابها كما يخاف الملوك عاقبة ما فعله . فهو استعارة تمثيلية لإهانتهم وأنهم أذلاء عند الله . فالضمير فى (يخاف) لله وهو الأظهر . ويجوز عوده للرسول ﷺ . أى أنه لا يخاف عاقبة إنذاره لهم وهو على الحقيقة ، كما إذا قيل : الضمير للأشقى أى أنه لا يخاف عاقبة فعله الشنيع . والواو الحال أو الاستئناف .

تفسيه :

قال ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) : المقصود أن الآية أوجبت لهم البصيرة فأثروا الضلالة والكفر عن علم ويقين . ولهذا ، والله أعلم ، ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم فى سورة (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية ،

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٥٥ ، ١٥٦] .

وإلى الفاجرة الضالة الغاوية . وذكر فيها الأصلين : القدر والشرع . فقال ^(١) (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) فهذا قدره وقضاؤه ثم قال ^(٢) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) فهذا أسرته ودينه . وتمود ، هدام فاستجبوا العمى على الهدى . فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى ، والتدسية على التزكية . والله أعلم .

• [(٢) (٩١ / الشمس / ٩)] .

• [(١) (٩١ / الشمس / ٨)] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٢ - سُورَةُ اللَّيْلِ

مكية ، وآيها إحدى وعشرون . وقد تقدم قوله ﷺ لما ذ(١) : هَلَّا صَلَّيْتُ بِسَبِّحِ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى .

(١) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي: ١١ - كِتَابِ الْإِفْتِخَاحِ ، ٦٣ - بَابِ الْقِرَاءَةِ فِي الْمَغْرِبِ بِسَبِّحِ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ)

[٢] (وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ)

[٣] (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ)

[٤] (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ)

« وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ » أى يغشى الشمس أو النهار بظلمته ، فيذهب بذلك الضياء
« وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ » أى ظهر بزوال ظلمة الليل أو تبين بطولع الشمس .

قال الإمام : والتعبير في الغشيان بالمضارع ، لما سبق من عروض الظلمة لأصل النور
الذى هو أكل مظاهر الوجود ، حتى عبر به عن الوجود نفسه . أما تجلى النهار فهو لازم له .
لهذا عبر عنه بالماضى كما سبق بيانه « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ » أى والقادر الذى خلق
صنفي الذكر والأنثى من كل نوع له توالد . ف (ما) موصولة بمعنى (من) أو ثرت لإرادة
الوصفية ، كما تقدم .

قال الإمام : وإنما أقسم بذاته بهذا العنوان ، لما فيه من الإشعار بصفة العلم المحيط
بدقائق المادة وما فيها ، والإشارة إلى الإبداع فى الصنع . إذ لا يعقل أن هذا التخالف
بين الذكر والأنثى ، فى الحيوان ، يحصل بمحض الاتفاق من طبيعة لا شعور لها بما تفعل ،
كما يزعم بعض الجاحدين . فإن الأجزاء الأصلية فى المادة متساوية النسبة إلى كون الذكر
أو كون الأنثى . فتكوين الولد من عناصر واحدة تارة ذكرا وتارة أنثى ، دليل على أن
واضع هذا النظام عالم بما يفعل ، محكم فيما يضع ويصنع . انتهى .

وقوله « إِنْ سَعَيْكُمْ لَشَتَىٰ » جواب القسم . أو هو مقدر ، كما مر تفصيله . أى مختلف في جزائه ، ومفروق في عاقبته . فنه ما يسعد به الساعي ومنه ما يشقى به ، فشتان ما بينهما ، كما فصله بعد . و(شتى) إما جمع شتيت أو شت ، بمعنى متفرق ، والمصدر المضاف يفيد العموم ، فيكون جمعاً معنى . ولذا أخبر عنه بـ (شتى) وهو جمع . وفيه وجه آخر وهو أنه مفرد مصدر مؤنث . كذا كرى وبشرى . فهو بتقدير مضاف ، أو مؤول ، أو يجعله عين الافتراق ، مبالغة . قال الرازى : ويقرب من هذه الآية قوله (١) (لَا يَسْتَوِي أَسْحَابُ النَّارِ وَأَسْحَابُ الْجَنَّةِ) وقوله (٢) (أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ، لَا يَسْتَوُونَ) وقوله (٣) (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أُجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ)

[٦] (وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ)

[٧] (فَسَنِّيَسِّرُهُ لِّلْيُسْرَىٰ)

[٨] (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ)

[٩] (وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ)

[١٠] (فَسَنِّيَسِّرُهُ لِّلْعُسْرَىٰ)

[١١] (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ)

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ » تفصيل لتلك المساعي الشتى ، وتبيين لما لها كما تقدم .

(١) [٥٩ / الحشر / ٢٠] . (٢) [٣٢ / السجدة / ١٨] .

(٣) [٤٥ / الجاثية / ٢١] .

قال الرازى : وفي « أَعْطَى » وجهان :

أحدهما - أن يكون المراد إنفاق المال في جميع وجوه الخير من عتق الرقاب ، وفك الأسارى ، وتقوية المسلمين على عدوهم . كما كان يفعله أبو بكر ، سواء كان ذلك واجباً أو نفلاً . وإطلاق هذا كالإطلاق في قوله (١) (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) فإن المراد منه كل ما كان إنفاقاً في سبيل الله ، سواء كان واجباً أو نفلاً . وقد مدح الله قوماً فقال (٢) (وَيُطْعَمُونَ أَلْطَمَامَ عَلَىٰ حَبِيبِهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) وقال في آخر هذه السورة (٣) (وَسَيَجْزِيهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ وَيَتَزَكَّى) الآية .

وثانيهما - أن قوله (أَعْطَى) يتناول إعطاء حقوق المال ، وإعطاء حقوق النفس في طاعة الله تعالى . يقال : فلان أعطى الطاعة وأعطى السعة . انتهى .

إلا أن الأول هو المناسب للإعطاء . لأن المعروف فيه تعلقه بالمال خصوصاً وقد وقع في مقابلة ذكر البخل والمال « وَأَتَقَى » أى ربه فاجتنب محارمه « وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى » أى بالثوبة الحسنى . قال قتادة : أى صدق بموعد الله الحسن . وهو بمعنى قول مجاهد ، إنها الجنة كما قال تعالى (٤) : (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) فسمى مضاعفة الأجر (حسنى) وقال القاشانى : أى صدق بالفضيلة الحسنى التى هى مرتبة الكمال بالإيمان العلمى ، إذ لو لم يتيقن بوجود كمال كامل لم يمكنه الترقى . « فَسُنِّيَسْرُهُ وَ لِلْيَسْرَى » أى فسنيته ونوفقه للطريقة اليسرى ، التى هى السلوك فى طريق الحق ، لقوة يقينه .

قال الشهاب : ولما كانت مؤدية إلى اليسر ، وهو الأمر السهل الذى يستريح به الناس ، وصفت بأنها يسرى ، على أنه استمارة مصرحة أو مجاز مرسل أو تجوز فى الإسناد .

وأما مَنْ أَبْخَلَ « أى بالنفقة فى سبيل الله ، ومنع ما وهب الله له من فضله من صرفه فى الوجوه التى أمر الله بصرفه فيها « وَأَسْتَفْنَى » أى عن ربه فلم يرغب إليه بالعمل له

(١) [٢ / البقرة / ٣] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٨] .

(٣) [٩٢ / الليل / ١٧ و ١٨] . (٤) [٤٢ / الشورى / ٢٣] .

بطاعته بالزيادة فيما خوله ، أو استغنى بماله عن كسب الفضيلة ، وعمه به عن الحق « وَكَذَّبَ بِأَلْحُسْنَى » أى بوجود المثوبة للحسنى ، لمن آمن بالحق ، لاستغنائها بالحياة الدنيا واحتجابها بها عن عالم الآخرة . « فَسَأَيِّرُهُوَ لِلْعُسْرَى » أى للطريقة العسرى المؤدية إلى الشقاء الأبدى . قال الإمام : الخطة العسرى هى الخطة التى يحط فيها الإنسان من نفسه ، ويفرض من حقها وينزل بها إلى حضيض البهيمية ، ويغمسها فى أحوال الخطيئة . وهى أعسر الخطتين على الإنسان ، لأنه لا يجد معيماً عليها ؛ لا من فطرته ولا من الناس « وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى » أى وما يفيد ماله الذى تعب فى تحصيله ، وأفنى عمره فى حفظه وبطر الحق لأجله ، إذا هلك ، من قولهم (تردى من الجبل فى الهوة) وفى التعبير به إشارة إلى أنه بما قدمه من أعماله الخبيثة ، هو المهلك والموقع لنفسه . وهو الحافر على حتفه بظلمه و (ملا) نافية أو استفهام فى معنى الإنكار . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ)

[١٣] (وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ)

[١٤] (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ)

[١٥] (لَا يُصَلِّمَهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ)

[١٦] (الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ)

[١٧] (وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَىٰ)

[١٨] (الَّذِي يُوقِتُ مَالَهُ وَيَتَذَكَّرَىٰ)

[١٩] (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ)

[٢٠] (إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ)

[٢١] (وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ)

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ « استثناف مقرر لما قبله . أى علمينا بموجب قضائنا المبني على الحكم البالغة ، حيث خلقنا الخلق للإصلاح فى الأرض ، أن نبين لهم طريق الهدى ليجتنبوا مواقع الردى . وقد فعل سبحانه ذلك بإرسال الرسل ، وإزال السكتب ، والتسكين من الاستدلال والاستبصار ، بخلق العقل وهبة الاختيار .

« وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ » أى ملكا وخلقاً . فلا يضرنا توليكم عن الهدى . وذلك لغناه تعالى المطلق ، وتفرد به بملك ما فى الدارين ، وكونه فى قبضة تصرفه . لا يحول بينه وبينه أحد ، ولا يحصله أحد ، حتى يضر عدم اهتدائه أو ينفع اهتداؤه . وفيه إشارة إلى تنافى عظمته وتكامل قهره وجبروته . وإن من كان كذلك ، فجدير أن يبادر لطاعته ويحذر من معصيته . ولذا رتب عليه قوله « فَأَنْذَرْنَاكُمْ نَارًا تَلْظَىٰ » أى تتأظى وتتوهج . وهى نار الآخرة « لَا يَصْلُهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ » أى بالحق الذى جاءه « وَتَوَلَّىٰ » أى عن آيات ربه وبراهيمها التى وضع أمرها وبهر نورها ، عناداً وكفراً « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ وَيتَرَكَى » أى ينفق ماله فى سبيل الخير ، يتركى عن رجس البخل ودانس الإمساك « وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ » أى من يد يكافئه عليها . أى لا يؤتية للمكافأة والمعاوضة « إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ » أى لكن يؤتية ابتغاء وجهه وطلب مرضاته . لا تفرض آخر من مكافأة أو محمدة أو سمعة . وفى حصر (الاتقى) بالمنفق ، على الشريطة المذكورة ، عناية عظيمة به ، وترغيب شديد فى اللحاق به ، كيف لا ؟ وبالمال قوام الأعمال ، ورفع مباني الرشاد وهدم صروح الفساد . وقوله تعالى ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ » قال ابن جزير (١) : أى ولسوف يرضى هذا المؤتى ماله فى حقوق الله عز وجل ، يتركى بما يثيبه الله فى الآخرة عوضاً مما أتى فى الدنيا فى سبيله إذا لقي ربه تبارك وتعالى . ففيه وعد كريم بنيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها ، إذ به يتحقق الرضا . وهذا على ، إن ضمير (يرضى) لـ (الاتقى) لا للرب . قال الشهاب : وهو الأنسب بالسياق واتساق الضمائر .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

وذهب بعضهم إلى الثاني ، ومنهم الإمام ، قال : أى وسوف يرضى الله عن ذلك الأتقى .
الطالب بصفة رضاه (ثم قال) : والتعبير بـ (سوف) لإفادة أن الرضا يحتاج إلى بذل كثير ،
ولا يكفي القليل من المال ، لأن يبلغ العبد درجة الرضا الإلهي .

تنبيه :

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق
رضي الله عنه . حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك . ولا شك أنه داخل فيها ،
وأولى الأمة بعمومها . فإن اللفظ لفظ العموم وهو قوله تعالى (١) (وَسَيَجْزِيهَا الْأَتَقَى * الَّذِي
يُؤْتِي مَالَهُ وَيَتَرَكَ * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى) ولكنه مقدم الأمة وسابقتهم في
جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة . فإنه كان صديقاً تقيماً كريماً جواداً بذلاً لأمواله
في طاعة مولاه ونصرة رسول الله ﷺ . فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم .
ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها . ولكن كان فضله وإحسانه على
السادات والرؤساء من سائر القبائل . ولهذا قال له عروة بن مسعود ، وهو سيد تقيف ، يوم
صلح الحديبية : أما والله ! لولا يدك عندي لم أجرك بها ، لأجبتك . وكان الصديق قد أغلظ
له في المقالة . فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل ، فكيف بمن عداهم ؟
وفي الصحيحين (١) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أتفق زوجين في سنبل الله
دعته خزنة الجنة : يا عبد الله هذا خير . فقال أبو بكر : يا رسول الله ! ما على من يدعى منها ضرورة ،
فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم . انتهى .

(١) [٩٢ / الليل / ١٧ - ١٩] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ٤ - باب الريان للصائمين ، حديث

رقم ٩٦٣ ، عن أبي هريرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٣ - سُورَةُ الضُّحَى

مكية وآيها إحدى عشرة .

لطيفة :

قال ابن كثير : روينا من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ قال : قرأت على عكرمة بن سليمان ، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد . فلما بلغت (والضحى) قال لى : كبر حتى تحتم مع خاتمة كل سورة . فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك . وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك . وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك . وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك . وأخبره أبي أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك . فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزى ، من ولد القاسم بن أبي بزة . وكان إماماً في القراءات . وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازى وقال : لا أحدث عنه . وكذلك أبو جعفر العقيلى ، قال : هو منكر الحديث . لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في (شرح الشافعى) أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة ، فقال : أحسنت وأصبت السنة . وهذا يقتضى صحة هذا الحديث . ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفية . فقال بعضهم : يكبر من آخر (والليل إذا يغشى) . وقال آخرون : من آخر (والضحى) وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول (الله أكبر) ويقتصر ، ومنهم من يقول (الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر) وذكر القراء في مناسبة التكبير من أول سورة الضحى ، أنه لما تأخر الوحي من رسول الله ﷺ ، وفترتلك المدة ، ثم جاء الملك فأوحى إليه (وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى) السورة بتامها ، كبر فرحاً وسروراً ، ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف . فإله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالضُّحَىٰ)

[٢] (وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ)

[٣] (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ)

[٤] (وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ)

[٥] (وَلَسَوْفَ يُمْطِرُكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ)

« وَالضُّحَىٰ » تقدم فى سورة (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) تفسير الضحى بالضوء وارتفاع النهار ارتفاعاً عالياً « وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ » أى اشتد ظلامه . وأصله من التسجية وهى التغطية ، لستره بظلمته . كما فى آية^(١) (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا) « مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ » جواب القسم . أى : ما تركك وما قطعك قطع المودع .

قال الشهاب فى (العناية) : فالتوديع مستعار استعارة تبعية للترك هنا . وفيه من اللطف والتعظيم ما لا يخفى . فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب ومن تعزّ مفارقتهم . كما قال المتنبي :

حشاشة نفس ودّعت يوم ودّعوا فلم أدّر أىّ الظاعنين أشيخ

وقال فى (شرح الشفاء) : الوداع له معنيان فى اللغة : الترك وتشجيع المسافر .

فإن فسر بالتانى هنا على طريق الاستعارة ، يكون فيه إيماء إلى أن الله لم يتركه أصلاً .

فإنه معه أينما كان . وإنما الترك ، لو تصور فى جانبه ، ظاهر مع دلالاته بهذا المعنى على الرجوع .

فالتوديع إنما يكون لمن يحب ويرجى عوده . وإليه أشار الأرجاني بقوله :

[(١) [٧٨ / النبأ / ١٠] .

إِذَا رَأَيْتَ الْوَدَاعَ فَاصْبِرْ ۖ وَلَا يُهِمُّكَ الْبِعَادُ
وَانْتَظِرِ الْعَوْدَ عَنْ قَرِيبٍ ۖ فَإِنْ قَلَبَ الْوَدَاعَ (عَادُوا)

فقوله (وَمَا قَلَىٰ) مؤكداً له . (قال) : وهذا ، لم أر من ذكره مع غاية لطفه . وكلهم فسروه بالمعنى الأول . ولما رأوا صيغة الفعل تفيد زيادة المعنى والمبالغة فيه . فيقتضى الانقطاع التام ، قالوا : إن المبالغة في النفي لا في المنفى فتركة لحكم عليه ، لا لضرره بهجره . أو لنفي القيد والمقيد . وقرىء (مَا وَدَعَكَ) بالتخفيف . وورد في الحديث^(١) شر الناس من ودعه الناس اتقاء فحشه . وورد في الشعر ، كقوله^(٢) :

فَكَانَ مَا قَدَّمُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرًا مِنْ الَّذِي وَدَعُوا

ولهذا قال في (المصباح) بهذا : اعلم أن قولهم ، في عم التصريف ، أماتوا ماضى يدع ويذر خطأ . وجعله استعارة من الودية تعسف . انتهى .

وكذا قال في (المستوفى) : أنه كله ورد في كلام العرب ، ولا عبرة بكلام النحاة فيه ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل . وإن كان نادر . انتهى .

وقوله تعالى «وَمَا قَلَىٰ» أى : وما أبفضك . والقالى : البفض . يعنى ما هجرك عن بفض . قال الشهاب : وحذف مفعول (قلى) اختصاراً للعلم به ، وليجربى على نهج الفواصل التى بعده ، أو لثلاث مخاطبه بما يدل على البفض .

تنبيه :

روى ابن جرير^(٣) عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما نزل عليه القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً ،

(١) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٤٨ - باب ما يجوز من اغتياب

أهل الفساد والريب ، حديث رقم ٢٣٣٠ ، عن عائشة .

(٢) أنشده في اللسان (مجلد ٨ ص ٣٨٤) الطبعة البيروتية .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٣١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

فُمَيَّرَ بذلك . فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه . فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ آيَةَ ، وفي رواية : إن قائل ذلك امرأة أبي لهب ، وفي أخرى أنها خديجة رضى الله عنها . ولاتفافى ، لاحتمال صدورهم من الجميع . إلا أن قول المشركين وقول خديجة - إن صح - توجع وتحزن - وفي رواية بإسماعيل مولى آل الزبير قال : فتر الوحي حتى شق ذلك على النبي ﷺ وأحزنه . فقال : لقد خشيت أن يكون صاحبي قلاني . فجاء جبريل بسورة والضحى « وَاللَّخْرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى » قال ابن جرير^(١) : أى وللدار الآخرة ، وما أعد الله لك فيها ، خير لك من الدار الدنيا وما فيها . يقول : فلا تحزن على ما فاتك منها ، فإن الذى لك عند الله خير لك منها . وقال القاضى : أو : لِنَهَائِهِ أَمْرَكَ خَيْرٌ مِنْ بَدَائِهِ . فإنه ﷺ لا يزال يتصاعد فى الرفعة والكمال « وَأَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » أى يعطيك من فواضل نعمه فى العقبى حتى ترضى ، وهذه عِدَّةٌ كريمة شاملة لما أعطاه الله تعالى فى الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخريين ، وظهور الأمر وإعلاء الدين ، بالفتح الواقعة فى عصره عليه الصلاة والسلام ، وفى أيام خلفائه الراشدين وغيرهم من ملوك الإسلام ، وفسوّ دعوته فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولما ادخر له من الكرامات التى لا يعلمها إلا الله تعالى . وبالجملة ، فهذه الآية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام فى الدارين ، حيث أجمله ووكله إلى رضاه وهذا غاية الإحسان والإكرام .

تنبيه :

قال فى (المواهب اللدنية) : وأما ما يفترّ به الجهال من أنه لا يرضى واحدا من أمته فى النار ، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار ، فهو من غرور الشيطان لهم ، ولعبه بهم . فإنه صلوات الله عليه وسلامه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى ، وهو سبحانه وتعالى يدخل النار من يستحقها من الكفار والمصاة . وقد ولع الحشوية بتقوية أمثال هذه الآثار المفتراة تقريراً للجهال وتزيينا لموارد الضلال . ولا حول ولا قوة إلا بالله . وقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ)

[٧] (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ)

[٨] (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ)

[٩] (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

[١٠] (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

[١١] (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ « قال أبو السمود : تمديد لما أفاض عليه من أول أمره إلى ذلك الوقت ، من فنون النعماء العظام ، ليستشهد بالحاضر الموجود على المترقب الموعود . فيطمئن قلبه وينشرح صدره ، والهمزة لإنكار النفي وتقرير المنفى على أبلغ وجه . كأنه قيل : قد وجدك الخ . والوجود بمعنى العلم .

روى أن أباه مات وهو جنين قد أنت عليه ستة أشهر . وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب وعطفه الله عليه فأحسن تربيته ، وذلك إيواؤه « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ » أى غافلاً عما أوحاه إليك من الهدى والفرقان ، فهداك إليه وجعلك إماماً له ، كما فى آية^(١) (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتَبُ وَلَا الْإِعْمَانُ) .

قال الشهاب : فالضلال مستعار من (ضل فى طريقه) إذا سلك طريقاً غير موصلة لمقصده لعدم ما يوصله للعلوم النافعة ، من طريق الاكتساب « وَوَجَدَكَ عَائِلًا » أى فقيراً « فَأَغْنَىٰ » أى فأغناك بمال خديجة الذى وهبته إياه . أو بما حصل لك من ربح التجارة « فَأَمَّا

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ « فلا تغلبه على ماله فتذهب بحقه، استعطافاً منك له » وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ « قال ابن جرير (١) : أى وأما من سألك من ذى حاجة فلا تنهره ، ولكن أطعمه واقض له حاجته . أى لأن للسائل حقاً ، كما قال تعالى (٢) (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) .

وقد ذهب الحسن - فيما نقله الرازى - إلى أن المراد من السائل من يسأل العلم . فيكون فى مقابلة قوله تعالى (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ) وهكذا قال ابن كثير: أى وكما كنت ضالاً فهداك الله ، فلا تنهر السائل فى العلم المسترشد . قال الإمام: ويؤيد هذا المعنى ماورد فى أحوال الذين كانوا يسألونه عليه الصلاة والسلام بيان مايشتهيه عليهم . ففهم أهل الكتاب الممارون . ومنهم الأعراب الجفاة . ومنهم من كان يسأل عما لايسأل عنه الأنبياء . فلا غرو أن يأمره الله تعالى بالرفق بهم ، وينهاه عن نههم ، كما عاتبه على التولّى عن الأعمى السائل ، فى سورة عبس . انتهى .

« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » أى بشكرها وإظهار آثارها ، فيرغب فيما لديه منها ، ويحرص على أن تصدر المحاويع عنها . وهذا هو سر الأمر بالتحدث بها . وفى الآية تنبيه على أدب عظيم . وهو التصدى للتحدث بالنعمة وإشهارها ، حرصاً على التفضل والجود والتخلق بالكرم ، وفراراً من رذيلة الشح الذى رائده كتم النعمة والتسكن والشكوى .

قال الإمام: من عادة البخلاء أن يكتموا ما لهم ، لتقوم لهم الحجة فى قبض أيديهم عن البذل . فلا تجدهم إلا سالكين من القل . أما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل ما آتاهم الله من فضله ، ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه . فلهذا صح أن يجعل التحديث بالنعمة كنهاية عن البذل وإطعام الفقراء وإعانة المحتاجين . فهذا هو قوله (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) أى إنك

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٧٠ / المعارج / ٢٤ و ٢٥] .

لما عرفت بنفسك ما يكون فيه الفقير ، فأوسع في البذل على الفقراء . وليس القصد هو مجرد ذكر الثروة ، فإن هذا من المفجعة التي يقتره عنها النبي ﷺ . ولم يعرف عنه في امتثال هذا الأمر أنه كان يذكر ما عنده من نقود وعروض . ولكن الذي عرف عنه أنه كان ينفق ما عنده ويبيت طاوياً . وقد يقال : إن المراد من النعمة النبوة . ولكن سياق الآيات يدل على أن هذه الآية مقابلة لقوله (وَوَجَدَكَ عَمَّيًّا) فتكون النعمة بمعنى الغنى . ولو كانت بمعنى النبوة ، لكانت مقابلة لقوله (وَوَجَدَكَ ضَالًّا) وقد علمت الحق في مقابله . والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٤ - الشرح

مكية . وقيل : مدنية ، وهو الأقوى عندي . فإن استقرار هذه النعم المعدودة فيها ، إنما كان بالمدينة المنورة ، كما لا يخفى . وآيها ثمان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

[٢] (وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ)

[٣] (الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ)

[٤] (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

« أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ » أى : ألم نوسعه بإلقاء ما يسره ويقويه ، وإظهار ما خفي عليه من الحكم والأحكام ، وتأبيده وعصمته ، حتى علم ما لم يعلم وصار مستقراً بالحكمة ووعاء حقائق الأنبياء ، والهزمة لإنكار النفي . ونفى النفي إثبات . ولذا عطف المثبت عليه . وأصل الشرح بسط اللحم ونحوه ، مما فيه توسيع مستلزم لإظهار باطنه ، وما خفي منه . استعمل في القلب الشرح والسعة ، لأنه محل الإدراك لما يسرّ وضده . فجعل إدراكه لما فيه مسرة يزيل ما يحزنه ، شرحاً وتوسيماً . وذلك لأنه بالإلهام ونحوه ، مما ينفس كربته ويزيل همه ، بظهور ما كان غائباً عنه وخفياً عليه ، مما فيه مسرته . كما يقال (شرح الكتاب) إذا وضحه . ثم استعمل في الصدر الذى هو محل القلب مبالغة فيه . لأن اتساع الشيء يتبعه اتساع ظرفه . ولذا تسمع الناس يسمون السرور بسطاً . ثم سموا ضده ضيقاً وقبضاً . وهو من المجاز المتفرع على الكفاية بوسائط ، وبعد الشروع زال الخفاء وارتفعت الوسائط - هذا ما حقه الشهاب . « وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ » قال الشهاب : الوزر الحمل الثقيل . ووضعها : إزالته عنه . لأنه إذا تعدى بـ (على) كان بمعنى التحميل . وإذا تعدى بـ (من) كان بمعنى الإزالة . والإنقاض : حصول النقيض وهو صوت فقرات الظهر . وقيل : صوت الجمل أو الرجل

أو الركوب إذا ثقل عليه . فالإنقراض، التثقيب في الحمل حتى يسمع له تقيض، أى صوت، كما قاله الأزهرى .

وقال ابن عرفة: هو إئثار يجعل ما حمل عليه نقضاً . أى مهزولاً ضعيفاً . وقد مثل بذلك حاله صلوات الله عليه ، مما كان يثقل عليه وينغمه من قلة المستجيبين لدعوته، وضعف من سبق إلى الإيمان به ، وشيوع الشرك والضلال في جزيرة العرب ، وقوة أهلها . ووضع عنه هو كثرة من آمن بعدد ، ودخولهم في دين الله أفواجا ، وقوة أتباعه وانحساء الشرك والجاهلية من الجزيرة، وذل أهلها بعد العز، وانقيادهم بعد شدة الإيذاء . وقيل : الآية كناية عن عصمته وتطهيره من دنس الآثام كقوله^(١) (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) .
والوجه الأول أقوى ، وفي الآية ، على كلِّ ، استعارة تمثيلية . والوضع ترشيح لها «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» أى بالنبوة وفرض الاعتراف برسالاته وجعله شرطا في قبول الإيمان وصحته . وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة . فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادى بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وعن مجاهد: أى لا أذكر إلا ذكرت معى . قال الشهاب وهذا - أى المأثور عن مجاهد - إن أخذ كناية خالف الواقع . فإنه كم ذكر الله وحده ! وكم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وحده ! وإن عين موضعاً فهو ترجيح بلا مرجح . وإن جمعت القضية مهملة ، فلا يخفى مافى الإهمال من الركائز .

قال : وقد أمعنت فيه النظر فلم أر ما يثلاج الصدر ، ويرد السائل غير صفر ، حتى لاح لى أن الجواب الحق أن يقال : الذكر محمول على الذكر في مجامع العبادة ومشاهدتها . فإن ذكره ﷺ مقرون بذكره فيها في الواقع في الصلوات والخطب . فلا ترى مشهداً من مشاهد الإسلام

(١) [٤٨ / الفتح / ٢] .

إلا وهو كذلك. فلا ينفك ذكره ﷺ عن ذكره تعالى في يوم من الأيام، ولا ليلة من الليالي بل ولا في وقت من الأوقات المعتدّ بها ، فتتجه السكّاية. فإن قلت: من أين لك هذا التقييد، فهل هو إلا ترجيح من غير مرجح؟ قلت: المقام ناطق بهذا التقييد. فإن المراد التنويه بذكره ﷺ وإشاعة قدره، الدال على قربته ﷺ من ربه، كقرب اسمه من اسمه، وإنما يكون هذا بذكره في المحافل والمشاهد والجوامع والمساجد. وأي إشاعة أقوى من الأذان؟ لاني الأسواق والطرق التي يطرح فيها كل ذكر.

ثم قال: واعلم أن تحقيق هذا المقام ما قاله الإمام الشافعيّ في أول (رسالته الجديدة) وبينه السبكيّ في تعليقه على الرسالة فقال رحمه الله تعالى:

قال الإمام رضى الله تعالى عنه عن مجاهد في تفسير الآية: لا أذكر إلا ذكرت معي: أشهد أن لا إله إلا الله. وأشهد أن محمداً رسول الله. قال الشافعيّ: يعنى ذكره عند الإيمان بالله والأذان، ويحتمل ذكره عند تلاوة القرآن وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية. قال السبكيّ: هذا الاحتمال من الشافعيّ جيد جداً. وهو مبني على أن المراد بالذكر، الذكر بالقلب، وهو صحيح. فعلى هذا يعم. لأن الفاعل للطاعة أو الكفّ عن المعصية امتثالاً لأمر الله تعالى به، ذاكر للنبي ﷺ بقلبه، لأنه المبلغ لها، عن الله. وهذا أعم من الذكر باللسان، فإنه مقصور على الإسلام والأذان والشهد والخطبة ونحوها. قال الشافعيّ: فلم تُمسّ بنا نعمة ظهرت ولا بطنّت، نلنا بها حظاً في دين أو دنيا. أو رفع عنا بها مكروه فيهما أو في واحد منهما، إلا ومحمد ﷺ سبها. فعلم من هذا أنه إن أبق العموم والحصر على ظاهره، حمل الذكر على الذكر القلبيّ فيشمل كل موطن من مواطن العبادة والطاعة، فإن العاقل المؤمن إذا ذكر الله، تذكر من دل على معرفته وهداه إلى طاعته، وهو رسول الله ﷺ، كما قيل:

فأنت باب الله. أي امرئ أتاه من غيرك لا يدخل؟

ولك أن تقول: المراد برفع ذكره تشریفه ﷺ ، بمقارنته لذكره في شعائر الدين الظاهرة، وأولها كلتا الشهادة، وهما أساس الدين ثم الأذان والصلاة والخطب. فالحصر إضافي . انتهى كلام الشهاب . وقوله تعالى :

التقول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)

[٦] (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)

[٧] (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ)

[٨] (وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب)

« فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » إشارة إلى أن الذي منحته، صلوات الله عليه، من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر، بعد ضيق الأمر واستحكام حلقات الكرب في أول السير، كان على ما جرت به سنته تعالى في هذا النوع من الخليقة . وهو أن مع العسر يسراً . ولهذا وصل العبارة بالفاء التي لبيان السبب . (وأل) في (العسر) للاستعراق ولكنه استعراق بالمعهود عند المخاطبين من أفراد أو أنواعه . فهو العسر الذي يعرض من الفقر والضعف وجهل الصديق وقوة العدو ، وقلة الوسائل إلى المطلوب . ونحو ذلك مما هو معهود ومعروف . فهذه الأنواع من العسر مهما اشتدت ، وكانت النفس حريصة على الخروج منها طالبة لكشف شدتها ، واستعملت من وسائل الفكر والنظر والعمل ما من شأنه أن يمدد لذلك في معروف العقل ، واعتصمت بعد ذلك بالتوكل على الله حتى لا تضعفها الخيبة لأول مرة ، ولا يفسخ عزيمتها ما تلاقيه عند الصدمة الأولى ، فلا ريب في أن النفس تخرج منها ظافرة . وقد كان هذا حال النبي ﷺ . فإن ضيق الأمر عليه كان يحمله على الفكر والنظر حتى آتاه الله ما هو أكبر من ذلك، وهو الوحي والنبوة . ثم لم تسكس مقاومات قومه شيئاً من عزمه . بل مازال ياتمس

الغنى في الفقر، والقوة في الضعف، حتى أوتي من ذلك ما زعزع أركان الأكامرة والقياصرة، وترك منه لأمته ما تمتعت به أعصاراً طويلاً. أفاده الإمام رحمه الله .

لطيفة :

تنكير (يسراً) للتعظيم . والمراد يسر عظيم وهو يسر الدارين . وفي كلمة (مع) إشعار بغاية سرعة مجيئ اليسر، كأنه مقارن للعسر . فهو استعارة، شبه التقارب بالتقارن، فاستمير لفظ (مع) لمعنى (بمد) . وقوله تعالى «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» تكرير للتأكيد، أو عِدَّةٌ مُسْتَأْتَةٌ بأن العسر مشفوع بيسر آخر كشواب الآخرة . وعليه أثر^(١) : (لن يغلب عسر يسرين) فإن المرء إذا أعيد يكون الثاني عين الأول، سواء كان معهوداً أو جنساً. وأما المنكر فيحتمل أن يراد بالثاني فرد مغاير لما أريد بالأول «فَإِذَا فَرَغْتَ» أى من عملٍ من أعمالك النافعة لك ولأمتك «فَأَنْصَبْ» أى خذ في عمل آخر واتعب فيه . فإنك تجد لذة الراحة عقب النصب بما تجنيه من ثمرة العمل ، قاله الإمام «وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ» أى في الدعوة إليه . أى لا ترغب إلا إلى ذاته ، دون ثواب أو غرض آخر ، لتكون دعوتك وهدايتك إليه ، قاله القاشاني .

وقال ابن جرير^(٢) : اجعل نيتك ورغبتك إليه دون من سواه من خلقه . إذ كان هؤلاء المشركون من قومك قد جعلوا رغبتهم في حاجتهم إلى الآلهة والأنداد ، والأظهر عسدي ، اعتماداً على ما صححناه من أن الآية مدنية وأنها من أواخر ما نزل - أن يكون معنى قوله تعالى

(١) هذا الأثر أخرجه الإمام مالك في الموطأ في : ٢١ - كتاب الجهاد، حديث ٦ (طبعتنا) ونصه : عن زيد بن أسلم قال : كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم . فكتب إليه عمر بن الخطاب : أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة ، يجعل الله بعده فرجاً ، وإنه لن يغلب عسر يسرين ... الخ .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٣٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(فَأِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ) أى فرغت من مقارعة المشركين ، وظفرت بأمنيتك منهم ،
بمجيء نصر الله والفتح ، فانصب فى العبادة والتسبيح والاستغفار ، شكراً لله على ما أنعم ،
وارغب إليه خاصة ابتغاء لمرضاته . فتكون الآيتان بمعنى سورة (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)
ثم رأيت ابن جرير نقل مثله عن ابن زيد عن أبيه قال : فإذا فرغت من الجهاد ، جهاد العرب
وانقطع جهادهم ، فانصب لعبادة الله وإليه فارغب . وهو ظاهر . نعم لفظ الآية عام فيما أثناه
جميعه . إلا أن السياق والنظائر - وهو أهم ما يرجع إليه - يؤيد ما قاله ابن زيد واعتمدهنا .
والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٥ - سُورَةُ التِّينِ

مكية ، ويقال : مدنية . وأيد الأول بقوله (وَهَذَا الْبَلَدِ) وآيها ثمان . روى عن البراء بن عازب (٢) أن النبي ﷺ كان يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون . فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . أخرجه الجماعة .

(١) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٥٢ - باب قول النبي ﷺ « الماهر بالقرآن مع الكرام البررة ، وزينوا القرآن بأصواتكم » ، حديث رقم ٤٦٧ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ)

[٢] (وَطُورِ سَيْنِينَ)

[٣] (وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ)

اعلم أن المفسرين لم يختلفوا في أن البلد الأمين مكة المشرفة ، الآمن أهلها أن يحاربوا . كما قال تعالى ^(١) (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) وأما المقسمات بها قبيل ، ففيها أقوال للسلف لاحتمال موادها لسكل منها . فمن مجاهد والحسن وغيرها أن (التين) الذي يؤكل و (الزيتون) الذي يعصر . قالوا : وخصهما لكثرة فوائدهما وعظم منافعهما . وعن قتادة (التين) الجبل الذي عليه دمشق و (الزيتون) الذي عليه بيت المقدس . وعن كعب وابن زيد : (التين) مسجد دمشق و (الزيتون) بيت المقدس وعن ابن عباس : (التين) مسجد نوح الذي بنى على الجودي و (الزيتون) بيت المقدس . فظهر أنهما الشجران المعلومان أو جبلان أو مسجدان . وصوب ابن جرير الأول منها ، وعبارته ^(٢) : والصواب من القول في ذلك عندنا ، قول من قال (التين) هو التين الذي يؤكل و (الزيتون) هو الزيتون الذي يعصر منه الزيت . لأن ذلك هو المعروف عند العرب . ولا يعرف جبل يسمى تيناً ولا جبل يقال له زيتون ، إلا أن يقول قائل : أقسم ربنا جل ثناؤه بالتين والزيتون ، والمراد من الكلام ، القسم بمنابت التين ومنابت الزيتون ، فيكون ذلك مذهبا وإن لم يكن على صحة ذلك أنه كذلك ، دلالة في ظاهر التنزيل ولا من قول من لا يجوز خلافه ، لأن دمشق بها منابت

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٤٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

التين ، وبيت المقدس منابت الزيتون . انتهى كلامه . وفيه نظر ، لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ . كيف وجبل الزيتون هو من جبال فلسطين ، معروف ذلك عند علماء أهل الكتاب والمؤلفين في تقويم البلاد .

قال صاحب (الذخيرة) في تعداد جبال فلسطين : ويتصل بجبال إسرائيل جبل الزيتون . قال : وقد دعي كذلك لكثرة الزيتون فيه ، وهو قريب المسافة من أورشليم ، وفيه صعد المسيح لكي يرتفع إلى السماء . انتهى .

ويسمى أيضا طور زيتا إلى الآن . على أن فيما صوبه ابن جرير ، تبقى المناسبة بينهما وبين طور سينين والبلد الأمين وحكمة جمعهما معهما في نسق واحد - غير مفهومة . كما قاله الإمام . فالأرجح أنهما موضعان أو موضع واحد معظم ، ويكون المقسم به ثلاثة مواضع مقدسة . قال ابن كثير : وقال بعض الأئمة : هذه محال ثلاثة بعث الله من كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار . فالأول محل التين والزيتون وهو بيت المقدس الذي بعث الله فيه عيسى ابن مريم عليهما السلام .

والثاني : طور سينين ، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران .
والثالث : مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً ، وهو الذي أرسل فيه محمد ﷺ .
وفي التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء : يعنى الذي كلم الله عليه موسى . وأشرق من ساعير : يعنى جبل بيت المقدس الذي بعث الله عنه عيسى . واستعملن من جبال فاران : يعنى جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ . فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودى بحسب ترتيبهم في الزمان . ولهذا أقسم بالأشرف ، ثم الأثرف منه ، ثم بالأشرف منهما . انتهى كلام ابن كثير .

ومراد بعض الأئمة ، شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية عليه الرحمة والرضوان . فإنه ذكر ذلك في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ونحن نفضلها زيادة في إيضاح المقام ، واهتماماً بتحقيقه .

قال رحمه الله (فصل شهادة الكتب المتقدمة بنبوته ﷺ) : وذلك مثل قوله في التوراة ما قد ترجم بالعربية : جاء الله من طور سيناء . وبعضهم يقول في الترجمة : تجلى الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران . قال كثير من العلماء (واللفظ لأبي محمد بن قتيبة) : ليس بهذا خفاء على من تدبره . ولا غموض . لأن مجيئاً الله من طور سيناء ، إزاله التوراة على موسى بطور سيناء . كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا . وكذلك يجب أن يكون إشرافه من ساعير ، إزاله على المسيح الإنجيل . وكان المسيح من ساعير أرض الجليل بقرية تدعى ناصرة ، وباسمها تسمى من أتبعه نصارى . وكما يجب أن يكون إشرافه من ساعير بالمسيح ، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران ، إزاله القرآن على محمد ﷺ في جبال فاران . وهي جبال مكة .

قال : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة . فإن ادعوا أنها غير مكة - وليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم - قلنا أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران ؟ وقلنا دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران ، والنبي الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح . أو ليس استعلن وعلم بمعنى واحد وهما : ظهر وانكشف . فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوّه ؟؟

وقال أبو هاشم بن ظفر : ساعير جبل بالشام ، منه ظهرت نبوة المسيح عليه السلام . قلت : وبجانب بيت لحم - القرية التي ولد فيها المسيح - قرية تسمى إلى اليوم ساعير . ولها جبال تسمى جبال ساعير ، وعلى هذا فيكون ذكر الثلاثة الجبال : جبل حراء الذي ليس حول مكة جبل أعلى منه ، وفيه كان أول نزول الوحي على النبي ﷺ ، وحوله من الجبال جبال كثيرة . وذلك المكان يسمى فاران إلى هذا اليوم . وفيه كان ابتداء نزول القرآن . والبرية التي بين مكة وطور سيناء تسمى برة فاران . ولا يمكن أحداً أن يدعى أنه بعد المسيح ، نزل كتاب

في شيء من تلك الأرض ، ولا بعث نبي . فلم أن ليس المراد باستعلامه من جبال فاران ، إلا إرسال محمد ﷺ . وهو سبحانه ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزماني . فذكر إزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن . وهذه الكتب نور الله وهداه .

وقال في الأول : جاء أو ظهر . وفي الثاني : أشرق . وفي الثالث : استعلن . وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر أو ما هو أظهر من ذلك . ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس زاد به النور والهدى . وأما نزول القرآن فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء . ولهذا قال : واستعلن من جبال فاران . فإن محمداً ﷺ ظهر به نور الله وهداه في شرق الأرض وغربها ، أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين ، كما يظهر نور الشمس إذا استعلنت في مشارق الأرض ومغاربها . ولهذا سماه الله سراجاً منيراً . وسمى الشمس سراجاً وهاجاً . والخلق محتاجون إلى السراج المنير ، أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج . فإن الوهاج يحتاجون إليه في وقت دون وقت . بل قد يتضررون به بعض الأوقات . وأما السراج المغير فيحتاجون إليه في كل وقت ، وكل مكان ، ليلاً ونهاراً ، سرّاً وعلانية . وقد قال ﷺ (١) : زُوِيَتْ لِي الْأَرْضُ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا . وسيلنغ ملك أمتي مازوى لي منها . وهذه الأماكن الثلاثة ، أقسم الله بها في القرآن في قوله (وَالزَّيْتُونَ وَالزَّبَّتُونَ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) فأقسم بالتين والزيتون ، وهو الأرض المقدسة التي ينبت فيها ذلك ، ومنها بعث المسيح وأنزل عليه فيها الإنجيل . وأقسم بطور سيناء وهو الجبل الذي كلم الله موسى وناداه فيه ، من واديه الأيمن ، في البقعة المباركة من الشجرة - وأقسم بهذا البلد الأمين وهو مكة الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل ، وأمه هاجر فيه . وهو الذي (٢) جعله الله حرماً آمناً ويتخطف الناس من حوله . وجعله آمناً خلقاً وأمراً ، قدراً وشرعاً .

(١) أخرجه مسلم في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشراف الساعة ، حديث رقم ١٩ (طبعتنا)

عن ثوبان . (٢) يشير إلى الآية الكريمة رقم ٦٧ من سورة المعنكبوت .

ثم قال (ابن تيمية) : فقوله تعالى (وَالتِّينِ وَ الزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة . التي ظهر فيها نوره وهداه ، وأنزل فيها كتبه الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن . كما ذكر الثلاثة في التوراة بقوله : جاء الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعملن من جبال فاران .

ولما كان مافي التوراة خبرا عنها ، أخبر بها على ترتيبها الزماني ، فقدم الأسبق فالأسبق . وأما في القرآن ، فإنه أقسم بها تعظيما لشأنها . وذلك تعظيم لقدرته سبحانه وآياته وكتبه ورسله . فأقسم بها على وجه التدرج درجة بعد درجة . فحتمها بأعلى الدرجات . فأقسم أولا بالتين والزيتون ، ثم بطور سينين ، ثم بمكة . لأن أشرف الكتب الثلاثة القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل . وكذلك الأنبياء ، فأقسم بها على وجه التدرج كما في قوله (١) (وَالذَّرِّيَّتِ ذُرْوًا * فَأَلْحَمِلْتِ وِقْرًا * فَأَلْجَرِيَّتِ يَسْرًا * فَأَلْمُقْسِمَاتِ أُمَّرًا) فأقسم بطبقات مخلوقات طبقة بعد طبقة . فأقسم بالرياح الداريات ثم بالسحاب الحاملات للمطر فإنها فوق الرياح ، ثم بالجزاريات يسرًا ، وقد قيل إنها السفن ، ولكن الأنسب أن تكون هي الكواكب المذكورة في قوله (٢) (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ * الْجَوَارِ الْكُنُفِ) فسمها جوارى كما سمي الفلك جوارى في قوله (٣) (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ) والكواكب فوق السحاب ثم قال (٤) (فَأَلْمُقْسِمَاتِ أُمَّرًا) وهي الملائكة التي هي أعلى درجة من هذا كله .

واستظهر بعض المعاصرين أن قوله تعالى (وَالتِّينِ) يعني به شجرة (بوذا) مؤسس الديانة البوذية ، التي تحرفت كثيراً عن أصلها الحقيقي . لأن تعاليم بوذا لم تسكتب في زمنه . وإنما رويت كالأحاديث بالروايات الشفهية . ثم كتبت بعد ذلك حينما ارتقى أتباعها . ثم قال : والراجح عندنا ، بل المحقق إذا صح تفسيرنا لهذه الآية ، أنه كان نبياً صادقاً

(١) [٥١ / الداريات / ٤-١] . (٢) [٨١ / التكوير / ١٥ و ١٦] .

(٣) [٤٢ / الشورى / ٣٢] . (٤) [٥١ / الداريات / ٤] .

ويسمى (سكياموتى) أو (جوناما) وكان في أول أمره يأوى إلى شجرة تين عظيمة وتحتهما نزل عليه الوحي . وأرسله الله رسولاً . فجاءه الشيطان ليفتنه هناك فلم ينتجج معه . ولهذا الشجرة شهرة كبيرة عند البوذيين ، وتسمى عندهم (التيبة المقدسة) وبلغتهم (أچاپالا) . قال : فى هذه الآية ذكر الله تعالى أعظم أديان البشر الأربعة الموحاة منه تعالى لهدايتهم ونفعهم فى دينهم ودنياهم . فالقسم فيها كالتهميد لقوله بدمه (أَقَدَّ حَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) إلى آخر السورة .

قال : ولا يزال أهل الأديان الأربعة هم أعظم أمم الأرض وأكثرهم عدداً وأرقاماً . والترتيب فى ذكرها فى الآية ، هو باعتبار درجة صحتها بالنسبة لأصولها الأولى . فبدأ تعالى بالقسم بالبوذية لأنها أقل درجة فى الصحة وأشد الأديان تحريفاً عن أصلها . كما يبدأ الإنسان بالقسم بالشىء الصغير ، ثم يرتقى للتأكد إلى ما هو أعلى . ثم النصرانية وهى أقل من البوذية تحريفاً . ثم اليهودية وهى أصح من النصرانية ، ثم الإسلامية وهى أصحها جميعاً وأبعدها عن التحريف والتبديل . بل إن أصولها ، السكتاب والسنة العملية المتواترة ، لم يقع فيها تحريف مطلقاً . ومن محاسن هذه الآية الشريفة غير ذلك ، ذكر دىنى الفضل (البوذية والمسيحية) أولاً ثم دىنى العدل (اليهودية والإسلامية) ثانياً للإشارة إلى الحكمة بتربية الفضل والمساحة مع الناس أولاً . ثم تربية الشدة والعدل . وكذلك بدأ الإسلام باللين والرفق ثم بالشدة والعقاب . ولا يخفى على الباحثين التشابه العظيم بين بوذا وعيسى ودينهما . وكذلك التشابه بين موسى ومحمد ودينهما . فلذا جمع الأولان معاً والآخران كذلك . وقدم البوذية على المسيحية لقدم الأولى . كما قدم الموسوية على الحمدية لهذا السبب بعينه . ومن محاسن الآية أيضاً الرمز والإشارة إلى دىنى الرحمة بالفاكهة والثمرة ، وإلى دىنى العدل بالجبل والبلدة الجبلية (مكة) وهى البسلد الأمين . ومن التناسب البديع بين أفاظ الآية أن التين والزيتون ينبتان كثيراً فى أودية الجبال ، كما فى جبل الزيتون بالشام وطور سيناء ، وهما مشهوران بها .

فهذه الآية قسم بأول مهابط الوحي ، وأكرم أماكن التجلي الإلهي على أنبيائه الأربعة ، الذين بقيت شرائعهم للآن ، وأرسلهم الله لهداية الناس الذين خلقهم في أحسن تقويم . انتهى بحروفه . والله أعلم .

لطيفة :

لم ينصرف (سينين) كما لا ينصرف (سيفاء) لأنه جعل اسماً للبقعة أو الأرض . فهو علم أعجمي . ولو جعل اسماً للـكان أو المنزل ، أو اسماً لمذكر لانصرف ، لأنك سميت به مذكراً . وقرأ العامة (سيفين) بكسر السين . وقرأ بعض السلف بفتحها . وآخرون (سيناء) بالكسر والفتح ممدوداً . قال السمين : وهذه لغات اختلفت في هذا الاسم السرياني ، على عادة العرب في تلاعبها بالأسماء الأعجمية . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

[٥] (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

[٦] (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

[٧] (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ)

[٨] (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ)

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » أي في أحسن تعديل خلقاً ، وشكلاً ،

صورة ومعنى . قال الشهاب : الظرف في موضع الحال من الإنسان . والتقويم فعل الله ، فهو بمعنى القوام أو المقوم ، أو فيه مضاف مقدر . أي قوام أحسن تقويم ، أو (في) زائدة والتقدير : قومناه أحسن تقويم .

« ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » أي جعلناه أسفل من سفلى ، وهم أصحاب النار ، لمدم جريانه

على موجب ما خلقناه عليه من الصفات التي لو عمل بمقتضاها لكان في أعلى عليين ، ذ (رد) بمعنى جمل التي تنصب مفعولين . قال الشهاب : و(السافلين) العصاة وغيرهم ، وأسفل سافل للمتعدد المتفاوت . و (ثم) للتراخي الزماني أو هو رتبتي ، وجوز نصب (أسفل) بنزع الخافض صفة لمحذوف . أى إلى مكان أسفل سافلين . أى محل النار . أو النار بمعنى جهنم . وهذا مقاله مجاهد حيث قال : (في النار) وفي رواية (إلى النار) والسافلين ، على هذا ، الأمكنة السافلة . وهي دركاتها . وجمعها للعقلاء للفاصلة ، أو للتنزيل منزلة العقلاء . كذا قالوا . ولو أريد بهم أهل النار والدركات ، لأنهم أسفل السفلى كالأول ، لكان أولى .

« إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى غير مقطوع أو غير منقوص أو غير محسوب أو غير ممنون به عليهم . والاستثناء متصل من ضمير (رددناه) فإنه في معنى الجمع ؛ لأن المكنى عنه وهو الإنسان ، في معنى الجنس .

هذا ، وقد اعتمد ابن جرير في تأويل الآية ، ما روى عن ابن عباس من أن المعنى (ثم رددناه إلى أرذل العمر . وأن من كان يعمل بطاعة الله في شببته كلها ، ثم كبر حتى ذهب عقله ، كتب له مثل عمله الصالح الذي كان يعمل في شببته ، ولم يؤاخذ بشيء مما عمل في كبره وذهاب عقله ، من أجل أنه مؤمن وكان يطيع الله في شببته) .

وعبارة ابن جرير (١) : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصحة ، وأشبهها بتأويل الآية ، قول من قال معناه : ثم رددناه أى إلى أرذل العمر ، إلى عمر الخرفي الذين ذهب عقولهم من الهرم والكبر ، فهو في أسفل من سفلى في إدار العمر ، وذهاب العقل . (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) في حال صحتهم وشبابهم (فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) بعد هرمهم ، كهيئة ما كان لهم من ذلك على أعمالهم ، في حال ما كانوا يعملون وهم أقوياء على العمل .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٤٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال : وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب في ذلك ، لأن الله تعالى ذكره أخبر عن خلقه ابن آدم وتصريفه في الأحوال ، احتجاجاً بذلك على منكرى قدرته على البعث بعد الموت . الا نرى أنه يقول (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ) يعني بعد هذه الحجج . ومحال أن يحتج على قوم كانوا منكرين معنى من المعاني بما كانوا له منكرين . وإنما الحججة على كل قوم بما لا يقدر على دفعه مما يعاينونه ويمسونه ، أو يقرون به وإن لم يكونوا له محسين . وإذا كان ذلك كذلك ، وكان القوم ، للنار التي كان الله يتوعدهم بها في الآخرة منكرين ، وكانوا أهل الهرم والخرف من بعد الشباب والجلد شاهدين ، علم أنه إنما احتج عليهم بما كانوا له معانين من تصرفه خلقه ونقله إليهم من حال التقويم الحسن ، والشباب والجلد إلى الهرم والضعف وفناء العمر وحدث الخرف . انتهى كلامه .

وعليه فيكون الاستثناء منقطعاً ، استعدراً كما لدفع ما يتوهم من أن التساوى في أرذل العمر يقتضى التساوى في غيره ، ويكون (الذين) حينئذ مبتدأ ، والفاء داخلة في خبره . وأما على الوجه الأول ، فالفاء للتفريع ، ومدخولها جملة مترتبة عليه ، ومؤكدة له . وقوله تعالى : « فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ » خطاب للإنسان على طريق الالتفات ، لتشديد التوبيخ والتبكيت ، أى فما يملك على التكذيب بالدين ، أى الجزاء بعد البعث ، وإنكاره بعد هذه الدلائل . والمعنى : إن خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشراً سوياً ، وتحويله من حال إلى حال ، كلاً ونقصاناً ، من أوضح الدلائل على قدرة الله عز وجل على البعث والجزاء فأى شيء تضطرك إلى التكذيب به ؟ وجوز أن يكون الخطاب للنبي ﷺ ومعنى (يُكَذِّبُكَ) إما ينسبك إلى الكذب (كفسقته إذا قلت له إنه فاسق) والباء في (بالدين) بمعنى (في) أى يكذبك في إخبارك به . أو سببية أى بسبب إخبارك به وإثباته . أو المعنى ما يجعلك مكذباً بالدين . على أن الباء صلته . وهو من باب الإلهاب والتعريض بالكذبين ، والمعنى إنه لا يكذبك شيء ما بعد هذا البيان بالدين . لا كهؤلاء الذين لا يبالون بآيات الله ولا يرفعون لها رأساً . والاستفهام للإنكار والتعجب .

واستصوب ابن جرير^(١) قول من قال (ما) بمعنى (من) أى فن يكذبك يا محمد بمد الذى جاءك من هذا البيان من الله بالدين .

قال الشهاب : (فا) استفهام عن يعقل ، وفيه نظر ، لأنه خلاف المعروف ، فلا يرتكب مع صحة بقائها على أصلها ، كما بيناه لك . والداعى لارتكاب هذا ، أن المعنى عليه أظهر إذا كان المخاطب النبي ﷺ فإنه إنكار توبيخى للكذابين له ﷺ ، بعد ما ظهر لهم من دلائل صدقه وصحة مدعاه « أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ » أى بأحكم من حكم فى أحكامه . قال أبو السعود : أى أليس الذى فعل ما ذكر بأحكم الحاكمين صنفاً وتديراً ، حتى يقوم عدم الإعادة والجزاء ، وحيث استحال عدم كونه أحكم الحاكمين ، تعين الإعادة والجزاء . فالجملة تقرير لما قبلها . وقيل : الحكم بمعنى القضاء ، فهى وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما يستحقونه من العذاب . و (أحكم) من الحكم أو الحكمة . قيل : والثانى أظهر . وكان النبي ﷺ إذا قرأها قال : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين . أرسله قتادة ، ورفعه أبو هريرة إلى النبي ﷺ .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٤٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٦ - سُورَةُ الْعَلَقِ

سورة العلق . وهي مكية بالإجماع . وصدرها أول آية نزلت من القرآن ، كما سجت بذلك الأخبار . وأما أول سورة نزلت كاملة فهي الفاتحة . ويروى في الأوائل غيرها . ولا منافاة . لأن الأولية حقيقية ونسبية . روى الشيخان^(١) وغيرهما عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حُبب إليه الخلاء . فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد . ويتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك فقال (أقرأ) قال : ما أنا بقارىء . قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال (أقرأ) فقلت : ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال (أقرأ) ، فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال (أقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده .

(١) أخرجه البخاري في : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٣ - باب حدثنا يحيى بن بكير ،

حديث رقم ٣ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٥٢ (طبعنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

[٢] (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

[٣] (أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

[٤] (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

[٥] (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

« أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » أى اقرأ ما يوحى إليك من القرآن ملتبساً باسمه تعالى . أى مبتدئاً به لتتحقق مقارنته لجميع أجزاء المقروء . قال أبو السعود : والتعرض لعنوان الربوبية المنبثة عن التربية ، والتبايع إلى السكال اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام ، للإشعار بتبليغه عليه السلام إلى الغاية القاصية من السكالات البشرية ، بإيزال الوحي المتواتر . ووصف الرب بقوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ) لتذكير أول النماء الفائضة عليه ﷺ منه تعالى . والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان على ما هو عليه من الحياة ، وما يتبهما من السكالات العلمية والعملية ، من مادة لم تشم رائحة الحياة فضلاً عن سائر السكالات ، قادر على تعليم القراءة للحجى العالم المتكلم - أى الذى أنشأ الخلق واستأثر به أو خلق كل شيء .

وقال الإمام : ترى من سياق الرواية التى قدمناها أن المتبادر من معنى الآية الأولى : كن قارئاً باسم الله من قبيل الأمر التكويني . فإن النبي ﷺ لم يكن قارئاً ولا كاتباً . ولذلك كرر القول مراراً : ما أنا بقارئ . وبعد ذلك جاء الأمر الإلهي بأن يكون قارئاً . وإن لم يكن

كاتباً . فإنه سينزل عليه كتاب يقرؤه . وإن كان لا يكتبه . ولذلك وصف الرب بالذى خلق ، أى الذى أوجد الكائنات التى لا يحيط بها الوصف ، قادر أن يوجد فيك القراءة وإن لم يسبق لك تعلمها . لأنك لم تسكن تدرى ما الكتاب . فكأن الله يقول : كُن قارئاً بقدرتى وإرادتى . وإنما عبر بالاسم ، لأنه كما سبق فى (سورة سبح) دال على ما تعرف به الذات ، وخلق القراءة يلفتك إلى الذات وصفاتها جميعاً . لأن القراءة علم فى نفس حية . فهى تخطر ببالك من الله وجوده وعلمه وقدرته وإرادته . أما إذا حملنا الأمر على التكليف وقلنا : إن المعنى أنك مأمور إذا قرأت أن تقرأ باسم الله ، وهو خلاف المتبادر ، فيسكون معنى ذلك : إذا قرأت فاقراً دائماً على أن تكون قراءتك عملاً تنفذه الله لا لغيره . فلو فرض أنه قرأ وجعل قراءته لله لا لأحد سواه ولم يذكر الاسم ، فهو قارىء باسم الله . وإنما طلبت التسمية باللسان لتكون منبهة للضمير فى بداية كل عمل ، إلى أن يرجع إلى الله فى ذلك العمل . ويلاحظ أنه يعمل لاسمه لا لاسم غيره سبحانه . انتهى . وهو جيد « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ » أى دم جامد . وهى حالة الجنين فى الأيام الأولى لخلقه ، وتخصيص خلق الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات ، لاستقلاله ببدائع الصنع والتدبير وتفخيماً لشأنه . إذ هو أشرفها وإليه التنزيل . وهو المأمور بالقراءة ، وإنما قال (علق) دون (علقة) كما فى الآية الأخرى ، لرعاية الفواصل ، ولأن (الإنسان) مراد به الجنس . فهو فى معنى الجمع . فلذا جمع ما خلق منه ليطابقه . وخص العلق دون غيره من التارات ، لأنه أدل على كمال القدر ، من المضغة . مع استلزامه لما تقدمه . ومع رعاية الفواصل .

قال الإمام : أى ومن كان قادراً على أن يخلق من الدم الجامد إنساناً ، وهو الحى الناطق الذى يسود بعلمه على سائر المخلوقات الأرضية ، ويسخرها لخدمته ؛ يقدر أن يجعل من الإنسان الكامل مثل النبي ﷺ قارئاً . وإن لم يسبق له تعلم القراءة . وجاء بهذه الآية بعد سابقها ، ليزيد المعنى تأكيداً . كأنه يقول لمن كرر القول أنه ليس بقارئ : أيقن أنك قد

صرت قارئاً بإذن ربك الذى أوجد الكائنات ، وما القراءة إلا واحدة منها . والذى أنشأ الإنسان خلقاً كاملاً من دم جامد لا شكل فيه ولا صورة . وإنما القراءة صفة عارضة على ذلك الإنسان الكامل . فهى أولى بسهولة الإيجاد ، ولما كانت القراءة من الملكات التى لا تنكسبها النفس إلا بالتكرار والتمود على ما جرت به العادة فى الناس ، ناب تكرر الأمر الإلهى عن تكرر المقروء ، فى تصييرها ملكة للنبي ﷺ . فلهذا كرر الأمر بقوله « أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ » وجملة (وَرَبُّكَ) الخ استثنائية لبيان أن الله أكرم من كل من يرجى منه الإعطاء . فيسيرُ عليه أن يفيض عليك هذه النعمة ، نعمة القراءة ، من بحر كرمه . ثم أراد أن يزيده اطمئناناً بهذه الموهبة الجديدة ، فوصف ما منحها بأنه « الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ » أى أفهم الناس بواسطة القلم كما أفهمهم بواسطة اللسان . والقلم آلة جامدة لا حياة فيها ، ولا من شأنها فى ذاتها الإفهام . فالذى جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان ، ألا يجعل منك قارئاً مبيهاً وتالياً معلماً وأنت إنسان كامل؟؟ ثم أراد أن يقطع الشبهة من نفسه، ويبعد عنه استغراب أن يقرأ ولم يكن قارئاً ، فقال « عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » أى إن الذى صدر أمره بأن تكون قارئاً ، وأوجد فيك ملكة القراءة والتلاوة ، وسيلغفك فيها مبلغاً لم يبلغه سواك ، هو الذى علم الإنسان جميع ما هو متمتع به من العلم، وكان فى بدء خلقه لا يعلم شيئاً، فهل يستغرب من هذا المعلم الذى ابتدأ العلم للإنسان ولم يكن سبق له علم بالمرّة، أن يملك القراءة وعندك كثير من العلوم سواها ونفسك مستعدة بها لقبول غيرها؟؟ انه هي .

تنبيهات :

الأول : قال الإمام ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) فى مباحث عجائب الإنسان وما فى خلقه من الحكمة: ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيان . البيان النطقى والبيان الخطى وقد اعتد بهما سبحانه فى جملة ما اعند به من نعمة على العبد . فقال فى أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ *

أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فتأمل كيف جمع في هذه السكيات مراتب الخلق كلها ، وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه . فذكر أولاً عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي . ثم ذكر ثانياً خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة . والآية فيه عظيمة . ومن شهوده عما فيه محض تمدد النعم . وذكر مادة خلقه ههنا من العلقة . وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها . أما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذي كاللخار ، أو مادة الفرع وهو الماء المهيّن . وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلقة . فإنه كان قبلها لطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة . ثم ذكر ثالثاً التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده . إذ به تحلّد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس ، وبه تقيّد أخبار الماضين للباقيين اللاحقين . ولولا الكتابة لا تقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ، ودرست السنن وتخبّطت الأحكام ، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف . وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم ، إنما يعتربهم من النسيان الذي يححو صور العلم من قلوبهم . فجعل لهم الكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع ، كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهب والبطالان . فنعمة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن ، من أجلّ النعم . والتعليم به ، وإن كان مما يخص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة ، فإن الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه ، وفضل أعطاه الله إياه ، وزيادة في خلقه وفضله . فهو الذي علمه الكتابة ، وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم . فإنه علمه فتعلم . كما أنه علمه الكلام فتكلم . هذا ، ومن أعطاه الذهن الذي يعى به ، واللسان الذي يترجم به ، والبنان الذي يخطّ به ، ومن هياً ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات ، ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه ، ومن الذي دعم البنان بالكف ، ودعم الكف بالساعد . فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم . فقف وقفة في حال

الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جاد ، ووضعتة على القرطاس وهو جاد ، فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر ، وجوابات المسائل . فمن الذى أجرى فلك المغانى على قلبك ، ورسمها فى ذهنك ، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك ، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشاً عجيباً ، معناه أعجب من صورته ، فتقضى به مآربك وتبلغ به حاجة فى صدرك ، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة ، فيقوم مقامك ، ويترجم عنك . ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك ، ويجدى عليك ما لا يجدى من ترسله ، سوى من علم بالقلم علم الإنسان فلم يعلم ؟ والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة : مرتبة الوجود الذهني والوجود اللفظي والوجود الرسمى . فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطى لهذه المراتب . ودل قوله (خَلَقَ) على أنه يعطى الوجود المعيني . فدلّت هذه الآيات ، مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها ، على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقاً وتعلماً . وذكر خلقين وتعلمين خلقاً عاماً وخلقاً خاصاً . وتعلماً خاصاً وتعلماً عاماً . وذكر من صفاته ههنا اسم (الأكرم) الذى هو فيه كل خير وكل كمال . فله كل كمال ووصفاً ، ومنه كل خير فعلاً . فهو (الأكرم) فى ذاته وأوصافه وأفعاله . وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه ، لا من حاجة دعتة إلى ذلك ، وهو الغنى الحميد .

الثانى : قال الإمام : لا يوجد بيان أرفع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه ، من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحي بهذه الآيات الباهرات : فإن لم يهتد المسلمون بهذا الهدى ، ولم ينههم النظر فيه إلى النهوض إلى تمزيق تلك الحجب التى حجبت عن أبصارهم نور العلم ، وكسر تلك الأبواب التى غلقها عليهم رؤسائهم وحبسواهم بها فى ظلمات من الجهل ، وإن لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين ، ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع ، فلا أرشدهم الله أبداً .

الثالث : قال الرازى : فى قوله (بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) إشارة

إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة . وفي قوله (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) إشارة إلى الأحكام المكتوبة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع . فالأول كأنه إشارة إلى معرفة الربوبية . والثاني إلى النبوة . وقدم الأول على الثاني تنبيهاً على أن معرفة الربوبية غنية عن النبوة ، وأما النبوة فإنها محتاجة إلى معرفة الربوبية . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ)

[٧] (أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى)

[٨] (إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أُلْحُجَىٰ)

« كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى » أى حقاً إن الإنسان ليعتد على ربه ويستكبر على ربه ، أن رأى نفسه استغنى . فد (كلا) بمعنى (حقاً) لعدم ما يتوجه إليه الردع ظاهراً ، لتأخر نزول هذا عما قبله - على ما تقدم في المأثور - أو هو ردع لمن كفر بنعمة الله بطغيانه وإن لم يذكر ، لدلالة الكلام عليه . فإن مفتتح السورة إلى هذا المقطع يدل على عظيم منتهى تعالى على الإنسان . فإذا قيل (كَلَّا) يكون ردعاً للإنسان الذى قابل تلك النعم بالكفران والطغيان . أى ما هكذا ينبغي أن يكون الإنسان . ينعم عليه ربه بتسوية خلقه وتعليمه ما لم يكن يعلم ، وإنعامه بما لا كفاء له ، ثم يكفر بربه الذى فعل به ذلك ويطغى عليه أن رآه استغنى .

قال الكرخي ، ومذهب أبي حيان أن (كلا) بمعنى (ألاً) الاستفتاحية ، وصوبه ابن هشام بكسر همزة (إب) بعدها كما بعد حرف التنبيه . وفي (الكواشي) : يجوز في (كلا) أن تكون تنبيهاً ، فيقف على ما قبلها . وردعا ، فيقف عليها .

تفسيه :

دلت الآية على قاعدة عظيمة في باب التمويل المحمود ، قررهما الحكماء المصلحون . وهو أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير . قالوا : لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الإنسان ، كما نطقت به الآية الكريمة .

قال بعض الحكماء : التحول لأجل الحاجات وبقدرها ، محمود بثلاثة شروط . وإلا كان حرص التمويل من أقبح الخصال .

الشرط الأول : أن يكون إحراز المال بوجه مشروع حلال . أى إحرازه من بذل الطبيعة أو بالمعارضة أو في مقابل عمل .

والشرط الثانى : أن لا يكون في التمويل تضيق على حاجات الغير ، كاحتكار الضروريات ، أو مزاحمة الصناعات والعمال الضعفاء ، أو التغلب على المباحت . مثل امتلاك الأراضى التى جعلها خالقها مرحاً لكافة مخلوقاته . وهى أهمهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بشمراتها وتؤويهم في حضن أجزائها .

الشرط الثالث لجواز التمويل : هو أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير ، وإلا فسدت الأخلاق . ولذلك حرمت الشرائع السماوية كلها ، والحكمة السياسية والأخلاقية والعمرانية أكل الربا . وذلك لقصد حفظ التساوى والتقارب بين الناس في القوة المالية . لأن الربا كسب بدون مقابل مادي ، ففيه معنى الغصب . وبدون عمل ، ففيه الألفة على البطالة المفسدة للأخلاق . وبدون تمرض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والأملك . دع أن بالربا تربو الثروات ، فيختل التساوى بين الناس ، كما تقدم بيانه في أواخر سورة البقرة .

وقوله تعالى « إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَرْجُوعِي » أى المرجع فى الآخرة . قال أبو السعود : تهديد للطاغى وتحذيره من عاقبة الظميان . والاتفات للتشديد فى التهديد ، و (الرجعى) مصدر بمعنى الرجوع . وتقديم الظرف لقصره عليه . أى إن إلى مالك أمرك رجوع السكل بالموت والبعث ، لا إلى غيره ، استقلالاً ولا اشتراكاً . فسترى حينئذ عاقبة ظميانك . وقد جوز كون الخطاب للرسول صلوات الله عليه ، والتهديد والتحذير بحاله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ)

[١٠] (عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ)

[١١] (أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ)

[١٢] (أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ)

[١٣] (أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ)

[١٤] (أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ)

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ » أي يمنعه عن الصلاة . وعبر بالنهى ، إشارة إلى عدم اقتداره على غير ذلك . قال ابن عطية : لم يختلف المفسرون في أن الناهي أبو جهل والعبد المصلي النبي ﷺ . كما روى في الصحيحين . ولفظ البخاري عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ النبي ﷺ فقال : لو فعله لأخذته الملائكة . وفي الآية توبيخ وتشنيع لحال ذاك الكافر ، وتعجيب منها وإيدان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يجب أن يراها كل من يتأني منه الرؤية ويقضى منها العجب . ولفظ (العبد) وتنكيره ، لتفخيمه عليه السلام ، واستعظام النهي وتأكيده التعجب منه . وقيل : إنه من إرخاء العنان في الكلام المنصف ، إذ قال (ينهى) ولم يقل (يؤذى) و (عبدًا) دون (نبيًا) والرؤية ههنا بصرية ، وفيها بعدها قلبية . معناه : أخبرني . فإن الرؤية لما كانت سببًا للإخبار عن المرئي ، أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها . قاله أبو السعود .

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩٦ - سورة اقرأ باسم ربك الذي خلق ،

حديث رقم ٢٠٧٢ .

وقال الإمام : كلمة (رأيت) صارت تستعمل في معنى (أخبرني) على أنها لا يقصد بها في مثل هذه الآية الاستخبار الحقيقي ، ولكن يقصد بها إنكار المستخبر عنها وتقبيلها . فكأنه يقول : ما أسخف عقل هذا الذي يطغى به الكبر فينهى عبداً من عبيد الله عن صلاته ، خصوصاً وهو في حالة أدائها . وقوله « أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ » أي رأيت إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله ، أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان ، كما يمتد ؟ وجواب الشرط محذوف دل عليه ما بعده . أي ألم يعلم بأن الله يرى . وعليه ، فالضائر كلها (الذي ينهى) وجوز عود الضمير المستتر في (كان) للعبد المصلي . وكذا في (أمر) أي رأيت الذي ينهى عبداً يصلي ؟ والمنهى على الهدى أمر بالتقوى . والنهى مكذب متول ، فما أعجب من هذا ! وذهب الإمام رحمه الله ، في تأويل الآية إلى معنى آخر . وعبارته : أما قوله (أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ) فمعناه أخبرني عن حاله إن كان ذلك الطاغى على الهدى وعلى صراط الحق ، أو أمر بالتقوى مكان نهيه عن الصلاة ، أفما كان ذلك خيراً له وأفضل ؟ وقوله أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ » أي نبئني عن حاله إن كذب بما جاء به النبيون . وتولى أي أعرض عن العمل الطيب ، أفلا يخشى أن تحل به قارعة وبصبيه من عذاب الله ما لا قبل له باحتمال ؟ فجواب كل من الشرطين محذوف كما رأيت في تفسير المعنى . وهو من الإيجاز المحمود ، بعد ما دل على المحذوف بقوله « أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ » أي أجهل أن الله يطالع على أمره ؟ فإن كان تقيماً على الهدى أحسن جزاءه ، وإن كذب وتولى لم يفلت من عقوبته . ثم إن ما يطيل به المفسرون في المفعول الثاني لفعل (رأيت) الأولى ومفعولها في الثانية والثالثة ، فهو مما لا معنى له ؛ لأن القرآن قدوة في التعبير ، وقد استعملها بمفعول واحد وبلا مفعول أصلاً بمعنى (أخبرني) . والجملة المستخبر عن مضمونها ، تسد مسد المفاعيل . انتهى كلامه رحمه الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ)

[١٦] (نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)

[١٧] (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ)

[١٨] (سَدِّعُ الزَّبَابِيَّةَ)

[١٩] (كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَأَسْجُدْ وَأُقْتَرَب)

« كَلَّا » ردع عن النهي عن الصلاة « لَئِن لَّمْ يَنْتَه » أى عن هذا الطغيان ، وعن النهي عن الصلاة ، وعن التكذيب والقول « لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » أى لناخذن بناصيته ، ولنسحبته بها إلى النار . والسفع : القبض على الشيء وجذبه بشدة . والأخذ بالناصية هنا ، مَثَلٌ في القهر والإذلال والتعذيب والنكال . وقوله تعالى « نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ » بدل من (الناصية) ولم يقتصر على إحدى الجملتين ، لأن ذكر الأولى للتخصيص على أنها ناصية الناهي والثانية لتوصف بما يدل على علة السفع وشموله لكل من وجد فيه ذلك . ووصفها بالكذب والخطأ ، وهما لصاحبها ، على الإسناد المجازى ، للمبالغة لأنها تدل على وصفه بالكذب بطريق الأولى ، ولأنه لشدة كذبه كان كل جزء من أجزائه يكذب . وكذا حال الخطأ ، وهو كقوله ^(١) (وَتَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكُذِبَ) و (وجهها يصف الجمال) - والتجوز بإسناد ما للسكل إلى الجزء ، كما يسند إلى الجزئي في قولهم (بنو فلان قتلوا قتيلاً) والقاتل أحدهم .

لطيفة :

قال في (البحر) : كتبت نون (لِنَسْفَعًا) بالألف باعتبار الوقف عليها بإبدالها ألفاً . وقال السمين : الوقف على هذه النون بالألف تشبيها لها بالتنوين . وتكتب هنا ألفاً اتباعاً للوقف

(١) [١٦ / النحل / ٦٢] .

لأن قاعدة الرسم مبنية على حال الوقف والابتداء « فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ » أي أهل مجلسه، ليمنع المصلين ويؤذى أهل الحق الصادقين ، اتكالا على قوتهم وغفلة عن قهر الحق وسخطه . والجملة إما بتقدير مضاف، أو على الإسناد المجازي من إطلاق اسم المحل على من حل فيه . والنادي المجلس الذي ينتدى فيه القوم، أي يجتمعون « سَدْعُ الزَّبَانِيَةِ » أي زبانية العذاب من جنوده تعالى فيها يكونه في الدنيا ، أو يردونه في النار في الآخرة وهو صاغر ، ولم يرسم (سندع) بالواو في المصاحف بانباع الرسم للفظ ، أو لشاكلة قوله (فليدع) وقيل إنه مجزوم في جواب الأمر وفيه نظر « كَلَّا » ردع للناهي بعد ردع ، وزجر إثر زجر « لَا تُطْعُهُ » أي لا تطع ذلك الطاغى إذا نهاك عن عبادة ربك . قال الزمخشري : أي اثبت على ما أنت عليه من عصيانه كقوله^(١) « فَلَا تُطْعِ الْمُسَكِّنِينَ » « وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ » أي صل لربك وتقرّب منه بالعبادة وتحبب إليه بالطاعة . وفي صحيح مسلم^(٢) عن أبي هريرة مرفوعا: أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد . فأكثرُوا من الدعاء .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أن الآيات نزلت في أبي جهل ، على ما صح في الأخبار ، قال الإمام: ولا مانع من أن يكون في الآيات إشارة إليه، ولكنها عامة في كل وقت وزمن كما ترى . والخطاب فيها موجه إلى من يخاطب لا إلى شخص النبي ﷺ . والله أعلم .

الثاني : قال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) : إنما شدد الأمر - أمر الوعيد - في حق أبي جهل ولم يقع مثل ذلك لعقبة بن أبي معيط ، حيث طرح سلى الجزور على ظهره ﷺ وهو يصلي - لأنهما وإن اشتركا في مطلق الأذية حال صلاته ، لكن زاد أبو جهل بالتهديد وبدعوة أهل طاعته ، وبوطء العنق الشريف . وفي ذلك من البالغة ما اقتضى تمجيل

(١) [٦٨ / القلم / ٨] .

(٢) أخرجه في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٢١٥ (طبعنا) .

العقوبة له ، لو فعل ذلك . وقد عوقب عقبه بدعائه ﷺ وعلى من شاركه في فعله ، فقتلوا يوم بدر ، كأبي جهل .

الثالث : قال الإمام : ذكر الصلاة في الصورة لا يدل على أن بقيتها نزل بمد فرض الصلاة . فقد كان للنبي ﷺ وأصحابه صلاة قبل أن تفرض الصلوات الخمس المعروفة .

الرابع : قال في (اللباب) : سجدة هذه السورة من عزائم سجود التلاوة عند الشافعي . فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءتها . يدل عليه ما روى عن أبي هريرة (١) قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ في (أَقْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ) و (إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ) : أخرجه مسلم في صحيحه .

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٥ - كتاب الإقامة ، ٧١ - باب عدد سجود القرآن ، حديث رقم ١٠٥٨ (طبعتنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٧ - سورة القدر

قال السيوطي: فيها قولان، والأكثر أنها مكية، وآياتها خمس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)
- [٢] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)
- [٣] (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ)
- [٤] (تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ)
- [٥] (سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ)

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » أى أنزلنا القرآن على قلب خاتم النبيين ، بمعنى ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر . وقد وصفت بالباركة في قوله تعالى^(١) : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) وكانت في رمضان ، لقوله تعالى^(٢) (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ) .

قال الإمام : سميت ليلة القدر، إما بمعنى ليلة التقدير ، لأن الله تعالى ابتدأ فيها تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيه في دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه . أو بمعنى العظمة والشرف ، من قولهم (فلان له قدر) أى له شرف وعظمة . لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرفه وعظمه بالرسالة ، وقد جاء بما فيه الإشارة ، بل التصريح ، بأنها ليلة جليلة ، بجلالته ما وقع فيها من إنزال القرآن . فقال « وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ » أى وما الذى يملك مبلغ شأنها ونباهة أمرها « لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ » فكرر ذكرها ثلاث مرات . ثم أتى بالاستفهام الدال

(١) [٤٤ / الدخان / ٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١٨٥] .

على أن شرفها ليس مما تسهل إحاطة العلم به ، ثم قال (إنها خير من ألف شهر) لأنه قدمضى على الأمم آلاف من الشهور وهم يختبئون في ظلمات الضلال . فليلة يسطع فيها نور الهدى خير من ألف شهر من شهورهم الأولى . ولك أن تقف في التفضيل عند النص ، وتفوض الأمر ، في تحديد مافضلت عليه الليلة بألف شهر ، إلى الله تعالى . فهو الذى يعلم سبب ذلك ولم يبينه لنا ، ولك أن تجرى الكلام على عاداتهم في التخاطب . وذلك في الكتاب كثير . ومنه الاستفهام الواقع في هذه السورة (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ) فإنه جار على عاداتهم في الخطاب . وإلا فالعلم الخبير لا يقع منه أن يستفهم عن شيء . فيكون التحديد بالآلف لامفهوم له ، بل الغرض منه التكثير . وإن أقل عدد تفضله هو ألف شهر . ثم إن درجات فضلها على هذا العدد غير محصورة . فإذا قلت (إخفاء الصدقة خير من إظهارها) لم تعين درجة الأفضلية . وهى درجات فوق درجات وقد جاء في الكتاب فى واقعة واحدة ، هى واقعة بدر ، أن الله أمد المؤمنين بألف من الملائكة ، أو بثلاثة آلاف ، أو بخمسة آلاف ، كما تراه فى الأنفال وآل عمران . فالمدد هناك لامفهوم له ، كما هو ظاهر . فهى ليلة خير من الدهر إن شاء الله . ثم استأنف لبيان بعض مزاياها فقال « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا » يخبر جل شأنه أن أول عهد للنبي ﷺ بشهود الملائكة ، كان فى تلك الليلة . تنزلت من عالمها الروحانى الذى لا يحده حد ولا يحيط به مقدار ، حتى تمتلئ لبصره ﷺ ، والروح هو الذى يتمثل له مبلغاً للوحى ، وهو الذى سُمِّيَ فى القرآن بجبريل . وإنما تظهر الملائكة والروح « بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » أى إنما تتجلى للملائكة على النفس الكاملة ، بمد أن هيأها الله لقبول تجليها . وليست تتجلى للملائكة لجميع النفوس كما هو معلوم . فذلك فضل الله يختص به من يشاء . واختصاصه هو إذنه ومشيئته . ثم إن هذا الإذن مبدؤه الأوامر والأحكام . لأن الله يجلى الملائكة على النفوس ، لإيحاء مايريد منها . ولهذا قال « مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ » أى أن الله يظهر الملائكة والروح لرسله عند كل أمر يريد إبلاغه إلى عباده . فيكون الإذن مبتدئاً من الأمر على هذا المعنى .

والأمر ههنا هو الأمر في قوله^(١) (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) فالكلام في الرسالة والأوامر والأحكام ، لا في شيء آخر سواها . ولهذا قال بعضهم : إن (من) ههنا بمعنى الباء ، أى بكل أمر . ولا حاجة إليه لما قلنا . وإنما عبر بالمضارع في قوله (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ) وقوله (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) مع أن المعنى ماض ، لأن الحديث عن مبدأ نزول القرآن - لوجهين :

الأول : لاستحضار الماضى لعظمته على نحو ما في قوله^(٢) (وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ) فإن المضارع بعد الماضى يزيد الأمر تصويراً . والثانى : لأن مبدأ النزول كان فيها . ولكن بقيمة الكتاب وما فيه من تفصيل الأوامر والأحكام كان فيما بعد . فكأنه يشير إلى أن ما ابتداءً فيها يستمر في مستقبل الزمان حتى يكمل الدين . وقوله تعالى « سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ » أى أنها كانت ليلة سالمة من كل شر وأذى . والإخبار عنها بالسلم نفسه - وهو الأمن والسلامة - للمبالغة في أنه لم يشبها كدر ، بل فرج الله فيها عن نبيه كل كربة ، وفتح له فيها سبيل الهداية ، فأناله بذلك ما كان يتطلع إليها ، الأيام والشهور الطوال .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أن ليلة القدر التى ابتدئ فيها نزول القرآن كانت في رمضان لآية (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) ولا إجماع في تعيين تلك الليلة . بل في صحيح البخارى^(٣) أنها رفعت . أى رفع العلم بتعيينها . وفي رواية فيه : نسيها أو أنسيها . من قوله صلوات عليه . ولذا رغب في قيام رمضان كله رجاء موافقتها في ليلة منه . نعم الأقوى رواية أنها في العشر الأخير من رمضان لما كان من اهتمامه ﷺ بالاعتكاف فيه وإحياء ليله وإيقاظ أهله . وقد ذهب ابن مسعود والشعبي والحسن وقتادة إلى أنها ليلة أربع وعشرين .

(١) [٤٤ / الدخان / ٥٤] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٤] . (٣) أخرجه في : ٣٢ - كتاب فضل ليلة القدر ،

٢ - باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر ، حديث رقم ٤١٩ ، عن أبى سميد الخدرى .

قال ابن حجر : وحجتهم حديث واثلة أن القرآن نزل لأربع وعشرين من رمضان . وقد اضطربت أقوال السلف فيها . صحابة ومن بعدهم . حتى أنافت على أربعين قولاً .

قال الإمام : ثم الأخبار الصحيحة متضافرة على أنه في شهر رمضان . ولا نعيّن منها من بين لياليه . فقد اختلفت فيها الروايات اختلافاً عظيماً . وكتاب الله لم يعينها . وما ورد في الأحاديث من ذكرها ، إنما قصد به حث المؤمنين على إحيائها بالعبادة ، شكراً لله تعالى على ما هداهم بهذا الدين الذي ابتدأ الله إفاضته فيهم ، في أنثائها . ولهم أن يعبدوا الله فيها أفراداً وجماعات . فمن رجح عنده خبر في ليلة أحيائها ، ومن أراد أن يوافقها على التحقيق ، فعليه أن يشكر الله بالفراغ إليه بالعبادات في الشهر كله . وهذا هو السر في عدم تمييزها . وتشير إليه آية البقرة فإنها تجعل الشهر كله ظرفاً لنزول القرآن ، ليذكر المؤمنون نعمة الله عليهم فيه . فهي ليلة عبادة وخشوع ، وتذكر لنعمة الحق والدين . فلا تكون ليلة زهو وهو تتخذ فيها مساجد الله مضامير للرياء ، يتسابق إليها المنافقون . ويحدث أنفسهم بالبعد عنها المخلصون . كما جرى عليه عمل المسلمين في هذه الأيام . فإن كل ما حفظوه من ليلة القدر هو أن تكون لهم فيها ساعة سمر يتحدثون فيها بما لا ينظر الله إليه . ويسمعون شيئاً من كتاب الله لا ينظرون فيه ولا يعتبرون بعمانيه . بل إن أصغوا إليه ، فإنما يصغون لنعمة تاليه . ثم يسمعون من الأقوال ما لم يصح خبره ، ولم يحمد في الآخرين ولا الأولين أثره . ولهم خيالات في ليلة القدر لا تليق بقول الأطفال ، فضلاً عن الراشدين من الرجال . انتهى .

وقال الطبري : إخفاء ليلة القدر دليل على كذب من زعم أنه يظهر في تلك الليلة للعيون ، ما لا يظهر في سائر السنة . إذ لو كان ذلك حقاً ، لم يخف على كل من قام ليالي السنة ، فضلاً عن ليالي رمضان .

الثاني : حكى الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) قولاً عن بعض العلماء ؛ أن ليلة القدر خاصة بسنة واحدة وقعت في زمان النبي ﷺ . ولعل مستنده ما صح أنها رفعت . وقد قدمنا معناه . ولذا ذهب الجمهور إلى خلافه . وعندي أن لا تنافي . لأن المراد بالأول هو ليلة نزول

القرآن وما كان فيها من التجلّي الخاص التي اتفردت به - وبالثاني أن ما يوافق تلك الليلة من رمضان كل عام ، هي ليلة فيها مزية على غيرها ، بفضل اختصت به دون غيرها . وهذا هو السرّ في قيام رمضان والتماسها في العشر الأواخر منه . أعني إحياء مآثلها من الليالي ، تبركاً وتيمناً وشكراً لله تعالى على تلك النعمة والهداية . فالقائم في ليالي العشر الأخير ، أو في رمضان ، مصادفٌ البتة لما مائل تلك الليلة . لأنها منه قطعاً . وقد باين الإسلام في تفضيل بعض الأوقات بتشريع اتخاذها موسمًا للعبادة ، ما ابتدعه رؤساء الأديان الأخر في تذكاراتهم وجعلها أعياداً ، تصرف ساعاتها للبطالة والزينة واللهو ، مما ينافي حكمة ذكراها . فتأمل الفرق ، واحمد الله على اتباع الحق .

الثالث : قال الإمام : ما يقوله الكثير من الناس من أن الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ، هي ليلة النصف من شعبان ، وأن الأمور التي تفرق فيها هي الأرزاق والأعمار ، وكذلك ما يقولونه من مثل ذلك في ليلة القدر ، فهو من الجراءة على الكلام في الغيب بغير حجة قاطعة . وليس من الجأز لنا أن نعتقد بشيء من ذلك ، ما لم يرد به خبر متواتر عن العصوم عليهم السلام . ومثل ذلك لم يرد ، لاضطراب الروايات ، وضعف أغلبها ، وكذب الكثير منها . ومثلها لا يصح الأخذ به في باب العقائد . ومثل ذلك يقال في بيت العزة ، ونزول القرآن فيه جملة واحدة في تلك الليلة . فإنه لا يجوز أن يدخل في عقائد الدين . لعدم تواتر خبره عن النبي صلى الله عليه وآله . ولا يجوز لنا الأخذ بالظن في عقيدة مثل هذه . وإلا كنا من الذين (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) نعوذ بالله . وقد وقع المسلمون في هذه المصيبة ، مصيبة الخلط بين ما يصح الاعتقاد به من غيب الله ويُعدّ من عقائد الدين ، وبين ما يظن به للعمل على فضيلة من الفضائل . فاحذر أن تقع فيها مثلهم . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٥ - سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

ويقال سورة القيمة . وسورة المنفكين . وسورة البرية . وعدد آياتها ثمان وهي مدنية على الأصح . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب : إن الله أمرني أن أقرأ عليك (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا) قال : وسماني لك ، قال : نعم . فبكي . ورواه البخاري ومسلم^(١) . وفي رواية الإمام أحمد^(٢) عن أبي حبة البدرى قال : لما نزلت (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا) قال جبريل : يا رسول الله ! إن ربك يأمرك أن تقرؤها أبيًا . فقال النبي ﷺ لأبي : إن جبريل أمرني أن أقرأك هذه السورة . قال أبي : وقد ذكرت ثم يا رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فبكي أبي .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩٨ - سورة لم يكن ، ١ - حدثنا محمد بن بشار ، حديث رقم ١٧٨٤ ، عن أنس .
(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٨٩ من الجزء الثالث .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

[٢] (رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً)

[٣] (فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ)

« لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى جحدوا نبوة النبي صلوات الله عليه بعنادهم ، بعد ما تبينوا الحق منها « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » أى اليهود والنصارى الذين عرفوه وسمعوا أدلته وشاهدوا آياته ، لم يكونوا هم « وَالْمُشْرِكِينَ » أى وثني العرب « مُنْفِكِينَ » أى عن غفلتهم وجهلهم بالحق ، ووقوفهم عند ما قلدوا فيه آباءهم ، لا يعرفون من الحق شيئاً « حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ » أى الحججة القاطعة المثبتة للمدعى ، وهى هنا النبي ﷺ . فجيئته هو الذى أحدث هذه الرجة فيما رسخ من عقائدهم وتمكن من عوائدهم ، حتى أخذوا يحتجون لعنادهم ومناكرتهم بأنه كان شيئاً معروفاً لهم ، يصلون إليه بما كان لديهم ، ولكنه ليس بمستحق أن يتبع . فإن ما هم فيه أجهل وأبدع . ومتابعة الآباء فيه أشهى إلى النفوس وأمتع . تلك البينة التى تعرفهم وجه الحق هى « رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ » أى محمد ﷺ « يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً » وهى صحف القرآن المطهرة من الخلط وحشو المدائسين ، فلماذا تنبعث منها أشعة الحق حتى يعرفه طالبوه ومنكروه معا « فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ » أى مستقيمة لا عوج فيها . واستقامة الكتب اشتهاها على الحق الذى لا يعيل إلى باطل (١) (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ

(١) [٤١ / فصلت / ٤٢] .

حَكِيمٍ حَمِيدٍ) والكتب التي في صحف القرآن ومصاحفه ، إما أن تكون هي ماصح من كتب الأولين كموسى وعيسى وغيرها ، مما حكاه الله في كتابه عنهم . فإنه لم يأت منها إلا بما هو قوى سليم . وقد ترك حكاية ما لبس فيه الملبسون إلا أن يكون ذكره لبيان بطلانه . ولهذا لم يجد الجاحدون لرسالته عليه السلام من أهل الكتاب سيلا إلى إنكار الحق . وإنما فضلوا عليه سواء . أو هي سور القرآن . فإن كل سورة من سوره ، كتاب قويم . فصحف القرآن أو صحائفه وأوراق مصحفه تحتوى على سور من القرآن هي كتب قيمة . ولما كان لسائل أن يسأل : إذا كان هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، قد انكسروا عن ذلك الظلام المطبق ، وبدا لهم من الحق ما عرفوه كما يعرفون أبناءهم ، فما بالهم لم يؤمنوا بهذا الحق الذي جاءهم ؟ أجاب الحق تعالى بأن أهل الكتاب قد جاءتهم البينة والحجة القاطعة على الحق الذي لا يختلف وجهه ، بما أوحى الله به إلى أنبيائهم . وكان من حقهم أن يسترشدوا بكتبهم في معرفة سبيله حتى لا ينحرفوا عنه . فإذا عرض لأحدهم شبهة رجع في كشفها إلى العارف بمعاني الكتب . ثم كان عليهم أن يحرصوا على تعلم معانيها وفهم أساليبها ويحافظوا عليها حتى لا يضلّهم فيها مضلل . لكن هذه البينة لم تقدم شيئاً فإنهم اختلفوا في التأويل وتفرقوا في المذاهب حتى صار أهل كل مذهب يبطل ما عند أهل المذهب الآخر . وكان ذلك بغيا منهم ، واستمراراً في المراء ، وإصراراً على ما قاد إليه الهوى . وهذا هو قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

[٥] (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ

وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ)

«وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ» أى على السنة

أنبيائهم . فهكذا كان شأنهم في النبي ﷺ . جحدوا بينته كما جحدوا بينة أنبيائهم ، بتفرقهم فيها ، وبعدهم بالتفرق عن حقيقتها . فإن كان هذا شأن أهل الكتاب في بينتهم وبينتنا ، فما ظنك بالمشركين ، وهم أعرق في الجهالة وأساس قياداً للهوى ، منهم؟؟ وقوله تعالى « وَمَا أُمِرُوا » أى والحال أن أهل الكتاب ما أمروا بلسان أنبيائهم وكتبهم « إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى الإذعان والخضوع ، وذلك بتنقيته من أن يشركه فيه شيء . لا واسطة ولا مال ، ولا كرامة ولا جاه « حُنَفَاءَ » أى متبعي إبراهيم عليه السلام ، أو على مثاله . وأصله جمع (حنيف) بمعنى المائل المنحرف . سمي به إبراهيم عليه السلام لأنحرافه عن وثنية الفاس كافة « وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى الإتيان بها ، لإحضار القلب هيبة العبود وترويضه بالخشوع . لأن تكون مجرد حركات ظاهرة . فإن ذلك ليس من الصلاة في شيء ، البتة « وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ » أى بصرفها في مصارفها التي عينها الله تعالى « وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ » أى الكتب القيمة . أو دين الأمة القيمة المستقيمة . ومعنى الآية: إن أهل الكتاب قد اختلفوا ، ولعننا كل فرقة أختها . وكان اختلفهم في العقائد والأحكام وفروع الشريعة ، مع أنهم لم يؤمروا ولم توضع لهم تلك الأحكام إلا لأجل أن يعبدوا الله ويخلصوا له عقائدهم وأعمالهم . فلا يأخذونها إلا عنه مباشرة ، ولا يقلدون أهل الضلال من الأمم الأخرى . وأن يخشعوا لله في صلاتهم ، وإن يصَلُّوا عباد الله بركاتهم . فإذا كان هذا هو الأصل الذي يرجع إليه في الأوامر ، فما كان عليهم إلا أن يحملوه نصب أعينهم ، فيردوا إليه كل ما يعرض لهم من المسائل ويحلُّوا به كل ما يعترض أمامهم من المشاكل . ومتى تحكَّم الإخلاص في الأتقس ، تسلط الإنصاف عليها ، فسادت فيها الوحدة ، ولم تطرق طرقها الفرقة . هذا مانعاه الله من حال أهل الكتاب . فما تقول في حالنا ؟ أفا ينعماء كتابنا الشاهد علينا بسوء أعمالنا ، في اختلفنا في الدين ، وأن صرنا فيه شيعاً ، وملأناه محدثات وبدعاً ؟ بهذا الذى تقدم عرفت أن الذين كفروا هم الذين أنكروا رسالة النبي ﷺ عند دعوتهم إلى قبول ما جاء به . وإن (من) في قوله (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) للتبعض . وأن معنى (لم يكونوا منفسكين) :

أى لم يكن وجه الحق لينكشف لهم ، فيقع الزلزال في عقائدهم ، فينفكوا عن الغفلة المحضة التي كانوا فيها، حتى تأتهم البينة . ويجوز أن يكون المراد من (الذين كفروا) والله أعلم ، أولئك الذين جحدوا شيئاً من دين الله تعالى عند ما جاءهم . ولم يفتروا في دليله . أو أعرضوا عنه بعد ما عرفوا دليله سواء كانوا من مشركي العرب أو من أهل الكتاب . وإن آمنوا بعد ذلك وصدقوا . فأراد الله أن يذكر مفته على من آمن من هؤلاء . فبين أن الذين كفروا ، أى جحدوا ما أوجب الله على عباده أن يعقدوه عنه من صفاته وشرائعه من أهل الكتاب ومشركي العرب ، لم يكونوا براجمين عن كفرهم وجحدوهم هذا ، حتى يأتهم الرسول فيبين لهم بطلان ما كانوا عليه من الكفر ، فيؤمنوا . فما أعظم فضل الله عليهم في إرسال رسوله إليهم ! وهذا وجه آخر غير الذى قدمناه في معنى الذين كفروا وانفكوا عنهم . وبذلك أو هذا ظهر معنى (حتى) وبطل جميع ما يهذى به كثير من المفسرين الذين أضلهم التقليد ، عن الرأى السديد ، فصعبوا من القرآن سهله ، وحرموا من فهمه أهله . انتهى كلام الإمام نقلناه من أول السورة إلى هنا بالحرف لنفسه ، ولكونه أحسن ما فسرت به . وقاعدتنا التي انتهجناها في هذا التفسير أن تؤثر في معانى آياته ، أحسن ما قيل فيها . فلذلك سميناها (محاسن التأويل) هداانا الله إلى أقوم السبيل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى بالله ورسوله محمد ﷺ فجدوا نبوته « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ » أى شر من برأه الله وخلقه . قال الإمام : لأن منكر الحق ، بعد معرفته وقيام الدليل عليه ، منكر في الحقيقة لعقل نفسه ، مهلك لروحه ، جالب الهلاك لغيره .

لطائف

الأولى - دلت هذه الآية والتي قبلها على أن عنوان (المشركين) لا يتناول أهل الكتاب في عرف القرآن ، بل هو خاص بالوثنيين . أعنى من يدينون بالإشراك وتعدد الأرباب ، فأهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى - لا يتناولهم ذلك العنوان وإن دخل في عقائدهم الشرك . لأنه دخيل لأصيل . ولذلك ينفرون من وصمة الشرك ، وبسببه حل الفكاح منهم دون الوثنيين . الثانية - قال ابن جرير : العرب لاتهمز البرية . وبترك الهمزة فيها قرأتها قراء الأمصار ، غير شيء يذكر عن نافع بن أبي نعيم . فإنه حكى بعضهم عنه أنه كان يهمزها . وذهب بها إلى قول الله ^(١) (مَنْ قَبِلَ أَنْ نَبْرَأَهَا) وأنها فعيلة من ذلك . وأما الذين لم يهمزوها ، فإن لتركهم الهمز في ذلك وجهين : أحدهما أن يكونوا تركوا الهمز فيها كما تركوه من الملك ، وهو مفعل ، من (ألك) أو (لأك) ومن (يرى) و (ترى) و (ترى) ، وهو (تفعل) من رأيت . والآخر أن يكونوا وجهوها إلى أنها فعيلة من (البراء) وهو التراب . حكى عن العرب سماعاً فقيلاً (بفياك البراء) يعنى به التراب . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

[٨] (جَزَاءُ وَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

أَبَدًا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ و)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالله ورسوله محمد ، صلوات الله عليه « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ »

أى من بذل النفس في سبيل الجهاد للحق ، وبذل المال في أعمال البر ، مع القيام بفرائض العبادات ، والإخلاص في سائر ضروب المعاملات . لأن إذاعتهم الصحيح ، ووجدانهم لذة معرفة الحق ، ملكت الحق قيادهم . فعملوا الأعمال الصالحة ، قاله الإمام . « أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٢] .

أَلْبَرِيَّةَ « أى أفضل الخليقة . لأنهم بمتابعة الحق عند معرفته بالدليل القائم عليه ، قد حققوا لأنفسهم معنى الإنسانية التي شرفهم الله بها . وبالعمل الصالح ، قد حفظوا نظام الفضيلة الذي جملة الله قوام الوجود الإنساني ، وهدوا غيرهم بحسن الأسوة إلى مثل ما هُودوا إليه من الخير والسعادة . فمن يكون أفضل منهم ؟ قاله الإمام « جَزَّ أَوْهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى بساتين إقامة ، لا ظن فيها ، تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا » أى ما كثرين على الدوام ، لا يخرجون عنها ولا يموتون فيها « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ » أى بما أطاعوه في الدنيا ، وعملوا لخلوصهم من عقابه في ذلك « وَرَضُوا عَنْهُ » لأنهم بحسن يقينهم يرتاحون إلى امتثال ما يأمر به في الدنيا . فهم راضون عنه . ثم إذا ذهبوا إلى نعيم الآخرة ، وجدوا من فضل الله ما لا محل للسخط معه ، فهم راضون عن الله في كل حال . أفاده الإمام .

« ذَلِكَ » أى هذا الجزاء الحسن وهذا الرضاء « لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ » أى خاف الله في الدنيا ، في سره وعلايته ، فاتقاه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه . فإن خشية ملاك السعادة الحقيقية . قال الإمام : أراد بهذه الكلمة الرفيعة الاحتياط لدفع سوء الفهم الذي وقع ولا يزال يقع فيه العامة من الناس ، بل الخاصة كذلك . وهو أن مجرد الاعتقاد بالورثة ، وتقليد الأئمة ، ومعرفة ظواهر بعض الأحكام ، وأداء بعض العبادات ، كحركات الصلاة وإمساك الصوم ، مجرد هذا لا يكفي في نيل ما أعد الله من الجزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات . وإن كانت قلوبهم حشوها الحسد والحقد والكبرياء والرياء . وأفواهم ماؤها الكذب والنميمة والافتراء ، وتتهز أعطافهم رياح العجب والخيلاء . وسراثرهم مسكن العبودية والرق للأمراء . بل ولبن دون الأمراء . خالية من أقل مراتب الخشوع والإخلاص لرب الأرض والسماء . كلا لا يقالون حسن الجزاء . فإن خشية ربهم لم تحل قلوبهم . ولهذا لم تهذب من نفوسهم . ولا يكون ذلك الجزاء إلا لمن خشى ربه ، وأشعر خوفه قلبه . والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٩ - سُورَةُ الزُّلْزَلَةِ

قال ابن كثير: مكية . ورجح السيموطي أنها مدنية . وآبها ثمان . روى الترمذي^(١) عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ (إِذَا زُلْزِلَتْ) تعدل نصف القرآن . و (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن . و (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) تعدل ربع القرآن . وسيأتي سر ذلك في تفسير سورة الكافرين والإخلاص إن شاء الله تعالى .

(١) أخرجه في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ١٠ - باب ما جاء في (إِذَا زُلْزِلَتْ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا)

[٢] (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)

« إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا » أى أصابها ذلك الزلزال الشديد والاهتزاز الرهيب .
فالإضافة للمتفخيم أو الاختصاص ، بمعنى الزلزال المخصوص بها . وهى الرجة التى لا غاية وراءها .
والأقرب الأول ، لآية^(١) (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ)
وقرى بفتح الزاى . وقد قيل لها مصدران . وقيل المفتوح اسم والمكسور مصدر . وهو
المشهور « وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » أى قذفت ما فى باطنها من كنوز ودقائق وأموات
وغير ذلك ، لشدة الزلزلة وتشقق ظهرها . كقوله^(٢) (وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا
وَتَخَلَّتْ) والأثقال جمع (ثقل) بفتححتين . وهو متاع المسافر وكل نفيس مصون . وهذا
على الاستعارة . ويجوز أن يكون بكسر فسكون بمعنى حمل البطن ، على التشبيه أيضاً . لأن
الحمل يسمى ثقلاً كما فى قوله تعالى^(٣) (فَلَمَّا أَثْقَلَتْ) قاله الشريف المرتضى فى (الدرر) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا)

[٤] (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)

[٥] (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا)

(٢) [٨٤ / الانشقاق / ٤٣ و٤] .

(١) [٢٢ / الحج / ١] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٨٩] .

[٦] (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ)

[٧] (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)

[٨] (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

« وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا » أى قال من يكون من الإنسان شاهداً لهذا الزلزال ، الذى نجاه ودهشه ، ولم يمهّد مثله : مالهذه الأرض رجّت هذه الرجة الهائلة ، وبمتر ما فيها من الأثقال الدفونة « يَوْمَئِذٍ » بدل من (إذا) أى فى ذلك الوقت « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » أى تبين الأرض بلسان حالها ، ما لأجله زلزالها وإخراج أثقالها . فتدل دلالة ظاهرة على ذلك . وهو الإيدان بفساء النشأة الأولى وظهور نشأة أخرى . فالتحديث استعارة أو مجاز مرسل مطلق الدلالة .

قال أبو مسلم : أى يومئذ يتبين لكل أحد جزاء عمله . فكأنها حدثت بذلك . كقولك (الدار تحمدنا بأنها كانت مسكونة) فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة ، تحدث أن الدنيا قد انتقضت ، وأن الآخرة قد أقبلت .

« يَا نَرَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا » الباء سببية متعلق بـ(تحدث) أى تحدث بسبب إيحاء ربك لها ، وأمره إيحاءاً بالتحدث . والإيحاء استعارة أو مجاز مرسل لإرادة لازمه . وهو إحداث ما تدل به على خرابها .

وقال القاشانى : أى أشار إليها وأمرها بالاضطراب والخراب وإخراج الأثقال . يعنى الأمر التكويني . وهو تعلق القدرة الإلهية بما هو أثر لها « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا » أى ينصرفون عن مرادهم إلى مواطن حسابهم وجزائهم ، متفرقين سعداء وأشقياء « لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ » أى ليرىهم الله جزاء أعمالهم « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » أى فمن عمل فى الدنيا وزن ذرة من خير ، يرى ثوابه هنالك . والذرة النملة الصغيرة وهى مثل فى الصغر . وقيل الذر هو الهباء الذى يرى فى ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة « وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » أى ومن كان عمل فى الدنيا وزن ذرة من شر ، يرى جزاءه ثمة .

تنبيهات :

الأول - دل لفظ (من) على شمول الجزاء بقسميه ، للمؤمن وغيره .

قال الإمام : أى من يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره ، فإنه يراه ويجد جزاءه . لافرق في ذلك بين المؤمن والكافر . غاية الأمر أن حسنات الكفار الجاحدين لاتصل بهم إلى أن تخلصهم من عذاب الكفر ، فهم به خالدون في الشقاء . والآيات التي تنطق بمحبوط أعمال الكفار ، وأنها لاتنفعهم ، معناها هو ما ذكرنا . أى أن عملاً من أعمالهم لاينجيهم من عذاب الكفر ، وإن خفف عنهم بعض العذاب الذى كان يرتقبهم ، على بقية السيئات الأخرى ، أما عذاب الكفر نفسه فلا يخفف عنهم منه شيء . كيف لا ، والله جل شأنه يقول (١) (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) فقولوه (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) أصرح قولى أن الكافر والمؤمن في ذلك سواء . وإن كلاً يوفى يوم القيامة جزاءه . وقد ورد أن حاتمًا يخفف عنه لكرمه . وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبي ﷺ . وما نقله بعضهم من الإجماع على أن الكافر لاتنفعه في الآخرة حسنة ولا يخفف عنه عذاب سيئة ما ، لا أصل له . فقد قال بما قلناه كثير من أئمة السلف رضى الله عنهم . على أن كلمة (الإجماع) كثيراً مايتخذها الجهلاء السفهاء آلة لقتل روح الدين ، وحجراً يلقمونه أفواه المتكلمين . وهم لايمرفون للإجماع الذى تقوم به الحجة معنى ، فبئس مايصنعون . انتهى .

وقد سبقه الشهاب في (حواشيه) على القاضى ، حيث ناقش صاحب المقاصد في دعواه الإجماع على إحباط عمل الكفرة . وعبارته : كيف يدعى الإجماع على الإحباط بالسلبية ، وهو مخالف لما صرح به في الآية ؟ والذى يلوح للخاطر ، بعد استكشاف سرائر الدفاتر ، أن الكفار يعذبون على الكفر بحسب مراتبه . فليس عذاب أبى طالب كعذاب أبى جهل . ولا

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] .

عذاب المعطلة كعذاب أهل الكتاب ، كما تقتضيه الحكمة والعدل الإلهي . انتهى .

الثاني - قال في (الإكليل) : في هاتين الآيتين ، الترغيب في قليل الخير وكثيره . والتحذير من قليل الشر وكثيره . أخرج عبد الرزاق عن ابن مسعود قال : هذه الآية أحكم آية في القرآن . وفي لفظ (أجمع) .

وسمى^(١) رسول الله ﷺ هذه الآية الجامعة الفائزة ، حين سئل عن زكاة الحجير فقال : ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفائزة (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) . وروى الإمام أحمد^(٢) عن صعصعة بن معاوية . عم الفرزدق ، أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) الخ . قال : حسبي . لا أبالي أن لا أسمع غيرها . ورواه النسائي في تفسيره .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩٩ - إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ،

١ - باب قوله فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، حديث رقم ١١٨٥ ، عن أبي هريرة .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٩ من الجزء الخامس من المسند .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٠ - سُورَةُ الْعَادِيَاتِ

مكية أو مدنية . وآيها إحدى عشرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَأَلْعَدِيَّتِ صَبْحًا)

[٢] (فَأَلْمُورِيَّتِ قَدْحًا)

[٣] (فَأَلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا)

[٤] (فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا)

[٥] (فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا)

« وَأَلْعَدِيَّتِ صَبْحًا » إقسام بحيل الغزاة التي تعدو نحو العدو ، فتصبح . (و) الضبح صوت أنفاسها إذا عدت . وليس المراد بالصوت الصهيل . بل قولها (اح . اح) كما قاله ابن عباس . ونصب (صَبْحًا) إما بفعله المحذوف ، أو بالعاديات لإفادته معناه ، أو بالحالية « فَأَلْمُورِيَّتِ قَدْحًا » أي توري النار بحوافرها . والقده هو الضرب لإخراج النار ، والإيراء يترتب عليه . لأنه إخراج النار وإيقادها . فأيراؤها ما يرى من صدم حوافرها للحجارة . وتسمى نار الجياح . ولما كان مرتباً على عدوها ، عطفه بالفاء . وكون المراد به الحرب - بعيد . وفي إعرابه الوجوه السابقة .

« فَأَلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا » أي تغير على العدو في وقته . يقال (أغار على العدو) إذا هجم عليه ليقتله أو يأسره أو يستلب ماله .

قال الإمام: وهو وصف عرض للخيل من الغاية التي أجريت لها . أي أنها تعدو ويشدد عدوها حتى يخرج الشرر من حوافرها ، تمهيم على عدو وقت الصباح ، وهو وقت المفاجأة لأخذ العدو على غير أهبة « فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا » أي فأهجن ، بذلك الوقت ، غباراً من الإثارة . وهي

التمهيج وتحريك الغبار ونحوه ليرتفع. والنقع: الغبار كما ذكرنا، وورد بمعنى الصياح. فجوز إرادته هنا بمعنى صياح من هجم عليه، وأوقع به. لا صياح المغير المحارب، وإن جاز على بُعد فيه. أي هيجن الصياح بالإغارة على العدو، وضمير (به) للوقت والباء ظرفية. وفيه احتمالات آخر. ككونه للعدو أو للإغارة، لتأويلها بالجرى. فالباء سببية أو للملابسة. ويجوز كونها ظرفية أيضا. والضمير للمكان الدال عليه السياق، للعلم بأن الغبار لا يثار إلا من موضع. وهو الذي اختاره ابن جرير.

قال الشهاب: وذكر إثارة الغبار، للإشارة إلى شدة العدو وكثرة الكر والقر. وتخصيص الصبح، لأن الغارة كانت معتادة فيه. أي لمباغطة العدو. والغبار إنما يظهر نهائياً و (أثرن) معطوف على ما قبله.

قال الناصر: وحكمة الإتيان بالفعل معطوفاً على الاسم، الذي هو العاديات أو مابعد، لأنها أسماء فاعلين تعطى معنى الفعل. وحكمة مجيء هذا المعطوف فعلا عن اسم فاعل، تصوير هذه الأفعال في النفس. فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف. وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة. وكذلك التصوير بالمضارع بعد الماضي. وقوله تعالى «فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً» أي فتوسطن ودخلن في وسط جمع من الأعداء، ففرقنه وشتتنه. يقال: (وسطت القوم) بالتخفيف و(وسطته) بالتشديد و(توسطته) بمعنى واحد. وفي الضمير الوجوه المتقدمة.

قال الإمام رحمه الله: أقسم تعالى بالخليل متصفة بصفاتها التي ذكرها، آتية بالأعمال التي سردها لينوه بشأنها ويعلم من قدرها في نفوس المؤمنين أهل العمل والجد. ليعنوا بقفيتها وتدريبها على الكر والقر، وليحملهم أنفسهم على العناية بالفروسية والتدريب على ركوب الخيل، والإغارة بها. ليكون كل واحد منهم مستعداً في أي وقت كان، لأن يكون جزءاً من قوة الأمة إذا اضطرت إلى صدّ عدو، أو بعثها باعث على كسر شوكته. وكان في هذه

الآيات القارعات ، وفي تخصيص الخيل بالذكر في قوله (١) (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) وفيما ورد من الأحاديث التي لا تنكاد تحصر - ما يحمل كل فرد من رجال المسلمين على أن يكون في مقدمة فرسان الأرض مهارة في ركوب الخيل . ويبعث القادرين منهم على فنية الخيل على التنافس في عقائلها . وأن يكون فن السباق عندهم يسبق بقية الفنون إتقاناً . أفليس من أعجب العجب أن ترى أمماً ، هذا كتابها ، قد أهملت شأن الخيل والفرسية ، إلى أن صار يشار إلى راجعها بينهم بالهزؤ والسخرية ؟ وأخذت كرام الخيل تهجر بلادهم إلى بلاد أخرى .

ثم قال : يقسم الله بالخيل صاحبة تلك الصفات التي رفع ذكرها ، ليؤكد الخبر الذي جاء في قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)

[٧] (وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ)

[٨] (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

«إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ» أي لكفور . بكفر نعمه ولا يشكرها . أي لا يستعملها

فيما ينبغي ليتوصل بها إليه .

قال المصنف : أي لكفور ، فيوجب قتاله بهذه الخيول وقهره بهذا الغضب . وعن أبي أمامة : الكنود الذي يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفقته «وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ» أي وإن الإنسان على كفوره ، لشهيد يشهد على نفسه به ، لظهور أثره عليه . فالشهادة مستعمارة لظهور آثار كفرانه وعصيانه بلسان حاله .

(١) [٨ / الأنفال / ٦٠] .

قال القاشاني : لشهادة عقله ونور فطرته إنه لا يقوم بحقوق نعم الله ، ويقصر في جنب الله بكفرانه « وَإِنَّهُ وَ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » أى وإنه لحب المال والدنيا وإيثارها ، لقوى . ولحب تقوى الله وشكر نعمته ضعيف متعاس وإنه لحب الخير الموصل إلى الحق ، شديد منقبض ، غير هس منبسط . أو اللام للتعميل . أى إنه لأجل حب المال بخيل . فلذلك يحتجب به غارزاً رأسه في تحصيله وحفظه وجمعه ومنعه ، مشغولاً به عن الحق ، معرضاً به عن جنابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ)

[١٠] (وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ)

[١١] (إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ)

« أَفَلَا يَعْلَمُ » أى أبعد هذا الاحتجاب ومخالفة العقل ، لا يعلم بنور فطرته وقوة عقله « إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ » أى بعث وأثير ما فى القبور وإخراج موتاها « وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ » أى أظهر وأبرز ما فى صدورهم ونفوسهم من أسرارهم ونياتهم المكتومة فيها ، من خير أو شر « إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ » أى عالم بأسرارهم وضمائرهم وأعمالهم . فيجازيهم على حسبها يومئذ . وتقديم الظرف ، إما لكان نظم السجع ورعاية الفواصل ، أو للتخصيص لوقوع علمه تعالى كناية عن مجازاته . وهى إنما تكون يومئذ .

قال الرازى : وإنما خص أعمال القلوب بالتحصيل دون أعمال الجوارح ، لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب . فإنه لولا البواعث والإرادات فى القلوب ، لما حصلت أفعال الجوارح . ولذلك جعلها تعالى الأصل فى الهم فقال ^(١) (ءَأْتِمُّ قَلْبِيَهُ) والأصل فى المدح فقال ^(٢) (وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ) .

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٣] . (٢) [٨ / الأنفال / ٢] و [٢٢ / الحج / ٣٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠١ - سُورَةُ الْفَارِعَةِ

مكية وآياتها إحدى عشرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْقَارِعَةُ)

[٢] (مَا الْقَارِعَةُ)

[٣] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ)

[٤] (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)

[٥] (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ)

« الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ » قال أبو السعود: القرع هو الضرب بشدة واعتماد، بحيث يحصل منه صوت شديد، وهي القيامة. سميت بها لأنها تفرع القلوب والأسماع بفنون الأفراع والأهوال. وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال: السماء بالانشقاق والانفطار، والشمس والنجوم بالتكوير والانكدار والانتثار، والأرض بالززال والتبديل والجبال بالدك والنسف. وهي مبتدأ خبره قوله تعالى (ما القارعة) على أن (ما) الاستفهامية خبر والقارعة مبتدأ، لا بالعكس. لأن محط الفائدة هو الخبر لا المبتدأ. ولا ريب في أن مدار إفادة الموصول والفخامة ههنا، هو كلمة (ما) لا (القارعة) أي أي شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة؟ وقد وضع الظاهر موضع الضمير تأكيداً لكيداً للتحويل. وقوله تعالى « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ » تأكيداً لهولها وفظاعتها، ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق على معنى أن عظم شأنها ومدى شدتها، بحيث لا تكاد تناله دراية أحد، حتى يدريك بها. أي: وأي شيء أعلمك ما شأن القارعة؟ ولما كان هذا منبئاً عن الوعد الكريم بإعلامها، أنجز ذلك بقوله تعالى « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » أي هي يوم يكون الناس فيه كالفراش المبعوث في الكثرة

والانتشار ، والضعف والنذلة والاضطراب ، والتطير إلى الداعي ، كتطير الفراش إلى النار .
 فـ (يوم) خبر محذوف بنى على الفتح ، لإضافته إلى الفعل ، أو هو منصوب . بإضمار
 (اذكر) . كأنه قيل ، بعد تفخيم أمر القارعة وتشويقه عليه الصلاة والسلام إلى معرفتها :
 اذكر يوم يكون الناس « وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » أى كالصوف المندوف
 في تفرق أجزائها وتطيرها في الجو . ولما كان من المعلوم أن ذلك اليوم هو اليوم الذى
 تبتدى فيه الحياة الآخرة ، وفيها تعرف مقادير الأعمال وما تستحقه من الجزاء ، رتب عليه
 قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَأَمَّا مَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ)

[٧] (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

[٨] (وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ)

[٩] (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ)

[١٠] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ)

[١١] (نَارٌ حَامِيَةٌ)

« فَأَمَّا مَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ » قال ابن^(١) جرير : أى فأما من

ثقلت موازين حسناته ، يعنى بالموازين الوزن . والعرب تقول (لك عنسدى درهم بميزان
 درهك) ويقولون (دارى بميزان دارك ووزن دارك) يراد حذاء دارك . قال الشاعر^(٢) :

قد كنتُ قبلُ لفائِكُم ذامِرةٌ عندى لكلِّ مخاصم ميزانُهُ

(١) انظر الصفحة رقم ٢٨٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أنشده نعلب فى اللسان (ج ١٣ ص ٤٤٧) طبعة بيروت .

يعنى بقوله (ميزانه) كلامه وما ينقض عليه حجته . وكان مجاهد يقول : ليس ميزان . إنما هو مثل ضرب . انتهى .

وعليه ، فالوازين جمع ميزان . وجوز كونه جمع موزون ، وهو العمل الذى له خطر ووزن عند الله تعالى . ومعنى قوله (فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ) أى فى عيشة قد رضىها فى الجنة . فـ (راضية) بمعنى مرضية ، على التجوز فى الكلمة تقسمها أو فى إسنادها . أو استعارة مكنية وتخيلية « وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ » أى وزن حسناته « فَأَمَّهُ وَهَؤَالِيَهُ » أى فآواه ومسكنه الهاوية التى يهوى فيها على رأسه فى جهنم .

قال الشهاب : فسمى المأوى (أمًا) على التشبيه تهكمًا . لأن أم الولد مأواه ومقره . وفى (التأويلات) : قيل المراد أم رأسه . أى يلتقى فى النار منكوساً على رأسه . انتهى . والأول هو الموافق لقوله « وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهٗ * نَارٌ حَامِيَةٌ » فإنه تقرير لها بعد إبهامها ، والإشعار بخروجها عن الحدود المعهودة للتهويل . وأصل (ماهيه) ماهى ، كناية عن الهاوية . فأدخل فى آخرها هاء السكت وفقاً . وتحذف وصلاً . وقد أجزئ إثباتها مع الوصل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٢ - سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بوهى مكية وآها ثمان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (أَلْهٰكُمْ التَّكٰثُرُ)
- [٢] (حَتّٰى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ)
- [٣] (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)
- [٤] (مُّمّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)
- [٥] (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ)
- [٦] (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)
- [٧] (مُّمّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)
- [٨] (مُّمّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

« أَلْهٰكُمْ التَّكٰثُرُ * حَتّٰى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ » أى شغلكم التباهى بالكثرة فى المال والولد ونحوها . فيقول هذا : أنا أكثر منك مالا ، والآخر : أنا أكثر منك ولداً . وهكذا مما يصرف عن الجد فى العمل ، ويطغى نور الاستعداد وصفاء الفطرة والعقل والسكالات المعنوية الباقية . ذهب بكم التفاخر والتباهى بهذه الأمور الفانية ، من كثرة الأموال والأولاد ، وشرف الآباء والأجداد كل مذهب « حَتّٰى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ » أى حتى هلكتم ومتم وصرتم من أصحاب القبور ، فأفنيتم عمركم فى الأعمال السيئة وما تنبّهتم طول حياتكم إلى ما هو سبب سعادتكم ونجاتكم . وزيارة القبور عبارة عن الموت .

روى الزمخشري شواهد لها . قال الشهاب : وفيها إشارة إلى تحقق البعث . لأن الزائر لا بد من انصرافه عما زاره . ولذا قال بعض الأعراب لما سمعها : بمثوا ، ورب الكعبة ! وقال ابن عبد العزيز : لا بد لمن زار ، أن يرجع إلى جنة أو نار . وسمى بعض البلغاء المقبرة ، دهليز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٣ - سُورَةُ الْعَصْرِ

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها ثلاث .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالْعَصْرِ)

[٢] (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ)

[٣] (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ)

« وَالْعَصْرِ » أى الدهر . أقسم تعالى به لانطوائه على تماجيب الأمور القارة والمارة . ولذا قيل له (أبو العجب) . ولأنه يذكر بما فيه من النعم وأضدادها . فينبه الإنسان على أنه مستعد للخسران والسعادة . وللتنويه به والتعظيم من شأنه ، تعريضاً ببراءته مما يضاف إليه من الخسران والذم . كما قيل :

يَعْبُونَ الزَّمَانَ وَلَيْسَ فِيهِ
مَعَايِبُ غَيْرُ أَهْلِ الزَّمَانِ

وجوز أن يراد بالعصر ، الوقت المعروف الذى تجب فيه صلاة العصر .

قال الإمام : كان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ويتحدثوا ويتذاكروا فى شؤونهم . وقد يكون فى حديثهم ما لا يليق أو ما يؤذى به بعضهم بعضاً . فيتوهم الناس أن الوقت مذموم . فأقسم الله به لينبهك إلى أن الزمان فى نفسه ليس مما يذم ويسب ، كما اعتاد الناس أن يقولوا (زمان مشؤوم) و (وقت نحس) و (دهر سوء) وما يشبه ذلك . بل هو عادٌ للحسنات كما هو عادٌ للسيئات . وهو ظرف لشؤون الله الجليلة من خلق ورزق وإعزاز وإذلال وخفض ورفع . فكيف يذم فى ذاته ، وإنما قد يذم ما يقع فيه من الأفاعيل المقوتة . « إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ » أى خسران ، لخسارته رأس ماله الذى هو نور الفطرة والهداية الأصلية ، بإيثار الحياة الدنيا واللذات الفانية والاحتجاب بها وبالدهر ، وإضاعة الباقي فى الفانى « إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالله وبما أنزل من الحق ، إيماناً ملك إرادتهم

فلا يعملون إلا ما يوافق اعتقاداتهم . كما قال « وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ » قال القاشاني : أى من الفضائل والخيرات . أى اكتسبوها فربحوا زيادة النور السكالي على النور الاستعدادي الذي هو رأس مالمهم .

« وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ » أى أوصى بعضهم بعضاً بما أنزل الله في كتابه من أمره ، واجتنب ما نهى عنه من معاصيه « وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ » أى على ما يبلى الله به عباده . أو على الحق ، فإن الوصول إلى الحق سهل . وأما البقاء عليه والصبر معه بالاستقامة والجهاد لأجله ، فذلك الذي يظهر به مصداق الإيمان وحقيقته .

تنبيهات

الأول - قال الإمام ابن القيم في (مفتاح دار السعادة) قال الشافعي رضي الله عنه : لو فكر الناس كلهم في هذه السورة ، لكفتمهم . وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله . إحداهما معرفة الحق . الثانية عمله به . الثالثة تعليمه من لا يحسنه . الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه . فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة . وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر ، إلا الذين آمنوا . وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به ، فهذه مرتبة . وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه أخرى . وتواصوا بالحق ، وصى به بعضهم بعضاً تعليماً وإرشاداً ، فهذه مرتبة ثالثة . وتواصوا بالصبر ، صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات . فهذه مرتبة رابعة . وهذا نهاية الكمال . فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه ، مكملاً لغيره . وكماله بإصلاح قوته العلمية والعملية . فصلاح القوة العلمية بالإيمان . وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات . وتكميله غيره ، بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل . فهذه السورة ، على اختصارها ، هي من أجمع سور القرآن للخير بمخداه . والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه ، شافياً من كل داء ، هادياً إلى كل خير . انتهى .

الثاني : قال الرازيّ : هذه السورة فيها وعيد شديد . وذلك لأنه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس ، إلا من كان آتياً بهذه الأسماء الأربعة . وهي : الإيمان . والعمل الصالح . والتواصي بالحق . والتواصي بالصبر . فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور . وأنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه ، فكذلك يلزمه في غيره أمور . منها الدعاء إلى الدين . والنصيحة . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأن يجب له ما يجب لنفسه . ثم كرر التواصي ليعتد به الأول الدعاء إلى الله ، والثاني الثبات عليه . والأول الأمر بالمعروف ، والثاني النهي عن المنكر . ومنه قوله تعالى ^(١) (وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ) وقال عمر : رحم الله من أهدى إلى عيوني .

الثالث : قال الرازيّ : دلت الآية على أن الحق ثقيل ، وأن الحن تلازمه . فلذلك قرن التواصي بالصبر .

الرابع : تخصيص التواصي بالحق والصبر ، مع اندراجهما في الأعمال الصالحة ، لإبراز كمال الاعتناء بهما .

قال الإمام : من تلك الأعمال الدعوة إلى الحق والوصية بالصبر . لكنه أراد تخصيص هذين الأمرين بالذكر ، لأنهما حفاظ كل خير ورأس كل أمر . والحق هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أو شريعة صحيحة . وهو ما أرشد إليه دليل قاطع أو عيان ومشاهدة . فشرط النجاة من الخسران ، أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ، ويمكّنوه من قلوبهم ، ثم يحمل الناس بعضهم بعضاً عليه ، بأن يدعو كل صاحب به إلى الاعتقاد بالحقائق الثابتة ، التي لا ينافع فيها العقل ولا يختلف فيها النقل . وأن يبعدوا بأنفسهم وبغيرهم عن الأوهام والخيالات ، التي لا قرار للنفوس عليها ، ولا دليل يهدي إليها . ولا يكون ذلك إلا بإعمال الفكر وإجادة النظر في الأكوان ، حتى تستطیع النفس دفع ما يرد عليها من باطل الأوهام . وهذا إطلاق للعقل من كل قيد ، مع اشتراط التدقيق في النظر . لا الذهاب مع الطيش والانخداع

(١) [٢١ / لقمان / ١٧] .

للمادة والوهم . ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح بعد أن يعرفه فهو من الخاسرين . كما ترى في الآية بالنص الصريح الذي لا يقبل التأويل . والصبر قوة للنفس على احتمال المشقة في العمل الطيب ، واحتمال المكروه من الحرمان من اللذة ، إن كان في نيلها ما يخالف حقاً أو ما لا تأذن به الشريعة الصحيحة التي لا اختلاف فيها . واحتمال الآلام إذا عرّضت المصائب بدون جزع ولا خروج في دفعها عن حدود الحق والشرع . فشرط النجاة من الخسران أن تصبر ، وأن توصى غيرك بالصبر ، وتحمله على تكميل قواه بهذه الفضيلة الشريفة ، التي هي أم الفضائل بأمرها ، ولا يمكنك حملها على ذلك ، حتى تكون بنفسك متحلياً بها . وإلا دخلت فيمن يقول ، ولا يفعل كما يقول . فلم تكن ممن يعمل الصالحات . انتهى .

الخامس - قال الإمام: إنما قال (وَتَوَاصَوْا) ولم يقل (وأوصوا) ليعين أن النجاة من الخسران إنما تنافى بمرص كل من أفراد الأمة على الحق ، ونزوع كل منهم إلى (أن يوصى به قومه ومن يهيم أمر الحق ، ليوصى صاحبه بطلبه ، يهيم أن يرى الحق فيقبله . فكأن في هذه العبارة الجزلة ، قد نص على توأصيتهم بالحق وقبولهم الوصية به إذا وجهت إليهم .

السادس - قال ابن كثير : ذكر الطبراني من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبيد الله ابن حصن قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ ، إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها . ثم يسلم أحدهما على الآخر . قال الإمام : قد ظن الناس أن ذلك كان للتبرك . وهو خطأ . وإنما كان ليذكر كل واحد منهما صاحبه بما ورد فيها . خصوصاً من التواصي بالحق والتواصي بالصبر . حتى يجتلب منه قبل التفرق ، وصية خير لو كانت عنده .

وقد فسر الإمام رحمه الله هذه السورة بتفسير على حدة لم يسبق إلى نظيره ، فعلى من أراد

التوسع في أسرارها ، أن يرجع إليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٤ - سُورَةُ الْحُمَزَةِ

مكية، وآياتها تسع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ)

[٢] (الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ)

[٣] (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)

- « وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ » أى لكل من يطعن في أعراض الناس ويفتقاهم .
- أصله من الهمز بمعنى الكسر ، ومن اللمز بمعنى الطعن ، الحقيقيين . ثم استعيراً لذلك ثم صاراً حقيقة عرفية فيه . قال زياد الأعمى (١) :

تُدَلِّي بُوْدِي إِذَا لَا قِيَتِي كَذِبًا وَإِنْ أُغِيْبُ فَأَنْتَ الْهَامِزُ الْهُمَزَةُ

- وبناء (فُعْلَمَةٌ) يدل على أن ذلك عادة منه قد ضرى بها ، لأنه من صيغ المبالغة . والآية عنى بها من كان مع المشركين بمكة ، هازأً لمازاً . كما فى قوله (٢) (إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ..) الآيات ، وقوله (٣) (هَمَزٌ مَشَاءٌ يَنْمِيهِمْ ..) الآيات ، فالسبب ، وإن يكن خاصاً ، إلا أن الوعيد عام ، يتناول كل من باشر ذلك القبيح . وسرّ وروده عاماً ، ليسكون جارياً مجرى التعريض بالوارد فيه ، فإن ذلك أزر له وأنكى فيه .

« الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ » أى أحصى عدده ولم ينفقه فى وجوه البر .

قال الإمام: أى أن الذى يجمله على الخط من أقدار الناس ، هو جمعه المال وتعيديه . أى عده مرة بعد أخرى ، شغفأ به وتلذذأ بإحصائه . لأنه لا يرى عزأً ولا شرفأً ولا مجدأً فى سواه .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٧٥ من إصلاح المنطق لابن السكيت .

(٢) [٨٣ / المطففين / ٣٠ و ٢٩] . (٣) [٦٨ / القلم / ١١] .

فكلما نظر إلى كثرة ما عنده منه ، انتفخ وظن أنه من رفعة المكانة ، بحيث يكون كل ذى فضل ومزية دونه . فهو يهزأ به ويهمزه ويلهزه . ثم لا يخشى أن تصيبه عقوبة على الهمز واللمز وتعزيق العرض . لأن غروره بالمال أنساه الموت وصرف عنه ذكر المال فهو « يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ » أى يظن أن ماله الذى جمعه وأحصاه ، وبجمل بإنفاقه ، مخلده فى الدنيا ، فزيل عنه الموت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ)

[٥] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ)

[٦] (نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ)

[٧] (الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ)

[٨] (إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ)

[٩] (فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ)

« كَلَّا » أى فليرتدع عن هذا الحسبان ، فإن الأمر ليس كما ظن . بل لا بد أن يفارق هذه الحياة إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سبب الأعمال ، كما قال « لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ » أى ليلقى ويلقى فى يوم القيامة فى النار التى من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها . أى تسكسه ، وكلمة (النبد) تفيد التحقير والتصغير « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ » استفهام عنها تهويل أمرها . كأنها ليست من الأمور التى تدركها العقول « نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ » أى هى النار التى لا تنسب إلا إليه سبحانه ، لأنه هو مُنشئها فى عالم لا يملكه سواه .

قال أبو السمود : وفى إضافتها إليه سبحانه ، ووصفها بالإيقاد ، من تهويل أمرها مالا يزيد عليه « الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ » قال ابن جرير^(١) : أى التى يطلع عليها ووجهها على القلوب .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩٤ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

والاطلاع والبلوغ قد يكونان بمعنى . حكي عن العرب سماعا (مَتَى طَلَعَتْ أَرْضُنَا) . و (طَلَعْتُ أَرْضِي) بِلَفْتٍ .

وقال الزخشرى : يعنى أنها تدخل فى أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم، وهى أوساط القلوب . ولاشئ فى بدن الانسان ألطف من الفؤاد، ولا أشد تألماً منه بأذى أذى عسه . فكيف إذا اطلمت عليه نار جهنم واستوتت عليه !! ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة . أو تطالع ، على سبيل المجاز معادن موجبها « إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ » أى مغلقة مطبقة لا تخلص لهم منها « فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ » صفة لمؤصدة، أو حال من الضمير المجرور . وإلى الوجهين أشار الزخشرى بقوله : والمعنى أنه يؤكّد بأسهم من الخروج ، وتميقنهم بحبس الأبد ، فتؤصد عليهم الأبواب ، وتمدد على العمدة ، استيثاقاً فى استيثاق . ويجوز أن يكون المعنى أنها عليهم مؤصدة ، موثقين فى عمد ممددة ، مثل المقاطر التى تقطر فيها اللصوص .

و (المقاطر) جمع (مقطرة) بالفتح ، وهى جذع كبير فيه خروق يوضع فيها أرجل الجبوسين من اللصوص ونحوهم (وتقطر) أى يجعل كلُّه بجنب آخر و (عمد) قرى بضم العين والميم وفتحهما .

قال ابن جرير^(١) : وهما قرأتان معروفتان ، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراء . ولغتان صحيحتان . والعرب تجمع العمود عمُداً وعمَداً ، بضم الحرفين وفتحهما ، كما تفعل فى جمع إهاب تجمعه أهْباً وأهْباً .

تذييه

قال القاشانى فى بيان آفات رذيلتى الهمز واللمز اللتين نزلت فى وعيدهما السورة ، ما مثاله : الهمز أى الكسر من أعراض الناس واللمز أى الطعن فيهم ، رذيلتان من كبتان من الجهل والغضب والكبر . لأنهما يتضمنان الإيذاء وطلب الترفع على الناس . وصاحبهما يريد أن

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

يتفضل على الناس ، ولا يجد في نفسه فضيلة يترفع بها . فينسب العيب والرديلة إليهم ، ليظهر فضله عليهم . ولا يشعر أن ذلك عين الرديلة . فهو مخدوع من نفسه وشيطانه موصوف برذيلتي القوة النطقية والغضبية .

ثم قال : وفي قوله تعالى (وَعَدَدَهُ) إشارة أيضاً إلى الجهل . لأن الذي جعل المال عدة للنوائب ، لا يعلم أن نفس ذلك المال يجر إليه النوائب . لاقتضاء حكمة الله تفريقه في النائبات ، فكيف يدفعها ؟ وكذا في قوله (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) أى لا يشعر أن المقتنيات المخلدة لصاحبها هي العلوم والفضائل النفسانية الباقية ، لا العروض والنخائر الجسدية الفانية . ولكنه مخدوع بطول الأمل ، مغرور بشيطان الوهم عن بغتة الأجل . والحاصل أن الجهل الذي هو رديلة القوة المللكية ، أصل جميع الرذائل ، ومستلزم لها . فلا جرم أنه يستحق صاحبه المغمور فيها ، العذاب الأبدى المستولى على القلب المبطل لجوهره .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٥ - سُورَةُ الْفِيلِ

مكية ، وآيها خمس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[٢] (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)

[٣] (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ)

[٤] (تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ)

[٥] (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ)

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ » يعنى الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب السكبة من الحبشة ، ورئيسهم أبرهة الحبشى الأشرم . كما سيأتى .

قال أبو السعود : الخطاب لرسول الله ﷺ . والهمزة لتقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام بإنكار عدمها . والرؤية علمية . أى ألم تعلم علماً رصيفاً ممتاخماً للمشاهدة والعيان ، باستماع الأخبار المتواترة ، ومعاينة الأنار الظاهرة . وتعليق الرؤية بكيفية فعله عز وجل لابنفسه ، بأن يقال ألم تر ما فعل ربك الخ - تمهويل الحادثة والإيدان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكال علمه وحكمته وعزة بيته وشرف رسوله عليه الصلاة والسلام . فإن ذلك من الإرهاصات . لما روى أن القصة وقعت فى السنة التى ولد فيها النبي عليه الصلاة والسلام ، كما سنأثره . وقوله تعالى « أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ » بيان إجمالى لما فعل بهم . أى لم يجعل مكرهم وسميهم لتخريب السكبة فى تضييع وإبطال المسأ حاولوا ، وتدميرهم أشد تدمير .

قال الرازى : اعلم أن الكيد هو إرادة مضرّة بالغير على الخفية (إن قيل) لم سماه

كيداً وأمره كان ظاهراً ، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت ؟ (قلنا) نعم لكن الذى كان فى قلبه شر مما أظهر . لأنه كان يضم الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة ، منهم ومن بلدهم ، إلى نفسه وإلى بلدته « وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ » أى طوائف متفرقة ، يتبع بعضها بعضاً من نواح شتى . و(أبابيل) جمع لاواحد له ، على ما حكاه أبو عبيدة والفراء . وزعم أبو جعفر الرؤاسي - وكان ثقة - أنه سمع واحداً إبالة بكسر الهمزة وتشديد الموحدة . وهى حزمة الحطب . استعير لجماعة الطير . وحكى الكسائى عن بعض النحويين فى مفردها (أبول) وعن آخرين (أبيل) سماعاً كما أنزه ابن جرير (١) . والتشكير فى (طيرا) إما للتحقير ، فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر . أو للتفخيم ، كأنه يقول وأى طير ترمى بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل . أفاده الرازى .

« تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ » أى من طين متحجر . وروى ابن وهب عن ابن زيد أن المعنى بالسجيل السماء الدنيا لأن اسمها سجيل .

قال ابن جرير (٢) : وهذا القول الذى قاله ابن زيد لانعرف لصحته وجها فى خبر ولا عقل ولا لغة . وأسماء الأشياء لاتدرك إلا من لغة سائرة أو خبر من الله تعالى ذكره « فَجَعَلَهُمْ كَمَصْفٍ مِّمَّا كُولِم » قال ابن جرير (٣) : كزرع أكلته الدواب فرائته ، فبیس وتفرقت أجزاءه . شبه تقطع أوصالهم بالعقوبة التى نزلت بهم ، وتفرقت آراب أبدانهم بها ، بتفرقت أجزاء الروث ، الذى حدث عن أكل الزرع .

قال الشهاب : ولم يذكر الروث لهجنته . فجاء على الآداب القرآنية . وفيه إظهار

تشويه حالهم .

- (١) انظر الصفحة رقم ٢٩٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .
- (٢) انظر الصفحة رقم ٢٩٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .
- (٣) انظر الصفحة رقم ٣٠٤ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال أبو مسلم : (العصف) التين ، لقوله ^(١) (ذُو الْعُصْفِ وَالرَّيْحَانُ ...) لأنه تعصف به الريح عند الذر ، فتفرقه عن الحب وهو إذا كان مأكولاً فقد بطل ولا رجعة له ولا منعة فيه . انتهى .

ومن الوجوه في الآية أن يكون المعنى : كزرع قد أكل حبه وبقى تبنة ، والتقدير كمعصف مأكول الحب . كما يقال فلان حسن أى حسن الوجه . فأجرى (مأكول) على (العصف) من أجل أنه أكل حبه . لأن هذا المعنى معلوم . ومنها أيضاً أن معنى (مأكول) مما يؤكل ، يعنى تأكله الدواب . يقال لسكل ما يصلح للأكل (هو مأكول) والمعنى جعلهم كتبين تأكله الدواب في التفرق والتفتت والهلاك . أشار له الرازى

تنبيهات :

الأول : كان السبب الذى من أجله حلت عقوبة الله تعالى لأصحاب الفيل ، مسير أبرهة الحبشى بجنده مع الفيل إلى بيت الله الحرام لتخريبه . وواقعة الفيل في ذاتها معروفة متواترة الرواية . حتى إنهم جعلوها مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث . فيقولون : ولد عام الفيل وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ومخوذ ذلك . وتفصيل نبئنا على ما أثره ابن هشام : أن أبرهة الحبشى كان أمير صنعاء للنجاشى . وكان زادين في النصرانية . فبنى بصنعاء كنيسة لم ير مثلها في زمانها . ثم كتب للنجاشى : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها الملك كان قبلك . ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب . فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشى غضب رجل من كفانة فخرج حتى أتى الكنيسة فقعدها فيها (أى أحدث فيها) ثم خرج فلقق بأرضه . فأخبر بذلك أبرهة فقال : من صنع هذا ؟ فقيل : صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذى يحج العرب إليه بمكة ، لما سمع قولك (أصرف إليها حج العرب) غضب فجاء فقعده فيها . أى أنها ليست لذلك بأهل . فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه . ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت . ثم سار وخرج معه بالفيل .

(٤) [٥٥ / الرحمن / ١٢] .

وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفضموا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام . نخرج إليه رجل كان من أشرف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر . فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإخراجه . فأجابه إلى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر وأصحابه وأتى به أسيراً . فلما أراد قتله قال له ذو نفر : أيها الملك ! لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي . فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق . وكان أبرهة رجلاً حليماً . ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له . حتى إذا كان بأرض خثعم عرض ثقيل بن حبيب الخثعمي في قبيلي خثعم : شهران وناهس ، ومن تبعه من قبائل العرب . فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له ثقيل أسيراً . فأتى به . فلما هم يقتله قال له ثقيل : أيها الملك ! لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب . وهاتان يداي لك على قبيلي خثعم : شهران وناهس ، بالسماح والطاعة . فغلب سبيله وخرج به معه يده . حتى إذا مر بالطائف خرج له مسعود بن معتب الثقفي في رجاله ثقيف . فقالوا له : أيها الملك ! إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عقدنا لك خلاف ، وليس يبتقنا هذا البيت الذي تريد - يعنون اللات - إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه . فتجاوز عنهم - واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة - فبعثوا معه أبارغال يده على الطريق إلى مكة . نخرج أبرهة ومعه أبورغال حتى أترله المغمس . فلما أترله به مات أبورغال هنالك : فرجعت قبره العرب . فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس . فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مفسود على خيل له حتى انتهى إلى مكة . فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم . وأصاب فيها مائتي بئر لعبد المطلب ابن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها . فهتت قريش وكفانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به . فتركوا ذلك . وبعث أبرهة حفاظة الحميري إلى مكة وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له : إن الملك يقول لك : إني لم آت لحربكم . إنما جئت لهدم هذا البيت . فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب ، فلا حاجة لي في دمائكم .

فإن هو لم يرد حربى فأتى به . فلما دخل حنافة مكة سأل من سيد قريش وشريفها . فقيل له عبد المطلب بن هاشم . فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ! ما يزيد حربيه وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام وبيت خليله عليه السلام (أو كما قال) فإن يغممه منه فهو بيته وحرمة . وأن يخل بينه وبينه ، فوالله ! ما عندنا دفع عنه . فقال له حنافة : فانطلق معى إليه ، فإنه قد أمرنى أن آتية بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى أتى المسكر . فسأل عن ذى نقر وكان له صديقا حتى دخل عليه وهو فى محبسه . فقال له : ياذا نقر ! هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذونقر : وماغناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشياً . ما عندى غناء فى شيء مما نزل بك ، إلا أن أنيسا سائس الفيل صديق لى . فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقمك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فيكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير ، إن قدر على ذلك . فقال : حسبي . فبعث ذونقر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة . يطعم الناس بالسهم ، والوحوش فى رؤوس الجبال . وقد أصاب له الملك مائتى بعير ، فاستأذن له عليه واتقعه عنده بما استطعت . فقال : أفعل . فكلم أنيس أبرهة فقال له : أيها الملك ! هذا سيد قريش يبابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة ، وهو يطعم الناس فى السهم ، والوحوش فى رؤوس الجبال . فأذن له عليك فليكلمك فى حاجته . قال فأذن له أبرهة . قال : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم . فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته . وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه . فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه . ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان . فقال : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى . فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له قد كنت أعجبته حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني . أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لخدمه لا تكلمنى فيه قال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه . قال : وما كان ليتمنع منى . قال :

أنت وذاك . وكان ، فيما يزعم أهل العلم ، قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة حين بعث إليه حناطة - يعمر بن نفاعة سيد بنى بكر وخويلد بن وائلة سيد هذيل . فعرضوا على أبرهة تلك أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى عليهم . والله أعلم ، أكان ذلك أم لا . فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له . فلما انصرفوا عنه ، انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال والشعاب ، تخوفاً عليهم من معرة الجيش . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة . وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده . فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لا هُمَّ إِنْ الْعَبَدَ يَ نَع رَحَلَهُ ، فَا مَنَع خِلَالَكَ
 لا يَغْلِبُنَّ صَلِيْبُهُمْ وَمَحَالُهُمْ ، عَدَاؤًا مِحَالِكَ
 إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَقَبِّ لَمَتْنَا ، قَامَرٌ مَا بَدَا لَكَ

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال ، فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله وعبي جيشه ، وأبرهة يجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن . فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نقيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل فأخذ بأذنه . فقال له : ابرك أو ارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام . ثم أرسل أذنه فبرك الفيل . وخرج نقيل يشتر حتى أضعف في الجبل . وضربوا الفيل ليقوم . فصرخوا رأسه ليقوم فأبى . فأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه بها - أي أدموه - ليقوم فأبى . فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله تعالى طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال الحص والمديس ، لاتصيب منهم أحداً إلا هلك . وليس كلهم أصابت . وخرجوا هاربين يبتعدون الطريق الذي

منه جاءوا . ويسألون عن نضيل ليدلهم على الطريق إلى اليمن . فقال نضيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نعمته :

أين الفرء والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب
نخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك . على كل منهل . وأصيب أبرهة في
جسده . وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة . كلما سقطت منه أنملة أتبعها منه مدة تمث - أى
تسيل - قيحاً ودماً . حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر . فمات حتى انصدع
صدره عن قلبه ، فيما يزعمون .

قال ابن إسحق : حدثني يعقوب بن عتبة . أنه حدث أن أول مارؤيت الحصبة والجدرى
بأرض العرب ، ذلك العام .

قال ابن إسحق : فلما بعث الله محمداً ﷺ ، كان مما بعث الله على قريش من نعمته عليهم
وفضله ، ما رد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ
رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ...) السورة .

ثم قال ابن إسحق : فلما رد الله الحبشة عن مكة ، وأصابهم بما أصابهم به من النعمة ،
أعظمت العرب قريشاً وقالوا : أهل الله ؛ قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم . فقالوا في ذلك
أشعاراً يذكر فيها ما صنع الله بالحبشة ، وما رد عن قريش من كيدهم . ثم ساق القصائد في ذلك .
وإنما آثرت في سياقها ما رواه ابن هشام عن ابن إسحق . لأنه أحسن اقتصاصاً وأبلغ
سبكاً ، لإثارته عن صميم العربية روايات نبغاء رجالها ، فرحمه الله ورضى عنه .

التنبية الثانية : إنما أضيف أمر القصة إلى الفيل ، واشتهرت به ، لاصطحابهم الفيل معهم
للبطش والتخريب . فإنه لو تم لقائديه كيدهم ، لكان الفيل يدبهم العاملة وسهمهم النافذ .
وذلك أن جبابرة البلاد التي يوجد فيها الفيل يتخذونه آلة بطش وانتقام . فإذا غضبوا على
محارب وأسروه ، أو وزير وأوثقوه ، أو بلد ونازلوا حصنه - أرسلوا على دار المغضوب عليه أو
حصنه الفيل ، فتنطح برأسه ونابه الصرح فيدكه . وقواعد البنيان فيهدمها . فيكون أمضى من
معاول وفؤوس . وأعظم رعباً ورهبة في النفوس . وربما ألقوا المسخوط عليه بين يديه ، فأعمل فيه

نابه ، ولف عليه خرطومه وشاله ، ومثل به تمثيلاً ، كان أشد بطشاً وتمسكياً . وقد حدثني
بغرائب هذه الفظائع الجاهلية بعض آل ملوك الأفغان لما أقام مدة بالشام .

الثالث : قال القاشاني : قصة أصحاب الفيل مشهورة ، وواقعتهم قريبة من عهد الرسول

ﷺ . وهي إحدى آيات قدرة الله ، وأثر من سخطه على من اجترأ عليه بمسك حرمه . وإلهام
الطيور والوحوش أقرب من إلهام الإنسان لكون نفوسهم ساذجة . وتأثير الأحجار بخاصية
أودعها الله تعالى فيها ، ليس بمستفكر . ومن اطلع على عالم القدرة ، وكشف له حجاب
الحكمة ، عرف لمة أمثال هذه .

قال : وقد وقع في زماننا مثلها من استيلاء الفار على مدينة أبيورد وإفساد زروعهم
ورجوعها في البرية إلى شط جيحون ، وأخذ كل واحدة منها خشبة من الأيكة التي على شط
نهرها وركوبها عليها وعبورها بها من النهر .

الرابع : قال الإمام الماوردي في (أعلام النبوة) : آيات الملك باهرة ، وشواهد النبوات

قاهرة . تشهد مبادئها بالعواقب فلا يلتبس فيها كذب بصدق . ولا منتحل بمحق . وبحسب
قوتها وانتشارها يكون بشائرهما وإنذارها . ولما دنا مولد رسول الله ﷺ تقاطرت آيات نبوته
وظهرت آيات بركته . فكان من أعظمها شأنا . وأظهرها برهانا . وأثمرها عيانا وبيانا .
أصحاب الفيل . أنفذهم النجاشي من أرض الحبشة في جمهور جيشه إلى مكة لقتل رجالها وسبي
ذرائعها وهدم الكعبة . وآية الرسول في قصة الفيل أنه كان في زمانها حملا في بطن أمه بكعبة .
لأنه ولد بعد خمسين يوماً من الفيل . فكانت آيته في ذلك من وجهين : أحدهما أنهم لو ظفروا
لسبوا واسترقوا . فأهلكهم الله تعالى لصيانته رسوله أن يجري عليه السبي حملا ووليدا . والثاني
أنه لم يكن لفريش من التاله ما يستحقون به دفع أصحاب الفيل عنهم . وما هم أهل كتاب لأنهم
كانوا بين عابد صنم أو متدين وثن أو قائل بالزندقة أو مانع من الرجعة . ولكن لما أراد الله تعالى
من ظهور الإسلام تأسيساً للنبوة وتمظيلاً للكعبة ، وأن يجعلها قبلة للصلاة ومنسكاً للحج .
فإن قيل . فكيف منع عن الكعبة قبل مصيرها قبلة ومنسكاً ، ولم يمنع الحجاج من
هدمها وقد صارت قبلة ومنسكاً حتى أحرقها ونصب المنجنيق عليها ؟

قبيل : فعلُ الحجاج كان بعد استقرار الدين ، فاستغنى عن آيات تأسيسه ، وأصحاب الفيل كانوا قبل ظهور النبوة فجعل المنع منها آية لتأسيس النبوة ومجيء الرسالة . على أن الرسول قد أُنذر بهدمها فصار الهدم آية بعد أن كان المنع آية فلذلك اختلف حكمهما في الحالين والله تعالى أعلم . ولما انتشر في العرب ما صنع الله تعالى بجيش الفيل ، تهيّبوا الحرم وأعظموه وزادت حرمة في النفوس ودانت قريش بالطاعة وقالوا : أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم ، فزادوهم تشريفاً وتمظيلاً ، فصاروا أئمةً ديانين ، وقادة متبوعين . وصار أصحاب الفيل مثلاً في الغابرين . وكان شأن الفيل رادعاً لكل باغ ودافعاً لكل طاغ . وقد عاصر رسول الله ﷺ في زمن نبوته وبعد هجرته ، جماعة شاهدوا الفيل وطير الأبايل . منهم حكيم بن حزام وحاطب ابن عبد العزى ونوفل بن معاوية . لأن كل واحد من هؤلاء عاش مائة وعشرين سنة . منها ستين سنة في الجاهلية وستين سنة في الإسلام . انتهى .

الخامس : ورد في كثير من الأحاديث الصحيحة الإشارة إلى نبأ الفيل . روى البخارى^(١) أن النبي ﷺ لما أظلم يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش ، بركت ناقته فزجروها فألحت فقالوا : خلأت القصواء - أي حرنت - فقال رسول الله ﷺ : ما خلأت القصواء وما ذاك لها بمخلق . ولكن حبسها حابس الفيل ؛ قال ابن الأثير في (النهاية) : هو فيل أبرهة الحبشي الذي جاء يقصد خراب الكعبة ، فحبس الله الفيل فلم يدخل الحرم . ورد رأسه راجعاً من حيث جاء . يعني أن الله حبس ناقه النبي ﷺ لما وصل إلى الحديبية . فلم تقدم ولم تدخل الحرم . لأنه أراد أن يدخل مكة بالمسلمين . وفي الصحيحين^(٢) أيضاً أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين . وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس . ألا فليبلغ الشاهد الغائب .

(١) أخرجه في : ٥٤ - كتاب الشروط ، ١٥ - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، حديث ٨٨١ ، ٨٨٢ عن المسور بن مخرمة ومروان . (٢) أخرجه البخارى في : ٣ - كتاب العلم ، ٣٩ - باب كتابة العلم ، حديث رقم ٩٦ عن أبي هريرة . وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٤٤٧ و ٤٤٨ (طبعتنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٦ - سُورَةُ قَرِيشٍ

مكية ، وآيها أربع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (لَا يَلْفِ قَرِيْشٍ)

[٢] (إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ)

[٣] (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ)

[٤] (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

« لَا يَلْفِ قَرِيْشٍ * إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ » قال ابن هشام: إيلاف قريش إليهم الخروج إلى الشام في تجارتهم. وكانت لهم خرجتان: خرجة في الشتاء وخرجة في الصيف. قال: أخبرني أبو زيد الأنصاري أن العرب تقول: ألفت الشيء، إلفاً، وألفته إيلافاً، في معنى واحد وأنشدني لذي الرمة^(١) :

من المؤلِّفاتِ الرُّمْلَ إِدْمَاءَ حَرَّةٍ
شِعَاعُ الضُّحَى فِي لُونِهَا يَتَوَضَّحُ

والإيلاف أيضاً أن يكون للإنسان ألف من الإبل أو البقر أو الغنم أو غير ذلك، ويقال ألف فلان إيلافاً، قال السكيت بن زيد^(٢) :

بِعَامٍ يَقُولُ لَهُ الْمُؤَلِّفُو
نَ هَذَا الْمُعِيمُ لَنَا الْمُرْجَلُ

(١) استشهد به في اللسان (ج ٩ ص ١٠) طبعة بيروت .

شعاع الضحى : بريق لونه . يتوضح : يتبين .

(٢) العيم من العيمة ، وهي الشوق إلى اللبن . والمرجل : الذي تذهب إبله فيمشي على

أرجله . يريد أن تلك السنة تجعل صاحب الألف من اللبن ، يعام إلى اللبن ويسعى ماشياً .

والمعيم العام الذي قل فيه اللبن . والإيلاف أيضا أن يصير القوم ألفا ؛ يقال ألف القوم إيلافا . قال الكميت :

وَأَلْ مُزَيَّقِيَاءَ غَدَاةَ لَاقُوا بنى سعد بن ضَبَّةَ مُؤَلِّفِينَا

والإيلاف أيضا أن يُؤلف الشيء إلى الشيء ، فيألفه ويلزمه . يقال : آلفته إياه إيلافا . والإيلاف أيضا أن تصير ما دون الألف ألفا . يقال : آلفته إيلافا . انتهى . ولورود الإيلاف بهذه المعاني ، ظهر سر إبداله بالمقيد منه بعد إطلاقة . مع ما في الإيهام ، ثم التفسير من التفخيم والتقرير . روى ابن جرير^(١) عن عكرمة قال : كانت قريش قد ألفوا بصرى واليمن ، يختلفون إلى هذه في الشتاء وإلى تلك في الصيف . وعن ابن زيد قال : كانت لهم رحلتان : الصيف إلى الشام والشتاء إلى اليمن في التجارة . إذا كان الشتاء امتنع الشام منهم لمكان البرد . وكانت رحلتهم في الشتاء إلى اليمن . وعن ابن عباس قال : كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف . والأكثر على الأول . واللام في قوله (لإيلاف) متعلق بقوله تعالى : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ » أي فليعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين . ودخلت الفاء ، لما في الكلام من معنى الشرط . إذ المعنى ، أن نعم الله تعالى عليهم غير محصورة . فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة . والبيت هو الكعبة المشرفة « الَّذِي أَطَعَهُمْ مِنْ جُوعٍ » أي جوع شديد كانوا فيه قبل الرحلتين ذ (من) تعليلية . أي أنهم عليهم وأطعمهم لإزالة الجوع عنهم أو بدلية « وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » أي مما يخاف منه من لم يكن من أهل الحرم من الغارات والحروب والقتال والأموال التي كانت العرب يخاف بعضها من بعض . قال ابن زيد : كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها بعضا . فأمنوا من ذلك لمكان الحرم وقرأ^(٢) (أَوْلَمْ نُمَسِّكْ لَهُمْ حَرَمًا مَاءً مِمَّا يُجِبُّ إِلَيْهِ نَمْرَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ) ونظيره أيضا قوله تعالى^(٣) (أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَاءً مِمَّا يَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٢٨ / القصص / ٥٧] . (٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] .

تنبیه :

زعم بعض الناس أن اللام في (لِإِيْلَافٍ) متعلق بما قبله أي فجعلهم كعصف ما كقول لإيلاف قريش . قال الشهاب : وعلى هذا لا بد من تأويله . والمعنى : أهلكتهم ولم يسلط على أهل حرمه ليبقوا على ما كانوا عليه . أو أهلكت من قصدهم ليعتبر الناس ولا يجترئ عليهم أحد ، فيتم لهم الأمن في الإقامة والسفر ، أو هي لام العاقبة . انتهى .

ولا يخفى ما فيه من التكلف . ولذا قال ابن جرير^(١) في رده : وأما القول الذي قاله من حكينا قوله أنه من صلة قوله (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) فإن ذلك لو كان كذلك لوجب أن يكون (لِإِيْلَافٍ) بعض (أَلَمْ تَرَ) وأن لا تكون سورة منفصلة من (أَلَمْ تَرَ) وفي إجماع جميع المسلمين على أنهما سورتان تامتان ، كل واحدة منهما منفصلة عن الأخرى ، ما يبين عن فساد القول الذي قاله من قال ذلك . ولو كان قوله (لِإِيْلَافٍ قُرَيْشٍ) من صلة قوله (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) لم تكن (أَلَمْ تَرَ) تامة حتى توصل بقوله (لِإِيْلَافٍ قُرَيْشٍ) لأن الكلام لا يتم إلا بانقضاء الخبر الذي ذكر . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٧ - سُورَةُ الْمَاعُونِ

مدنية ، وآيها سبع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالِدِينِ)

[٢] (فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ)

[٣] (وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ)

[٤] (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ)

[٥] (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

[٦] (الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ)

[٧] (وَيَعْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالِدِينِ » أى بثواب الله وعقابه ، فلا يطيعه فى أمره ونهييه . قال أبو السعود : استفهام أريد به تشويق السامع إلى معرفة من سيقوله الكلام والتعجب منه . والخطاب للنبي ﷺ . أو لكل عاقل . والرؤية بمعنى العلم . والفاء فى قوله تعالى « فذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ » جواب شرط محذوف ، على أن (ذلك) مبتدأ والموصول خبره . والمعنى : هل عرفت الذى يكذب بالجزاء أو بالإسلام ، إن لم تعرفه أو إن أردت أن تعرفه فهو الذى يدفع اليتيم دفعا عنيفا ويذره زجرا قبيحا . يقال : دفعت فلانا عن حقه : دفعت عنه وظلمته « وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ » أى لا يحث غيره من ذوى اليسار على إطعام المحتاج وسد ختمه . بل يبخل بسعيه عند الأغنياء لإغاثة البؤساء .

قال الشهاب : إن كان الطعام بمعنى الإطعام ، كما قاله الراغب ، فهو ظاهر . وإلا ففيه مضاف مقدر . أى بذل طعام المسكين . واختياره على الإطعام للإشعار بأنه كأنه مالك لما يعطى له

كفى قوله^(١) (فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مِّمَّا لَكُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمَحْرُومِ) فهو بيان لشدة الاستحقاق. وفيه إشارة للنهي عن الامتنان : قال أبو السعود : وإذا كان حال من ترك حث غيره على ما ذكر ، فما ظنك بحال من ترك ذلك مع القدرة ؟

قال الزمخشري : جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف. يعني أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد ، خشى الله تعالى وعقابه ، ولم يقدم على ذلك . فحين أقدم عليه علم أنه مكذب ، فما أشده من كلام ! وما أخوفه من مقام ! وما أبلغه في التخدير من العصية وإنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين ، وقوله تعالى «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ» قال ابن جرير^(٢) : أي لاهون يتغافلون عنها وذلك باللهوعنها والتشاغل بغيرها . وتضييعها أحياناً وتضييع وقتها أخرى . وقال القاشاني : أي فويل لهم ، أي للوصوفين بهذه الصفات ، من دغ اليتيم وعدم الحث على طعام المسكين. الذين إن صلوا غفلوا عن صلاتهم لاحتجابهم عن حقيقتها بجهلهم وعدم حضورهم . و(المصلين) من باب وضع الظاهر موضع المضمحل للتسجيل عليهم بأن أشرف أفعالهم وظهور حسناتهم سيئات وذنوب ، لعدم ماهي به معتبرة من الحضور والإخلاص ، وأورد على صيغة الجمع لأن المراد بالذي يكذب هو الجنس «الَّذِينَ هُمْ يُرْآؤُونَ» أي يراؤون الناس بصلاتهم إذا صلوا لأنهم لا يصلون رغبة في ثواب ، ولا رهبة من عقاب . وإنما يصلونها ليراهم المؤمنون فيظنهم منهم فيكفروا عنهم . وأصل المراءاة أن ترى غيرك ويراك . أريد به العمل عند الناس ليثبوا عليهم . أوضعه الشهاب .

«وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» أي ما يعان به الخلق ويصرف في معونتهم من الأموال والأمتعة وكل ما ينتفع به ، لكون الجهل حاكماً عليهم بالاستئثار بالمنافع وحرمانهم عن النظر التوجيدي

(١) [٧٠ / المارج / ٢٤ و ٢٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٩٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

وعدم اعتقادهم بالجزاء . فلا محبة لهم للحق للركون إلى العالم الفاني ، ولا عدالة في أنفسهم للاتصاف بالذائل والبعد عن الفضائل ، فلا يماونون أحداً فلن يفلحوا أبداً . قاله القاشاني .

تنبيه :

المعنى بهذه الآيات أولاً وبالذات المنافقون في عهد النبوة . ويدخل فيها ثانياً وبالعرض ، كل من وجد فيهم تلك الخلال الذميمة اعتباراً بالعموم . فالسورة مدنية . ونظيرها في المنافقين قوله تعالى (١) (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالاً يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) ولذا قال ابن عباس فيما رواه ابن جرير (٢) : هم المنافقون ، كانوا يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا ، ويعفونهم العارية بفضاً لهم ، وهو الماعون .

(١) [٤ / النساء / ١٤٢] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣١٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٨ - سُورَةُ الْكَوْثَرِ

مكية ، ويقال مدنية ، وآياتها ثلاث .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

[٢] (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ)

[٣] (إِنْ شَاءَ نَبِّكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

« إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » أى الخير الكثير من القرآن والحكمة والنبوة والدين الحق والهدى وما فيه سعادة الدارين . روى ابن جرير^(١) عن أبى بشر قال : سألت سميد بن جبير عن الكوثر ، فقال : هو الخير الكثير الذى آتاه الله إياه . فقلت لسميد : إنا كنا نسمع أنه نهر فى الجنة . فقال : هو من الخير الذى أعطاه الله إياه « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ » قال الإمام : أى فاجعل صلاتك لربك وحده ، وانحر ذبيحتك مما هو نسك لك لله وحده ، فإنه هو مربيك ومسبغ نعمه عليك دون سواه ، كما قال تعالى^(٢) (قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنَسَكْتُ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لِأَشْرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) « إِنْ شَاءَ نَبِّكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » قال ابن جرير^(٣) : أى إن مبعضك يا محمد ، وعدوك ، هو الأبتَر . يعنى الأقل الأذل المنقطع دابره الذى لاعتقب له .

روى ابن إسحق عن يزيد بن رومان قال : كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : (دعوه فإنه رجل أبتَر لاعتقب له . فإذا هلك انتقطع ذكره) فأنزل الله هذه السورة .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٢١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٢ و ١٦٣] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٣٢٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

وعن عطاء قال : نزلت في أبي لُهب . وذلك حين مات ابن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب أبو لُهب إلى المشركين فقال : بتر محمد الليلة . فأنزل الله ، في ذلك ، السورة . وقال شمر بن عطية : نزلت في عقبة بن أبي معيط . قال ابن كثير : والآية تتم جميعاً من انصف بذلك ، ممن ذكر وغيرهم .

وقال الإمام : كان المستهزئون من قريش كالعاص بن وائل وعقبة بن أبي معيط وأبي لُهب وأمثالهم ، إذا رأوا أبناء النبي ﷺ يقولون ، يقولون : بتر محمد . ألى لم يبق له ذكر في أولاده من بعده ، ويعمدون ذلك عيباً يلزونه به وينفرون به الناس من أتباعه وكانوا إذا رأوا ضعف المسلمين وفقرتهم وقتلتهم يستخفون بهم ويهونون أمرهم ، ويمعدون ذلك مغمزاً في الدين . ويأخذون القلة والضعف دليلاً على أن الدين ليس بحق ، ولو كان حقاً لنشأ مع الفنى والقوة ، شأن السفهاء مع الحق في كل زمان أو مكان غلب فيه الجهل . وكان المنافقون إذا رأوا ما فيه المؤمنون من الشدة والبأساء يمتنون أنفسهم بقلبة إخوانهم القدماء من الجاحدين . وبتظرون السوء بالمسلمين لقلّة عددهم وخلوّ أيديهم من المال . وكان الضمفاء من حديثي العهد بالإسلام من المؤمنين ، تمرُّ بنفوسهم خواطر السوء عند ما تشد عليهم حلقات الضيق . فأراد الله سبحانه أن يحص من نفوس هؤلاء ، ويبكت الآخرين ، فأكد الخبر لنبيه ، أن ما يخيلة النظر القصير قليلاً ، هو الكثير البالغ الغاية في الكثرة . ليؤكد له الوعد بأنه هو الفائز ، وأن متبعمه هو الظافر ، وأن عدوه هو الخائب ، الأبر الذي يحصى ذكره ويعنى أثره .

تنبيه :

لما روى من سبب نزول هذه السورة مما روينا ، ذهب إمام اللغة ابن جني إلى تأويل الكوثر بالذرية الكثيرة . وهو معنى بديع فيه مناسبة لسبب النزول .

قال ابن جني في (شرح ديوان المتنبى) في قوله يمدح طاهر بن الحسين العلوي :

وأبهرُ آياتِ التهامي أنه أبوك وأجدى مالكم من مناقب

في جملة ما أملاه على أبو الفضل العروضي: أن قريشا وأعداء النبي ﷺ كانوا يقولون: إن محمداً أبتراً لآعقب له. فإذا مات استرحنا منه فأُنزل الله تعالى: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) أى العدد الكثير، ولست بالأبتر الذى قالوه. ومراده بالعدد الكثير الذرية وهم أولاد فاطمة. قال العروضي: فإن قيل: الإنسان بالأبناء والآباء والأمهات. قلنا: هذا خلاف حكم الله تعالى فإنه قد قال (١): (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ) إلى قوله (وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ) فجعل عيسى من أولاد إبراهيم ومن ذريته. ولا خلاف في أنه لم يكن لعيسى أب. انتهى.

وقد بسطنا أدلة صحة انتساب الأسباط إلى أجدادهم في كتاب (شرف الأسباط) بما لا مزيد عليه. فراجع.

(١) [٦ / الأنعام / ٨٤].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٩ - سُورَةُ الْكَافِرُونَ

مكية ، وآياتها ست . قال ابن كثير : ثبت في صحيح مسلم ^(١) عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبـ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) في ركعتي الطواف . وفي صحيح مسلم ^(٢) من حديث أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر . وروى الإمام أحمد ^(٣) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعاً وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) . وروى الإمام أحمد عن الحارث ابن جبلة قال : قلت : يا رسول الله ! علمني شيئاً أقوله عند منامى . قال : إذا أخذت مضجعتك من الليل فاقرا : قل يا أيها الكافرون ، فإنها براءة من الشرك . وقد تقدم في الحديث أنها تعدل ربع القرآن . قال في (اللباب) : ووجه ذلك أن القرآن مشتمل على الأمر والنهي ، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بعمل القلوب وإلى ما يتعلق بعمل الجوارح ، فحصل من ذلك أربعة أقسام . وهذه السورة مشتملة على النهي عن عبادة غير الله تعالى ، وهي من الاعتقاد ، وذلك من أفعال القلوب . فكانت هذه السورة ربع القرآن على هذا التقسيم . وسيأتى في تفسير الإخلاص سر آخر .

(٢١) هذان الحديثان أملى التنقيب عنهما ولم أعتز عليهما .

(٣) أخرجه بالصفحة رقم ٥٨ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٥٢١٥

(طبعة المعارف) .

(٤) ليس من الصحابة من اسمه الحارث بن جبلة ، كما هنا ، ولكن هذا الحديث أخرجه

عن فروة بن نوفل الأشجعي عن أبيه ، بالصفحة رقم ٤٥٦ من الجزء الخامس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (قُلْ يَسْأَلُهَا الْكَافِرُونَ)
- [٢] (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)
- [٣] (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)
- [٤] (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ)
- [٥] (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)
- [٦] (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

«قُلْ يَسْأَلُهَا الْكَافِرُونَ» أى المشركون الجاحدون للحق، الذى وضحت حججه واتضحت حججه «لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» أى من الآلهة والأوثان الآن «وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ» أى الآن «وَلَا أَنَا عَابِدٌ» أى فيما استقبل «مَّا عَبَدْتُمْ» أى فيما مضى «وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ» أى فيما تستقبلون أبدأ «مَّا أَعْبُدُ» أى الآن وفيما استقبل - هكذا فسرہ الإمام ابن جرير^(١) رحمه الله. ثم قال: وإنما قيل ذلك كذلك، لأن الخطاب من الله كان لرسول الله ﷺ في أشخاص بأعيانهم من المشركين، قد علم أنهم لا يؤمنون أبدأ، وسبق لهم ذلك في السابق من علمه. فأمر نبيه ﷺ أن يؤيسهم من الذين طمعوا فيه وحدثوا به أنفسهم. وإن ذلك غير كائن منه ولا منهم في وقت من الأوقات. وأيس نبي الله ﷺ من الطامع في إيمانهم، ومن أن يفلحوا أبدأ. فكانوا كذلك لم يفتحوا ولم ينجحوا. إلى أن قتل بعضهم يوم بدر بالسيف، وهلك بعض قبل ذلك كافراً. ثم روى رحمه الله عن ابن إسحق عن سعيد بن مينا قال : لقي الوليد بن المغيرة

(١) انظر الصفحة رقم ٣٣١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية).

والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأميمة بن خلف ، رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! هلم، فلنعبد ماتعبد وتعبد ماتعبد، ونشركك في أمرنا كله. فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يديك، كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت منه بحظك. فأُنزل الله (قُلْ يَدَايَئُهَا الْكَلْبُورُ...) السورة. وفي رواية: وأُنزل الله في ذلك هذه السورة، وقوله (١) (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنيَ أَنْ أَعْبُدَ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) (بَلِ اللَّهِ فَاَعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) انتهى .

وقيل: الجملتان الأخيرتان لنفي العبادة حالاً. كما أن الأوليين لنفيها استقبالاً. قال أبو السعدي: وإنما لم يقل (ما عبادت) ليوافق (مَا عَبَدْتُمْ) لأنهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام، وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسوماً بعبادة الله تعالى. وإيثار (ما) في (مَا أَعْبُدُ) على (مَنْ) لأن المراد هو الوصف. كأنه قيل (ما أعبد) من العبود العظيم الشأن الذي لا يقدر قدر عظمته. وقيل: إن (ما) مصدرية. أى لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتى. وقيل: الأوليان بمعنى (الذى) والأخريان مصدريتان. وقيل: قوله تعالى (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ) تأكيد لقوله تعالى (لَا أَعْبُدُ مَّا تَعْبُدُونَ) وقوله تعالى (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ) ثانياً تأكيداً لمثله المذكور أولاً. انتهى .

ونقل ابن كثير عن الإمام ابن تيمية؛ أن المراد بقوله (لَا أَعْبُدُ مَّا تَعْبُدُونَ) نفي الفعل، لأنها جملة فعلية (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ) نفي قبوله لذلك بالسكينة، لأن النفي بالجملة الاسمية أكد، فكأنه نفي الفعل وكونه قابلاً لذلك. ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعى أيضاً. وهو قول حسن .

واختار الإمام كون (ما) في الأوليين موصولة وفيما بعدها مصدرية، قال: ففاد الجملتين الأوليين الاختلاف التام في العبود. ومفاد الجملتين الأخيرتين تمام الاختلاف في العبادة. فلا

(١) [٣٩ / الرمز / ٦٤ و ٦٦] .

معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة ، لأن معبودى ذلك الإله الواحد المنزه عن النسد والشفيع ، المتعالى عن الظهور فى شخص معين ، الباسط فضله لكل من أخلص له ، الآخذ قهره بخاصية كل من نابذ المبلغين الصادقين عنه . والذى تعبدونه على خلاف ذلك . وعبادتى مخصصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى ، فلا تسمى على الحقيقة عبادة . فأين هى من عبادتى ؟ وقوله تعالى « لَكُمْ دِينُكُمْ » تقرير لقوله تعالى (لَّا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) وقوله تعالى (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ) كما أن قوله تعالى « وَلِي دِينِ » تقرير لقوله تعالى (وَلَا أَنْتُمْ عِبَادُونَ مَّا أَعْبُدُ) والمعنى أن دينكم ، الذى هو الإشرأك ، مقصور على الحصول لكم ، لا يتجاوزهُ إلى الحصول لى أيضا ، كأنطمعون فيه . فإن ذلك من المحالات . وأن دينى الذى هو التوحيد ، مقصور على الحصول لى ، لا يتجاوزهُ إلى الحصول لكم ، فلا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه .

تنبيه :

قال ابن كثير استدلل الإمام الشافعى وغيره بهذه الآية الكريمة (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ) على أن الكفر كله ملة واحدة فورث اليهود من النصارى وبالعكس ، إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به . لأن الأديان ، ماعدا الإسلام ، كلها كالشئء الواحد فى البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم تورث النصارى من اليهود ، وبالعكس . لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) (لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى) .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي)

والحديث رقم ٦٦٦٤ (طبعة المعارف) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٠ - سُورَةُ النَّصْرِ

مدنية ، وآياتها ثلاث .

وهي آخر سورة نزلت في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما . وروى البيهقي عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ قال ، لما نزلت هذه السورة : إنه قد نعت إلى نفسي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

[٢] (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا)

[٣] (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ » أى لدينه الحق على الباطل « وَالْفَتْحُ » أى فتح مكة الذى فتح الله به بينه وبين قومه صلوات الله عليه، فجعل له الغلبة عليهم وضمف أمرهم فى التمسك بعقائدهم الباطلة « وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا » أى ورأيت الناس من صفوف العرب وقبائلها عند ذلك يدخلون فى دين الله ، وهو دينك الذى جئتهم به لزوال ذلك الفناء الذى كان يحول بينهم وبينه ، وهو غطاء قوة الباطل فيقبلون عليه أفواجاً طوائف وجماعات لا آحاداً ، كما كان فى بدء الأمر أيام الشدة . إذا حصل ذلك كله وهو لا يرب حاصل « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ » أى فتره ربك عن أن يهمل الحق ويدعه للباطل يأكله . وعن أن يخلف وعده فى تأييده . وليكن هذا التنزيه بواسطة حمده والثناء عليه بأنه القادر الذى لا يعليه غالب، والحكيم الذى إذا أمهل الكافرين ليمتحن قلوب المؤمنين ، فلن يضيع أجر العاملين ولا يصلح عمل المفسدين . والبصير بما فى قلوب المخلصين والمنافقين ، فلا يذهب عليه رياء المرائين « وَاسْتَغْفِرْهُ » أى اسأله أن يغفر لك ولأصحابك ما كان من القلق والضجر والحزن، لتأخر زمن النصر والفتح . والاستغفار إنما يكون بالتوبة الخالصة . والتوبة من القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعده الله، وتفليم هذه الثقة على خواطر النفس التى تحدثها الشدائد، وهو وإن كان مما يشق على نفوس البشر ، ولكن الله علم أن نفس نبيه ﷺ قد تبلغ ذلك الكمال .

فلذلك أمره به ، وكذلك تقاربه قلوب الكمل من أصحابه وأتباعه عليه السلام . والله يتقبل منهم « إِنَّهُ وَكَانَ تَوَّابًا » أي إنه سبحانه لا يزال يوصف بأنه كثير القبول للتوبة ، لأنه ربُّ يربي النفوس بالحنن . فإذا وجدت الضعف أنهضها إلى طلب القوة ، وشددهما بحسن الوعد . ولا يزال بها حتى تبلغ الكمال . وهي في كل منزلة تتوب عن التي قبلها . وهو سبحانه يقبل توبتها فهو التواب الرحيم . وكان الله يقول : إذا حصل الفتح ، وتحقق النصر ، وأقبل الناس على الدين الحق ، فقد ارتفع الخوف وزال موجب الحزن ، فلم يبق إلا تسبيح الله وشكره ، والزرع إليه عما كان من خواطر النفس . فلن تعود الشدة تأخذ نفوس المخلصين ما داموا على تلك السكينة في ذلك الإخلاص . ومن هذا أخذ النبي ﷺ أن الأمر قد تم ولم يبق له إلا أن يسير إلى ربه ، فقال فيما روى عنه : إنه قد نعت إليه نفسه . هذا ملخص ما أورده الإمام في تفسيره .

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : المراد بالفتح ههنا فتح مكة قولاً واحداً . فإن أحياء العرب كانت تلوّم بإسلامها فتح مكة . يقولون إن ظهر على قومه ، فهو نبي . فلما فتح الله عليه مكة ، دخلوا في دين الله أفواجاً ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً . ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام والله الحمد والمنة . وقد روى البخاري في صحيحه ^(١) عن عمرو ابن سلمة : كنا بماء ممرّ الناس . وكان يمرُّ بنا الركبان فنسألهم : مال للناس ؟ مال للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله أوحى إليه (أو أوحى الله بكذا) فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنا بمنعوى في صدرى . وكانت العرب تلوّم بإسلامهم الفتح ، فيقولون : أتركوه وقومه . فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق . فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر أبي قحافة بإسلامهم . . الحديث .

(١) أخرجه في : ٦٤ - كتاب المنازى ، ٥٣ - باب وقال الليث ، حديث رقم ١٩٢٥

الثاني - قال الرازي : إذا حملنا الفتح على فتح مكة ، فلنناس في وقت نزول هذه

السورة قولان :

أحدها - أن فتح مكة كان سنة ثمان . ونزلت هذه السورة سنة عشر . وروى أنه عاش

بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً . ولذلك سميت سورة التوديع .

ثانيهما - أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وهو وعد لرسول الله ﷺ أن ينصره على

أهل مكة ، وأن يفتحها عليه . ونظيره ^(١) : (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَلَّا تَدْعُوا إِلَىٰ

مَعَادٍ) . وقوله : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) يقتضى الاستقبال ، إذ لا يقال فيما وقع (إذا

جاء) و (إذا وقع) وإذا صح هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات . من حيث أنه

خبر وجد مخبره بعد حين مطابق له . والإخبار عن الغيب معجزة . انتهى .

قال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) : ولأبي يعلى ، من حديث ابن عمر : نزلت هذه

السورة في أوسط أيام التشريق ، في حجة الوداع . فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم

أنه الوداع .

ثم قال : وسئلت عن قول الكشاف : إن سورة النصر نزلت في حجة الوداع أيام

التشريق ، فكيف صدرت بـ (إذا) الدالة على الاستقبال ؟ فأجبت بضعف ما نقله . وعلى

تقدير صحته ، فالشرط لم يتكامل بالفتح . لأن مجيء الناس أفواجا لم يكن كحل ، فبقية

الشرط مستقبل .

وقد أوود الطيبي السؤال ، وأجاب بجوابين :

أحدها - أن (إذا) قد ترد بمعنى (إذ) كما في قوله تعالى ^(٢) : (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً ..) الآية .

ثانيهما - أن كلام الله قديم . وفي كل من الجوابين نظرا لا يخفى . انتهى كلامه .

الثالث - قال الشهاب : المراد بـ (الناس) العرب . فـ (أل) عهدية . أو المراد الاستغراق

(١) [٢٨ / القصص / ٨٥] . (٢) [٦٢ / الجمعة / ١١] .

العرقى . والمراد عبدة الأصنام منهم . لأن نصارى تغلب لم يسلموا في حياته صلى الله عليه وسلم وأعطوا الجزية .

الرابع - روى البخارى^(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : ماصلى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) إلا يقول فيها : سبحانك ربنا وبمحمدك ، اللهم اغفرلى .

وفيه عنها أيضاً^(٢) : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبمحمدك ، اللهم اغفرلى ، يتأول القرآن .

قال الحافظ ابن حجر : معنى (يتأول القرآن) يجعل ما أمر به من التسبيح والتحميد والاستغفار ، فى أشرف الأوقات والأحوال .

وقال ابن القيم فى (الهدى) كأنه أخذه من قوله تعالى : (وَأَسْتَغْفِرُهُ) لأنه كان يجعل الاستغفار فى خواتم الأمور . فيقول إذا سلم من الصلاة : أستغفر الله ثلاثاً . وإذا خرج من الخلاء قال : غفرانك . وورد الأمر بالاستغفار عند انقضاء المفاك^(٣) : (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ . . .) الآية .

(١) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١١٠ سورة النصر ، ١ - حدثنا الحسن بن الربيع ، حديث رقم ٤٨١ .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١١٠ - سورة النصر ، ٢ - حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حديث رقم ٤٨١ .

(٣) [٢ / البقرة / ١٩٩] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١١ - سورة المسد

ويقال سورة أبي لهب ، مكية وآياتها خمس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[٢] (مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

[٣] (سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ)

[٤] (وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)

[٥] (فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ)

« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » أى خسرت يدها ، وخسر هو . واليدان كناية عن الذات والنفس ، لما بينهما من الزوم في الجملة ، أو مجاز من باب إطلاق الجزء على الكل . وجملة (وتب) مؤكدة لما قبلها ، أو المراد بالأولى خسارته فيما كسبه وعمله بيديه ، حيث لم يفده ولم ينفعه . وما بعده عبارة عن خسارته في نفسه وذاته ؛ لأن سعى المرء لإصلاح نفسه وعمله . فأخبر بأن محروم منهما ، كما تشير له الآيتان بعد : أعنى هلاك عمله وهلاك نفسه . وقال ابن جرير^(١) : كان بمض أهل العربية يقول قوله : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) دعاء عليه من الله . وأما قوله : (وَتَبَّ) فإنه خبر . أى عما سيحقق له في الدنيا والآخرة . وعبر عنه بالماضى لتحققه .

وأبو لهب أحد عمومة النبي صلى الله عليه وسلم ، واسمه عبد العزى . وقد اشتهر بكنيته وعرف بها لولده له يقال له لب . أو لتلعب وجنتيه وإشراقهما . مع الإشارة إلى أنه من أهل النار ، وأن ماله إلى نار ذات لب . فوافقت حاله كنيته ، فحسن ذكره بها .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٣٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال الرواة: كان أبو لهب من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ. وأذية له وبغضة له وازدراء به وتنقضا له ولدعوته، ومات على كفره بعد وقعة بدر ولم يحضرها. بل أرسل عنه بديلا. فلما بلغه ما جرى لقريش مات غما - وقد روى الشيخان^(١) عن ابن عباس قال: لما نزلت^(٢) (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) صعد النبي ﷺ على الصفا ونادى: يا بني قهر! يا بني عدى! (لبطون من قريش) حتى اجتمعوا. فجعل الرجل إذا لم يستطع أرسل رسولا، لينظر ما هو. فجاء أبو لهب وقريش فقال: رأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدق؟ قالوا: نعم. ما جربنا عليك إلا صدقا. قال: فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبألك سائر اليوم. ألهذا جمعتمنا؟ فنزلت هذه السورة. وروى الإمام أحمد^(٣) عن ربيعة بن عباد الديلي قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي الحجاز وهو يقول: يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله، فتفاحوا. والناس مجتمعون عليه. ووراءه رجل وضىء الوجه أحول، ذو غدريتين، يقول: إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب. وفي رواية له: يتبعه من خلفه يقول: يا بني فلان! هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة. فلا تسمعوا له ولا تتبعوه. «مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ» أي أي شيء أغنى عنه ماله وما كسبه من سخط الله عليه وخسرانه. فكسبه هو عمله الذي يظن أنه منه على شيء. وقيل: ولده. لقرن الأولاد بالأموال في كثير من الآيات. وكانت العرب تمد أولادها للنائبات كالأموال، ففنى إغناءها عنه حين حل به التباب.

(١) أخرجه البخاري في: ٦٥ - كتاب التفسير، ١١١ - سورة المسد، - حدثنا

يوسف بن موسى، حديث رقم ٧٣٩.

وأخرجه مسلم في: ١ - كتاب الإيمان، حديث رقم ٣٥٥ (طبقتنا).

(٢) [٢٦ / الشعراء / ٢١٤]. (٣) أخرجه بالصفحة رقم ٣٤١ من الجزء الرابع.

قال الشهاب : والذي صححه أهل الأثر أن أولاده ، لعنه الله ، ثلاثة : معتب وعقبة
 وها أسما . وعتيبة (مصغراً) وهذا هو الذي دعا النبي ﷺ لما جهر بإيذائه وعداوته ،
 ورد ابنته وطلقتها . وقال صلوات الله عليه وسلامه : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك .
 فأكله السبع في خرجة خرجها إلى الشام . وفيه يقول حسان^(١) رضي الله عنه :

من يرجعُ العامَ إلى أهلهِ فأُكَيْلُ السَّبْعِ بِالرَّاجِعِ .

ثم قال . ولهب هو أحد هؤلاء فيما قيل ، قال الثعالبي : ومنه يعلم أن الأسد يطلق عليه
 كلب . ولما أضيف إلى الله ، كان أعظم أفراده « سَيَّصَلِي نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ » أي توقد
 واشتعال ، وهي نار الآخرة ، جزاء ما كان يأتيه من مقاومة الحق ومجاذته « وَأَمْرَأَتُهُ
 حَمَّالَةَ الْخَطَبِ » أي وسيصلها معه امرأته أيضا : ذ (امرأته) مرفوع عطفًا على الضمير
 في (سيصلي) أو على الابتداء ، و (في جيدها) الخبر . وقرئ (حمالة) بالنصب على الشتم
 والذم ، وبالرفع نعتاً أو بدلاً أو عطف بيان . إنما قيل لها ذلك لأنها كانت تحطب الكلام
 وتمشي بالنميمة . كما قاله مجاهد وعكرمة وقتادة .

قال الزمخشري : ويقال للشساء بالنمائم الفساد بين الناس ، يحمل الحطب بينهم ، أي يوقد
 بينهم ويورث الشر ، قال^(٢) :

من البيض لم تُصْطَدْ على ظهر لامةٍ ولمْ تَمْشِ بين الحيِّ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ

يعدحها بأنها من البيض الوجوه وأنها بريئة من أن تُصْطَادَ على سوء ولؤم فيها . ومن
 أن تمشي بالسعاية والنميمة بين الناس . وإنما جعل رطباً ليدل على التدخين الذي هو زيادة
 الشر . ويقال : فلان يحطب على فلان ، إذا أغرى به .

(١) لم أعر عليه في ديوان حسان ، في طبعتيه .

(٢) استشهد به في الكشف في تفسير السورة .

واستشهد به في اللسان بالمجلد الأول بالصفحة رقم ٣٢٢ (طبعة بيروت) .

وقال : يعنى بالحطب الرطب ، النميمة .

قال الشهاب : وهي استعمارة مشهورة لطيفة ، كاستعمارة حطب جهنم للأوزار .
قال ابن كثير : وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهي أم جميل ، واسمها (أروى)
بنت حرب بن أمية . وهي أخت أبي سفيان وعمه معاوية . وكانت عوناً لزوجها على كفره
وجحوده وعناده « فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ » قال الإمام رحمه الله : أى فى عنقها حبل
من الليف . أى أنها فى تكليف نفسها المشقة الفادحة ، للإفساد بين الناس وتأريث نيران
العداوة بينهم ، بمنزلة حامل الحطب الذى فى عنقه حبل خشن ، يشد به ما حمّله إلى عنقه ،
حتى يستقل به . وهذه أشنع صورة تظهر بها امرأة تحمل الحطب ، وفى عنقها حبل من
الليف ، تشد به الحطب إلى كاهلها ، حتى تكاد تحترق به .

وقال أيضا : قد أنزل الله فى ابن لهب وفى زوجته هذه السورة ، ليكون مثلاً يعتبر به من
يمادى ما أنزل الله على نبيه ، مطاوعة لهواه وإيثارا لما ألفه من العقائد والعوائد والأعمال ،
وأغتراراً بما عنده من الأموال ، وبما له من الصولة أو من المنزلة فى قلوب الرجال ، وأنه لا تغنى
عنه أمواله ولا أعماله شيئاً . وسيصلى ما يصلى . نسأل الله العافية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٢ - سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

مكية ، وآيها أربع . روى البخارى^(١) عن عائشة رضی الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية . وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم : (قل هو الله أحد) . فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ ، فقال : سلوه لأى شيء يصنع ذلك . فسألوه . فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبي ﷺ : أخبروه أن الله تعالى يحبّه .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن أبي مسعود رضی الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن . وأخرجه البخارى في قصة . وروى الإمام أحمد^(٣) عن أبي ابن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ! انسب لنا ربك . فأنزل الله تعالى هذه السورة .

- (١) أخرجه في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١ - باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث رقم ٢٥٩٦ .
- (٢) أخرجه بالصفحة رقم ١٢٢ من الجزء الرابع .
- (٣) أخرجه عن أبي سعيد الخدرى في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١ - باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث رقم ٢٠٨١ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)

[٢] (اللَّهُ الصَّمَدُ)

[٣] (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)

[٤] (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

« قُلْ هُوَ » أى الخبر الحق المؤيد بالبرهان الذى لا يرتاب فيه ، وهو ما يعبر عنه النحويون بالقصة أو الحديث أو الشأن . قال أبو السعود : ومدار وضعه موضعه ، مع عدم سبق ذكره ، الإيدان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد ، وإليه يشير كل مشير ، وإليه يعود كل ضمير « اللَّهُ أَحَدٌ » أى واحد فى الألوهية والربوبية . قال الزمخشري : (أَحَدٌ) بمعنى واحد . وقال ابن الأثير : (الأحد) فى أسمائه تعالى ، الفرد الذى لم يزل وحده ولم يكن معه آخر . والمهزمة فيه بدل من الواو . وأصله (وحد) لأنه من الوحدة . وفى (المصباح) : يكون (أحد) مرادفاً (لواحد) فى موضعين سماعاً :

أحدهما - وصف اسم البارئ تعالى فيقال هو الواحد وهو الأحد ، لاختصاصه بالأحادية . فلا يشركه فيها غيره . ولهذا لا ينعت به غير الله تعالى . فلا يقال (رجل أحد) ولا (درهم أحد) ونحو ذلك .

والموضع الثانى - أسماء العدد للغلبة وكثرة الاستعمال . فيقال أحد وعشرون ، وواحد وعشرون . وفى غير هذين يقع الفرق بينهما فى الاستعمال ، بأن (الأحد) لئنى ما يذكر معه ، فلا يستعمل إلا فى الجحد ، لما فيه من العموم ، نحو ما قام أحد . أو مضافاً نحو (ما قام أحد الثلاثة) . و(الواحد) اسم لمفتتح العدد . ويستعمل فى الإثبات ، مضافاً وغير مضاف . فيقال (جاءنى واحد من القوم) . انتهى .

وقال الأزهرى : الواحد من صفات الله تعالى ، معناه أنه لا ثانى له . ويجوز أن ينعت الشيء بأنه واحد . فأما (أحد) فلا ينعت به غير الله تعالى ، لخصوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه .

قال الإمام : ونسّر الخبر لأن المقصود أن يخبر عن الله بأنه واحد ، لا بأنه لا واحد سواء . فإن الوحدة تسكون لسكل واحد . تقول (لا أحد في الدار) بمعنى لا واحد من الناس فيها . والذي كان يزعمه المخاطبون هو التعمد في ذاته . فأراد نفي ذلك بأنه أحد . وهو تقرير لخلاف ما يعتقد به أهل الأصلين من الجوس ، وما يعتقدوه القائلون بالثلاثة ، منهم ومن غيرهم . وسيأتى لابن تيمية كلام آخر في سر إثاره بالتكثير « اللَّهُ الصَّمَدُ » أى الذى يصمد إليه في الحوائج ، ويقصد إليه في الرغائب . إذ ينتهى إليه منتهى السؤدد ، قاله الغزالي في (المقصد الأسنى) . وهكذا قال ابن جرير^(١) : الصمد عند العرب هو السيد الذى يصمد إليه ، الذى لا أحد فوقه ، وكذلك تسمى أشرافها . ومنه قول الشاعر^(٢) :

ألا بَكَرَ النَّاعِي بِخَيْرِي بِنِي أُسْدٍ بَعْمَرِ بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ
قال الشهاب : فهو (فَعَل) بمعنى مفعول . وصمد بمعنى قصد . فيتعمدى بنفسه وباللام وإلى . وقال ابن تيمية رحمه الله : وفي الصمد للسلف أقوال متعددة ، قد يظن أنها مختلفة وليست كذلك بل كلها صواب . والمشهور منها قولان :

أحدهما - أن الصمد هو الذى لا جوف له .

والثانى - أنه السيد الذى يصمد إليه في الحوائج .

والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة .

والثانى قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٤٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) استشهد به في اللسان بالصفحة رقم ٢٥٨ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) .

ثم توسع رحمه الله في مأخذ ذلك واشتقاقه والمأثور فيه ، إلى أن قال :
 وإنما أدخل اللام في (الصمد) ولم يدخلها في (أحد) لأنه ليس في الموجودات ما يسمى
 أحداً في الإنبات مفرداً غير مضاف . ولم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده . وإنما
 يستعمل في غير الله في النفي وفي الإضافة وفي العدد المطلق . وأما اسم الصمد فقد استعمله
 أهل اللغة في حق المخلوقين ، كما تقدم ، فلم يقل صمد بل قال (اللَّهُ الصَّمَدُ) فبين أنه المستحق
 لأن يكون هو الصمد دون ماسواه . فإنه المستوجب لغايته على الكمال . والمخلوق ، وإن كان
 صمداً من بعض الوجوه ، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه . فإنه يقبل التفرق والتجزئة . وهو
 أيضاً محتاج إلى غيره . فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه ، فليس أحد يصمد إليه
 كل شيء ولا يصمد هو إلى شيء ، إلا الله . وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق
 وينقسم وينفصل بفضه من بعض . والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من
 ذلك ، بل حقيقة الصمدية وكماله وحده واجبة لازمة ، لا يمكن عدم صمديته بوجه من
 الوجوه ، كما لا يمكن ثنوية أحديته بوجه من الوجوه .

وقال أبو السعود . وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمنزل
 من استحقاق الألوهية . وتعزية الجملة عن العاطف لأنها كالتنتيجة للأولى . بين أولاً ألوهيته
 عز وجل المستتبعة لكافة نعمات الكمال ، ثم أحديته الموجبة تنزهه عن شائبة التمدد والتركيب
 بوجه من الوجوه ، وتوهم المشاركة في الحقيقة وخواصها . ثم صمديته المقتضية لاستغفائه الذاتي
 عما سواه ، وافتقار جميع المخلوقات إليه ، في وجودها وبقائها وسائر أحوالها ، تحقيقاً للحق ،
 وإرشاداً لهم إلى سننه الواضح . ثم صرح ببعض ما يندرج فيما تقدم ، بقوله سبحانه « لَمْ يَلِدْ »
 تنصيهاً على إبطال زعم المقتزين في حق الملائكة والمسيح . ولذلك ورد النفي على صيغة الماضي .
 أي لم يصدر عنه ولد ، لأنه لا يجانس شيء ليمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا .
 كما نطق به قوله تعالى (١) « أُنْثَىٰ يَسْكُونُ لَهُ وَاَلَّذِي وَلَدًا وَلَمْ تَكُن لَّهُ وَاَصْحَابَةً » ولا يفترق إلى

(١) [٦/ الأنعام/ ١٠١] .

ما يمينهأ ويخلفه ، لا ستحالة الحاجة والفناء عليه ، سبحانه . انتهى .

وقال ابن تيمية . وقد شمل ما أخبر به سبحانه من تنزيهه وتقديسه عما أضافوه إليه من الولادة ، كل أفرادها . سواء سموها حسية أو عقلية ، كما تزعمه الفلاسفة الصابئون من تولد العقول العشرة والنفوس الفلكية التسعة التي هم مضطربون فيها ، هل هي جواهر أو أعراض؟ وقد يجعلون العقول بمنزلة الذكور والنفوس بمنزلة الإناث ، ويجعلون ذلك آباءهم وأمهاتهم وآلهتهم وأربابهم القرية . وذلك شبيه بقول مشركى العرب وغيرهم ، الذين جعلوا له بنين وبنات ، قال تعالى (١) (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ وَبَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ) وقال تعالى (٢) (أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) وكانوا يقولون : الملائكة بنات الله . كما زعم هؤلاء أن النفوس هي الملائكة ، وهي متولدة عن الله ، فقال تعالى (٣) (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله « وَلَمْ يُولَدْ » نفي لإحاطة النسب من جميع الجهات . فهو الأول الذى لم يتقدمه والد كان منه ، وهو الآخر الذى لم يتأخر عنه ولد يكون عنه . قال الإمام : قوله (وَلَمْ يُولَدْ) يصرح ببطلان ما يزعمه بعض أرباب الأديان من أن ابنا لله يكون لها ، ويعبد عبادة الإله ، ويقصد فيما يقصد فيه الإله . بل لا يستحى الغالون منهم أن يعبروا عن والدته بأى الإله القادرة ، فإن المولود حادث ولا يكون إلا بزواج ، وهو لا يسلم من عاقبة الفناء ، ودعوى أنه أزلّى مع أبيه ، مما لا يمكن تعقله . فهو سبحانه منزّه عن ذلك « وَلَمْ يَسْكُنْ لَهُ وَكُفُوا أَحَدًا » أى ولم يكن أحد يكافئه أى يماثله من صاحبة أو غيرها . وقال الإمام : الكفو معناه المكافئ والمماثل فى العمل والقدرة . وهو نفي لما يعتقد بعض الوثنيين فى الشيطان مثلاً . فقد نفي بهذه السورة

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٠] .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٥١ ، ١٥٢] .

(٣) [١٦ / النحل / ٥٧] .

جميع أنواع الإشراك . وقرر جميع أصول التوحيد والتنزيه . وقال ابن جرير^(١): الكفؤ والسكنى والكفاء ، في كلام العرب ، واحد . وهو المثل والشبه .
 وقرئ (كُفُوا) بضم الكاف والفاء وقلب الهمزة واواً . وقرئ بتسكين الفاء وهزها ،
 وهما قراءتان معروفتان ، واقتان مشهورتان . و (له) صلة (كفوا) قدمت عليه ، مع أن
 حقها التأخر عنه ، للاهتمام بها ، لأن المقصود نفي الكفاة عن ذاته تعالى . وأما تأخير اسم
 كان فلمراعاة الفواصل .

(فوائد من هذه السورة)

الأولى - قال الشهاب : فإن قلت الأمور بـ (قل) من شأنه إذا امتثل أن يتلفظ بالقول
 وحده ، فلم كانت (قُلْ) من المتألف فيه وفي نظائره في القراءة ؟ قلت : الأمور به سواء كان معينا
 أم لا ، مأمور بالإقرار بالمقول . فأثبت القول ليدل على إيجاب مقوله ولزوم الإقرار به على
 مرتّ الدهور .

الثانية - قال الإمام ابن تيمية : احتج بقوله تعالى (اللَّهُ الصَّمَدُ) من أهل الكلام المحدث
 من يقول الرب تعالى جسم ، كبعض الذين وافقوا هشام بن الحكم ومحمد بن كرام وغيرهما .
 قالوا : هو صمد ، والصمد الذى لا جوف له . وهذا إنما يكون في الأجسام المصمتة ، فإنها لا
 جوف لها ، كما في الجبال والصخور وما يصنع من عواميد الحجارة . ولهذا قيل في تفسيره إنه
 الذى لا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء ولا يأكل ولا يشرب . ونفي هذا لا يعقل إلا عما هو
 جسم . وقالوا : أصل الصمد : الاجتماع . ومنه تصميد المال ، وهذا إنما يعقل في الجسم المجتمع .
 وأما النفاة فقالوا : الصمد الذى لا يجوز عليه التفرق والانقسام . وكل جسم في العالم يجوز
 عليه التفرق والانقسام . وقالوا أيضا : الأحد الذى لا يقبل التجزؤ والانقسام . وكل جسم
 في العالم يجوز عليه التفرق والتجزؤ والانقسام . وقالوا : إذا قلتم هو جسم كان مركباً مؤلفاً

(١) انظر الصفحة رقم ٣٤٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة . وما كان مركباً مؤلفاً من غيره كان مفتقراً إليه ، وهو سبحانه صمد . والصمد الغني عما سواه ، فالركب لا يكون صمداً . انتهى .

وقال الرازي : قد استدل قوم من جهال المشبهة بهذه الآية في أنه تعالى جسم ، وهذا باطل لأننا بينا أن كونه أحداً ينافي كونه جسماً . فقدمة هذه الآية دالة على أنه لا يمكن أن يكون المراد من الصمد هذا المعنى ، ولأن الصمد بهذا التفسير صفة الأجسام المتضاغطة . وتعالى الله عن ذلك . فإذاً يجب أن يحمل ذلك على مجازه . وذلك لأن الجسم الذي يكون كذلك ، يكون عديم الانفعال والتأثر عن الغير . وذلك إشارة إلى كونه سبحانه واجباً لذاته ، ممتنع التغيير في وجوده وبقائه وجميع صفاته . انتهى .

وأقول: الصحيح في تأويل الصمد ما ذكرناه أولاً . وهو ما حكاه ابن جرير وغيره عن العرب في معناه . وإذا تحقق هذا ، فلا يعول على هذا الثاني ولا لوازمه .

الثالثة - قال ابن تيمية : كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب ، يجب تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات . في شيء من صفات الكمال الثابتة له . وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله . وهذه السورة دلت على النوعين . فقوله (أحد) من قوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ينفي المماثلة والمشاركة . وقوله (صمد) يتضمن جميع صفات الكمال . فالتناقض جنسها منفي عن الله تعالى . وكل ما اختص به المخلوق فهو من النقص التي يجب تنزيه الرب عنها . بخلاف ما يوصف به الرب . ويوصف العبد بما يليق به مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك . فإن هذه ليست نقائص بل ما ثبت لله من هذه المعاني ، فإنه يثبت لله على وجه لا يقاربه فيه أحد من المخلوقات ، فضلاً عن أن يماثله فيه . بل ما خلقه الله في الجنة من الماء والشارب والملابس لا يماثل ما خلقه في الدنيا وإن اتفقا في الاسم ، وكلاهما مخلوق . فالخالق تعالى أبعد في مماثلة المخلوقات من المخلوقات إلى المخلوق . وقد سمي الله نفسه علماً حليماً رؤوفاً رحيماً بصيراً عزيزاً ملكاً جباراً متكبراً ، وسمى أيضاً بعض مخلوقاته بهذه الأسماء . مع العلم أنه ليس المسمى بهذه الأسماء من المخلوقين مماثلاً للخالق جل جلاله في شيء من الأشياء .

الرابعة - قدمنا ما ورد في الحديث من أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن .
وقد ذكروا في ذلك وجوهاً - منها ما قاله أبو العباس بن سريج : أن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام . ثلث منها الأحكام ، وثلث منها وعد ووعيد ، وثلث منها الأسماء والصفات .
وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات .

وقال الغزالي في (جواهر القرآن) : مهمات القرآن هي معرفة الله ومعرفة الآخرة ومعرفة الصراط المستقيم . فهذه المعارف الثلاثة هي المهمة . والباقي توابع . وسورة الإخلاص تشتمل على واحدة من الثلاث ، وهي معرفة الله وتقديسه وتوحيده عن مشارك في الجنس والنوع . وهو المراد بنفي الأصل والفرع والكفو .

قال : والوصف بالصمد يشعر بأنه السيد الذي لا يقصد في الوجود للحوائج سواه .
نعم ، ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم . فلذلك تعدل ثلث القرآن أي ثلث الأصول من القرآن كما قال (الحج عرفة) أي هو الأصل والباقي تبع .

وقال ابن القيم في (زاد المعاد) : كان النبي ﷺ يقرأ في سنة الفجر والوتر بسورتي الإخلاص والكافرون . وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل ، وتوحيد المعرفة والإرادة ، وتوحيد الاعتقاد والقصد . فسورة الإخلاص متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة ، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق الشركة بوجه من الوجوه . والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه . ونفي الولد والوالد الذي هو من لازم الصمدية وغناه وأحديته . ونفي الكفو المتضمن لنفي التشبيه والتثمين والتنظير : فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له ، ونفي كل نقص عنه ، ونفي إثبات شبيهه أو مثل له في كاله ونفي مطلق الشريك عنه . وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يبين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك . ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن . فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء . والإنشاء ثلاثة : أمر ، ونهي ، وإباحة . والخبر نوعان : خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه ، وخبر عن خلقه - فأخلصت سورة الإخلاص الخبر عنه

وعن أسمائه وصفاته فعدلت ثلث القرآن . وخلصت قارئها المؤمن من الشرك العملي . كخلصت سورة قل يا أيها الكافرون من الشرك العملي الإرادي القصدى . ولما كان العلم قبل العمل وهو إمامه وقائده وسائقه والحاكم عليه ومنزله منازلته ، كانت سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن ، والأحاديث بذلك تكاد تبلغ مبلغ التواتر . و (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) تعدل ربع القرآن ، وفي الترمذى ^(١) : من رواية ابن عباس رضى الله عنهما ، يرفعه : (إِذَا زُلْزِلَتْ) تعدل نصف القرآن و (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن و (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) تعدل أربع القرآن . رواه الحاكم في المستدرک ، وقال : صحيح الإسناد .

ولما كان الشرك العملي الإرادي أغلب على النفوس لأجل متابعتها هواها ، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه ، لما لها فيه من نيل الأغراض . وإزالتها وقلعه منها أصعب وأشد من قلع الشرك العملي وإزالتها . لأن هذا يزول بالعلم والحجة ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشيء على غير ماهو عليه ، بخلاف شرك الإرادة والقصد ، فإن صاحبه يرتكب مايدلله العلم على بطلانه وضرره لأجل غلبة هواه واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه . فجاء من التأكيد والتكرار في سورة (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) المتضمنة لإزالة الشرك العملي ما لم يجئ مثله في سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) .

ولما كان القرآن شطرين : شطراً في الدنيا وأحكامها ومتعلقاتها والأمور الواقعة فيها من أفعال المكلفين وغيرها . وشطراً في الآخرة ومايقع فيها . وكانت سورة (إِذَا زُلْزِلَتْ) قد أخلصت من أولها وآخرها لهذا الشطر ، فلم يذكر فيها إلا الآخرة ، وما يكون فيها من أحوال الأرض وسكانها ، كانت تعدل نصف القرآن . فأحرز بهذا الحديث أن يكون صحيحاً . والله أعلم .

(١) أخرجه في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ١٠ - باب ما جاء في إذا زلزلت .

الخامسة - قال ابن تيمية : سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أكثرهم على أنها مكية . وقد ذكر في أسباب نزولها سؤال المشركين بمكة ، وسؤال الكفار من أهل الكتاب اليهود بالمدينة . ولا منافاة . فإن الله أنزلها بمكة أولاً . ثم لما سئل نحو ذلك أنزلها مرة أخرى . وهذا مما ذكر طائفة من العلماء . وقالوا : إن الآية أو السورة قد تنزل مرتين وأكثر من ذلك . فما يذكر من أسباب النزول المتمددة قد يكون جميعه حقاً . والمراد بذلك أنه إذا حدث سبب يناسبها ، نزل جبريل فقرأها عليه ، ليملمه أنها تتضمن جواب ذلك السبب . وإن كان الرسول يحفظها قبل ذلك . انتهى .

وقد تقدم في مقدمة هذا التفسير ، ومواضع أخر منه ، تحقيق البحث في معنى سبب النزول ، بما يدفع المناقاة في أمثال هذا . فراجعه . ولهذا السورة الشريفة تفاسير على حدة . من أمثلها كتابان لشيخ الإسلام ابن تيمية : أحدهما في تفسيرها ، والثاني في سر كونها تعدل ثلث القرآن . فاحتفظ بهما . والله الهادي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٣ - سُورَةُ الْفَلَقِ

مكية ، وآيها خمس : روى الإمام مسلم^(١) عن عقبه بن عامر أن رسول الله ﷺ قال :
لم تر آياتٍ أنزلت هذه الليلة ، لم ير مثلهن قط : قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الفاس .
وروى الإمام أحمد^(٢) وأبو داود والترمذي والنسائي عن عقبه بن عامر أن رسول الله ﷺ
صلى بهما في سفر .

(١) أخرجه في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٦٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه بالصفحة رقم ١٤٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

[٢] (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

[٣] (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)

[٤] (وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ)

[٥] (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » أى ألوذ به وألتجئ إليه . والفلق فعمل بمعنى المفعول . كقصاص بمعنى مقصوص . قال ابن تيمية : كل ما فلقه الرب فهو فلق . قال الحسن : الفلق كل ما انفلق عن شيء كالصبح والحب والنوى . قال الزجاج : وإذا تأملت الخلق بأن لك أن أكثره عن انفلاق . كالأرض بالنبات والسحاب بالمطر . وقد قال كثير من المفسرين : الفلق الصبح . فإنه يقال : هذا أبيض من فلق الصبح وفرق الصبح .

وقال بعضهم : الفلق الخلق كله . وأما من قال إنه واد في جهنم أو شجرة في جهنم أو أنه اسم من أسماء جهنم ، فهذا أمر لا نعرف صحته . لا بدلالة الاسم عليه ، ولا بنقل عن النبي ﷺ ، ولا في تخصيص ربوبيته بذلك حكمة . بخلاف ما إذا قال : رب الخلق أو رب كل ما انفلق أو رب النور الذى يظهره على العباد بالنهار . فإن في تخصيصه هذا بالذکر ، ما يظهر به عظمة الرب المستعاذ به . انتهى .

وقوله تعالى « مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ » أى من شر ما خلقه من الثقلين وغيرهم ، كأنما ما كان من ذوات الطباع والاختيار . وقوله سبحانه « وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ » قال أبو السعود :

تخصيص لبعض الشرور بالذكر، مع اندراجه فيما قبله لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه، لكثرة وقوعه . ولأن تعيين المستعاذ منه أدل على الاعتناء بالاستعاذة ، وأدعى إلى الإعادة . وقال الإمام ابن تيمية : وإذا قيل الفلق يعم ويخص ، فبعمومه استعيذ من شر ما خلق ، وبخصوصه للنور النهاري استعيذ من شر غاسق إذا وقب . فإن الغاسق قد فسر بالليل كقوله (١) (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ) وهذا قول أكثر المفسرين وأهل اللغة . قالوا : ومعنى (وَقَبَ) دخل في كل شيء . قال الزجاج : الغاسق البارد . وقيل لليل غاسق ، لأنه أبرد من النهار . وقد روى الترمذي (٢) والنسائي عن عائشة أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال : يا عائشة ! تعوذى بالله من شره ، فإنه الغاسق إذا وقب . وروى من حديث أبي هريرة مرفوعاً : الغاسق النجم . وقال ابن زيد : هو الثريا . وكانت الأستقام والطواعين تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها . وهذا المرفوع قد ظن بعض الناس منافاته لمن فسره بالليل فجعلوه قولاً آخر ، ثم فسروا وقوبه بسكونه . قال ابن قتيبة : ويقال الغاسق القمر إذا كسف واسود . ومعنى وقب دخل في الكسوف . وهذا ضعيف . فإن ما قال رسول الله ﷺ لا يعارض بقول غيره ، وهو لا يقول إلا الحق . وهو لم يأمر عائشة بالاستعاذة منه عند كسوفه بل مع ظهوره . وقد قال الله تعالى (٣) (وَجَمَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحْوَنَاتٌ آيَةُ اللَّيْلِ وَجَمَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً) فالقمر آية الليل . وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل . فأمره بالاستعاذة من ذلك أمر بالاستعاذة من آية الليل ودليله وعلامته . والدليل مستلزم للمدلول . فإذا كان شر القمر موجوداً ، فشر الليل موجود . وللقمر من التأثير ما ليس لغيره . ففكون الاستعاذة من الشر الحاصل عنه أقوى . ويكون هذا كقوله عن المسجد المؤسس على التقوى (٤) (هو

(١) [١٧ / الإسرائيل / ٧٨] .

(٢) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١١٣ و ١١٤ سورة العوذتين .

(٣) [١٧ / الإسرائيل / ١٢] . (٤) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ،

٩ - سورة التوبة ، ١٤ - حدثنا قتيبة ، عن أبي سعيد الخدري .

مسجدي) هذا مع أن الآية تتناول مسجد قباء قطعاً . وكذلك قوله عن أهل الكساء^(١) (هؤلاء أهل بيتي) مع أن القرآن يتناول نساءه . فالتخصيصُ لكون المخصوص أولى بالوصف . فالقمر أحق ما يكون بالاستعاذة ، والليل مظلم منتشر فيه شياطين الإنس والجن ، مالا تنتشر بالنهار . ويجرى فيه من أنواع الشر ما لا يجرى بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسرقة والخيانة والفواحش وغير ذلك . فالشر دائماً مقرون بالظلمة . ولهذا إنما جملة الله لسكون الأدميين وراحتهم . لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار . ويتوسلون بالقمر وبدعوته وعبادته . وأبو معشر البلخي له (مصحف القمر) يذكر فيه من الكفریات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه . انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

ثم خص تعالى مخلوقات آخر بالاستعاذة من شرها ، لظهور ضررها وعسر الاحتياط منها . فلا بد من الفزع إلى الله والاستنجاد بقدرته الشاملة على دفع شرها ، فقال سبحانه « وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ » قال ابن جرير^(٢) : أي ومن شر السواحر اللاتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها ، وبه قال أهل التأويل . فمن مجاهد : الرقي في عقد الخيط . وعن طاووس : ما من شيء أقرب إلى الشرك من رقية المجانين . ومثله عن قتادة والحسن . وقال الزمخشري : النفثات النساء أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها ويرقن . والنفث النفخ مع ريق . ولاتأثير لذلك ، اللهم إلا إذا كان ثمَّ إطعام شيء ضار أوسقيه أو إشمامه ، أو مباشرة السحور به على بعض الوجوه . ولكن الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام ، فينسبه الحشوية والرعاع إليهن وإلى نفثهن . والثابتون بالقول الثابت لا ياتفتنون إلى ذلك ولا يعبئون به .

(١) أخرجه الترمذي في : ٤٦ - كتاب المناقب ، ٦٠ - باب فضل فاطمة بنت محمد ﷺ

حدثنا محمود بن غيلان .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

فإن قلت : فما معنى الاستعاذة من شرهن ؟ قلت : فيها ثلاثة أوجه .
 أحدها - أن يستعاذ من عملهن الذي هو صنعة السحر ، ومن إغهن في ذلك .
 والثاني - أن يستعاذ من فتنهن الفاس بسحرهن وما ينجدهن به من باطنهن .
 الثالث - أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند فتنهن . انتهى .
 وفي الآية تأويل آخر . وهو اختيار أبي مسلم رحمه الله . قال : النفائات النساء . والعقد
 عزائم الرجال وآراؤهم ، مستعار من عقد الحبال . والنفث وهو تليين العقدة من الحبل برقيق
 يقدفه عليه ليصير حبله سهلاً . فمعنى الآية : إن النساء لأجل كثرة جهن في قلوب الرجال
 يتصرفن في الرجال بحولنهم من رأى إلى رأى ومن عزيمة إلى عزيمة . فأمر الله رسوله
 بالتعوذ من شرهن . كقوله^(١) : (إِنْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْ لَدِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)
 فكذلك عظم الله كيدهن فقال^(٢) : (إِنْ كَيْدُكُنَّ عَظِيمٌ) .

تنبيه :

قال الشهاب : نقل في (التأويلات) عن أبي بكر الأصب أنه قال : إن حديث سحره
 صلوات الله عليه ، المروى هنا ، متروك لما يلزمه من صدق قول الكفرة أنه مسحور . وهو
 يخاف لنص القرآن حيث أكدتهم الله فيه . ونقل الرازي عن القاضي أنه قال : هذه الرواية
 باطلة . وكيف يمكن القول بصحتها ، والله تعالى يقول^(٣) : (وَاللَّهُ يَمُصُّكَ مِنَ النَّاسِ) .
 وقال^(٤) : (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) ولأن تجوزة يفضى إلى القدح في النبوة .
 ولأنه ، لو صح ذلك ، لكان من الواجب أن يصلوا إلى ضرر جميع الأنبياء والصالحين ،
 واقدروا على تحصيل الملك العظيم لأنفسهم ، وكل ذلك باطل . ولما كان الكفار يعيرونه بأنه
 مسحور . فلو وقعت هذه الواقعة لكان الكفار صادقين في تلك الدعوة ، ولحصل فيه ، عليه
 السلام ، ذلك العيب . ومعلوم أن ذلك غير جائز . انتهى .

(١) [٦٤ / التباين / ١٤] .

(٢) [١٢ / يوسف / ٢٨] .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٧] .

(٤) [٢٠ / طه / ٦٩] .

ولا غرابة في أن لا يقبل هذا الخبر لما برهن عليه ، وإن كان محرّجاً في الصحاح . وذلك لأنه ليس كل محرّج فيها سالماً من النقد، سنداً أو معنى . كما يعرفه الراسخون . على أن المناقشة في خبر الآحاد معروفة من عهد الصحابة .

قال الإمام الغزاليّ في (المستصفى) : ما من أحد من الصحابة إلا وقد ردّ خبر الواحد . كردّ على رضى الله عنه خبر أبي سنان الأشجعيّ في قصة (بروع بنت واشق) وقد ظهر منه أنه كان يحلف على الحديث . وكردّ عائشة خبر ابن عمر في تعذيب الميت ببقاء أهله عليه . وظهر من عمر نهييه لأبي موسى وأبي هريرة عن الحديث عن الرسول ﷺ . وأمثال ذلك مما ذكر . أورد ذلك الغزاليّ في مباحث (خبر الآحاد في شبه المخالفين فيه) . وذكّر رحمه الله في (مباحث الإجماع) إجماع الصحابة على تجويز الخلاف للآحاد ، لأدلة ظاهرة قامت عندهم .

وقال الإمام ابن تيمية في (المسوّدة) : الصواب أن من ردّ الخبر الصحيح كما كانت الصحابة ترده ، لاعتقاد غلط الناقل أو كذبه ، لاعتقاد الرادّ أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا . فإن هذا لا يكفر ولا يفسق . وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً ، فقد ردّ غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التي هي صحيحة عند أهل الحديث . انتهى .

وقال العلامة الفنارى في (فصول البدائع) : ولا يضل جاحد الآحاد . والمسألة معروفة في الأصول . وإنما توسعت في نقولها لأنى رأيت من متمصبة أهل الرأى من أكبر ردّ خبر رواه مثل البخارى ، وضلل منكره . فعلمت أن هذا من الجهل بفن الأصول ، لا بل بأصول مذهبه . كما رأيت عن الفنارى . ثم قلت : المهدي بأهل الرأى أن لا يقيموا للبخارى وزناً . وقد ردوا المثمن من مروياته بالتأويل والنسخ . فتى صادقوه حتى يضلوا من ردّ خبراً فيه؟؟ وقد برهن على مدعاه ، وقام يدافع عن رسول الله ومصطفاه .

وبعد ، فالبحث في هذا الحديث شهير قديماً وحديثاً . وقد أوسع المقال فيه شراح (الصحيح) وابن قتيبة في شرح (تأويل مختلف الحديث) والرازى . والحق لا يخفى على طالبه ، والله أعلم . «وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» قال الرخشمي : أى إذا أظهر حسده وعمل بمقتضاه من بغى الغوائل للمحسود . لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره ، فلا ضرر يعود منه على من حسده . بل هو الضار لنفسه ، لا غتامه بسرور غيره .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٤ - سُورَةُ النَّاسِ

مكية ، وهي ست آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)

[٢] (مَلِكِ النَّاسِ)

[٣] (إِلَهِ النَّاسِ)

[٤] (مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ)

[٥] (الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ)

[٦] (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » أى الجأ إليه وأستمع به ، و (رب الناس) الذى يربهم بقدرته ومشيتته وتدييره . وهو رب العالمين كلهم والخالق للجميع « مَلِكِ النَّاسِ » أى الذى ينفذ فيهم أمره وحكمه وقضاؤه ومشيتته دون غيره « إِلَهِ النَّاسِ » أى معبودهم الحق وملاذمهم إذا ضاق بهم الأمر ، دون كل شيء سواه . والإله المعبود الذى هو المقصود بالإرادات والأعمال كلها « مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ » أى الشيطان ذى الوسوسة . وقد زعم الزنجشبرى ومن تبعه ؛ أن الوسواس مصدر أريد به الموسوس أو بتقدير (ذى) . وحقق غير واحد أنه صفة كالتثائر ، وأن فعلا (مصدر فعلا) بالكسر والمفتوح شاذ ، وقد بسط الكلام فى ذلك الإمام ابن القسيم فى (بدائع الفوائد) « الْخَنَّاسِ » أى الذى عادته أن يخنس - أى يتأخر - إذا ذكر الإنسان ربه ، لأنه لا يوسوس إلا مع الغفلة . وكما تنبه العبد فذكر الله ، خنس « الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ » أى بالإلقاء الخفى فى النفس . إما بصوت خفى لا يسمعه إلا من ألقى إليه ، وإما بغير صوت .

قال ابن تيمية : و (الوسوسة) من جنس (الوشوشة) بالشين المعجمة . يقال (فلان يوسوس فلانا) و (قد وشوشه) إذا حدثه سرّاً في أذنه . وكذلك الوسوسة . ومنه وسوسة الخلي . لكن هو بالسين المهملة ، أخص .

وقال الإمام : إنما جعل الوسوسة في الصدور ، على ما عهد في كلام العرب من أن الخواطر في القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم ، وكثيراً ما يقال (إن الشك يحوك في صدره) وما الشك إلا في نفسه وعقله . وأفاعيل العقل في المخ ، وإن كان يظهر لها أثر في حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر أو انبساطه .

وقوله تعالى « مِنْ أَلْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » بيان للذي يوسوس ، على أنه ضربان : ضرب من الجنّة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم ، وإنما يجد في أنفسنا أثراً ينسب إليهم . وضرب من الإنس كالمضللين من أفراد الإنسان ، كما قال تعالى (١) (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) . وإيحاؤهم هو وسوستهم .

قال ابن تيمية : فإن قيل : فإن كان أصل الشر كله من الوسواس الخناس ، فلا حاجة إلى ذكر الاستعاذة من وسواس الناس ، فإنه تابع لوسواس الجن . قيل : بل الوسوسة نوعان : نوع من الجن ، ونوع من نفوس الإنس . كما قال (٢) (وَاقْدَحَ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْتَسُوسًا بِهَيْئَةِ نَفْسِهِ) فالشر من الجهتين جميعاً . والإنس لهم شياطين كاللجن شياطين . وقال أيضاً : الذي يوسوس في صدور الناس نفسه لنفسه ، وشياطين الجن وشياطين الإنس . فليس من شرط الوسوسة أن يكون مستتراً عن البصر ، بل قد يشاهد .

لطائف :

الأولى - قال ابن تيمية : إنما خص الناس بالذكر ، لأنهم المستمعون . فيستمعون

(١) [٦ / الأنعام / ١١٢] . (٢) [٥٠ / ق / ١٦] .

بربهم الذى يصونهم ، وبملاكهم الذى أمرهم ونهاهم وبإلههم الذى يعبدونه من شر الذى يحول بينهم وبين عبادته . ويستعيذون أيضاً من شر الوسواس الذى يحصل فى نفوس منهم ومن الجنّة . فإنه أصل الشر الذى يصدر منهم والذى يرد عليهم .

وقال الناصر : فى التخصيص جرى على عادة الاستعطاف ، فإنه معه آمّن .

الثانية - تكرير المضاف إليه وهو (الناس) باللفظ الظاهر ، لمزيد الكشف والتقرير والتشريف بالإضافة . فإن الإظهار أنسب بالإيضاح الموقوف له عطف البيان . وأدل على شرف الإنسان . وقيل : لا تكرار . لجواز أن يراد بالعام بعض أفراده . فد (الناس) الأوّل بمعنى الأجنة والأطفال المحتاجين للتربية . والثانى الكهول والشبان ، لأنهم المحتاجون لمن يسوسهم . والثالث الشيوخ لأنهم المتعبدون المتوجهون لله .

قال الشهاب : وفيه تأمل .

الثالثة - فى تعداد الصفات العليا هنا ، إشارة إلى عظم الاستعاذ منه . وأن الآفة النفسانية أعظم من المضار البدنية ، حيث لم يكرر ذلك الاستعاذ به فى السورة قبل ، وكرره هنا إظهاراً للاهتمام فى هذه دون تلك . نقله الشهاب .

الرابعة - قال ابن تيمية : الوسواس من جنس الحديث والكلام . ولهذا قال المفسرون فى قوله (مَا تُوسِّسُ بِهِ نَفْسُهُ) قالوا : ما تحدّث به نفسه . وقد قال ﷺ (١) : إن الله تجاوز لأمتى ما تحدّث به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به . وهو نوعان : خبر وإنشاء . فالخبر إماعن ماض وإماعن مستقبل . فالماضى يذكره والمستقبل يحدثه ، بأن يفعل هو أموراً ، أو أن أموراً ستكون بقدر الله أو فعل غيره . فهذه الأمانى والمواعيد الكاذبة . والإنشاء أمر ونهى وإباحة .

(١) أخرجه البخارى فى : ٤٩ - كتاب العتق ، ٦ - باب الخطأ والنسيان فى العتاقة والطلاق ونحوه ، حديث رقم ١٢٤٢ ، عن أبى هريرة .

الخامسة - قال ابن تيمية : الفرق بين الإلهام المحمود وبين الوسوسة المذمومة هو الكتاب والسنة . فإن كان مما ألقى في النفس مما دل الكتاب والسنة على أنه تقوى لله ، فهو من الإلهام المحمود . وإن كان مما دل على أنه فجور ، فهو من الوسواس المذموم . وهذا الفرق مطرد لا ينقض .

وقد ذكر أبو حازم في الفرق بين وسوسة النفس والشيطان ، فقال : ما كرهته نفسك لنفسك فهو من الشيطان فاستعد بالله منه . وما أحبته نفسك لنفسك فهو من نفسك فانها عنه .

السادسة - قال الإمام الغزالي في (الإحياء) في بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة ، مأمثاله : وإذا قلت (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فاعلم أنه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله عز وجل ، حسداً لك على مناجاتك مع الله عز وجل ، وسجودك له . مع أنه لمن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها . وإن استمادتك بالله سبحانه منه ، بترك ما يحبه ، وتبديله بما يحب الله عز وجل ، لا بمجرد قولك . فإن من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو ليقته فقال (أعوذ منك بهذا الحصن الحصين) وهو ثابت على مكانه ذلك لا ينفعه ، بل لا يفيد إلا بتبديل المسكن . فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن ، فلا يقنيه مجرد القول ، فليقترن قوله بالعزم على التموذ بحصن الله عز وجل عن شر الشيطان . وحصنه (لا إله إلا الله) إذ قال عز وجل فيما أخبر عنه نبينا ﷺ - لا إله إلا الله حصني . فن دخل حصني أمن من عذابي . والمتحصن به من لا معبود له سوى الله سبحانه . فأما من اتخذ إلهه هواه ، فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله عز وجل . انتهى .

وملخصه أن التموذ ليس هو مجرد القول ، بل القول عبارة عما كان للمتعوذ من ابتعاده بالفعل عما يتعوذ منه ، فكان ترجمة لحالهم . وهذا المعنى كان يلوح لي من قبل أن أراه في كلام حجة الإسلام ، حتى رأيت ، فحمدت الله على الموافقة .

السابعة - قال الإمام الغزالي في (الإحياء) أيضاً ، في بيان تسلط الشيطان على القلب

بالوسواس ، ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها ، ما مثاله :

اعلم أن القلب في مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب . ومثاله أيضاً مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب . أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف السور المختلفة ، فتترامى فيها صورة بعد صورة ولا يخلو عنها . أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه . وإنما مداخل هذه الأنار المتجددة في القلب في كل حال ، إما من الظاهر فالحواس الخمس . وإما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان . فإنه إذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر في القلب . وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلاً بسبب كثرة الأكل وسبب قوة من المزاج ، حصل منها في القلب أثر . وإن كفف عن الإحساس ، فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء إلى شيء . وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر . والمقصود أن القلب في التغيير والتأثر دائماً من هذه الأسباب ، وأخص الأنار الحاصلة في هذه الخواطر - وأعنى بالخواطر ما يحصل فيه من الأفكار والأذكار - وأعنى به إدراكه علوماً ، إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر . فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تحظر بعد أن كان القلب غافلاً عنها .

والخواطر هي الحركات للإرادات . فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور النوى بالبال لا محالة . فبدأ الأفعال الخواطر . ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء . والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو للشر ، أعنى إلى ما يضر في العاقبة . وإلى ما يدعو إلى الخير ، أعنى إلى ما يرفع في الدار الآخرة . فهما خاطران مختلفان . فافتقرا إلى اسمين مختلفين . فالخاطر المحمود يسمى إلهاماً والخاطر المذموم ، أعنى الداعي إلى الشر ، يسمى وسواساً . ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة . ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث . ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب . هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب . فهما استنفارت حيطان البيت بنور النار ، وأظلم

سقفه واسودّ بالدخان ، علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة . وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان . فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً . وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً . واللطف الذي يهيم به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً . والذي به يهيم لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلاناً . فإن المعاني المختلفة تفتقر إلى أسامٍ مختلفة . والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى ، شأنه إفاضة الخير وإفاضة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف . وقد خلقه وسخره لذلك . والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك . وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء والتخويف ، عند إلهام الخير ، بالفقر ، فالوسوسة في مقابلة الإلهام . والشيطان في القابلة الملك ، والتوفيق في مقابلة الخذلان .

ثم قال الغزالي : ولا يمجو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ماسوى مايوسوس به . لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان من قبل . ولكن كل شيء سوى الله تعالى ، وسوى ما يتعلق به ، فيجوز أيضاً أن يكون مجالاً للشيطان . وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال . ولا يعالج الشيء إلا بضده . وضد جميع وسواس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبرؤ عن الحول والقوة ، وهو معنى قولك (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى . وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلمات على سبيل الخلسة . قال الله تعالى ^(١) (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) . ثم قال : فالوسوسة هي هذه الخواطر . والخواطر معلومة . فإذن ، الوسواس معلوم بالمشاهدة . وكل خاطر فله سبب . ويفتقر إلى اسم يعرفه . فاسم سببه الشيطان . ولا يتصور أن ينفك عنه آدمي . وإنما يختلفون بعصيانه ومتابعته . فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام ، والملك والشيطان والتوفيق والخذلان . انتهى .

وإلى هنا وقف القلم بالمؤلف رضى الله تعالى عنه . وبه تم كتاب (محاسن التأويل) والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .